البرتو بيفيلاكوا

ايروس



البرتو بيفيلاكوا

إيروس

ترجمة
شارل شهوان



البرتو بيفيلاكوا

ايروس

EROS
BY
Alberto Bevilacqua

ترجمة

شارل شهوان



ص ب ١١٣/٥٧٥٢
بيروت لبنان

الطبعة الاولى ١٩٩٨

المحتويات

مغامرتي هذه... ٧

إيروس هو لقاء سعيد ١٤

إيروس والطهارة ٢٠

إيروس العنف والثأر ٣٨

إيروس هو أيضاً أسطورة فاتنة ٥٧

إيروس حين لا تتوقعه أبداً ٥٩

إيروس يتحدى الزمن ٦٦

إيروس الزاهد ٦٩

إيروس المتفاني ٨٢

إيروس واللعب ٨٧

إيروس التذكر المفاجئ ٩٥

إيروس والحيل الصغيرة ١٠٦

إيروس يمكن أن يكون مداعبة أو رسالة... ١٢١

سخرية، سخرية ١٣٨
إيروس والحلول الحنونة ١٦٥
إيروس ووالدتي ووالدي ١٨٥
إيروس وأخوة كل المخلوقات ١٨٧
إيروس والكتابات السرية ١٨٩
إيروس تلك التي لم تكن يوماً ٢١٣

مغامرتي هذه...

مغامرتي هذه، المؤلفة من قصص حب عديدة ترافقني إلى الوقت الحاضر، عبر حياة الحواس، طولاً وعرضاً، عبر حياتي بأكملها، بدأت تتحرك في داخلي، فجراً ذات يوم، في مطار بارما. غالباً ما كنت أتوجه إلى هناك، حين يكون بالكاد انبلج ضوء النهار، طائفاً بين شاشات التلفزيون المتوهجة التي كانت تعلن انطلاق الرحلات إلى أكثر المناطق غرابة وأبعدها على الإطلاق.

كان ثمة توق يدفعني للرحيل، لترك كل شيء. بيد أني لم أكن أعرف إلى أين، لم يكن لتوقي أي وجهة، كان مجرد نزوة طفولية.

أحياناً كنت لأغالي فأروح، مثلاً، أوضب حقائبي لمجرد الشعور المرضي بلذة هذا الوهم الممزوج بمرارة مغادرة الأحاسيس التي بدا وكأنما تحرر نفسها مني، والتي تراءت لي كسفن بعيدة على وشك التواري وراء الأفق الذي كنت أرقبه من على شاطىء أصبح العيش عليه مستحيلاً.

كانت تخالجني خيبة أمل حتى حيال الأشياء التي ليس من المفروض أن تشعرني بذلك؛ مخدوعاً كنت، جاهلاً الفاعل أو

المسبب. وتابعت أراوغ حول الظلال مبصراً في كل منها خيانة للحب الذي كنت أمنح، الذي كنت منحت. بدا وكأنه من حولي لم يكن هناك سوى اهتياج نساء شهواني، استحالة سبر أعماقهن السرية، والمعرفة المسبقة أنه عاجلاً أم آجلاً سوف تهرب مني حتى أكثرهن عشقاً لي، نتيجة غلطة قاضية.

*

كنت أتخبط داخل عزلة لا أثر فيها للسلام، وحتى منحى حياتي الإجتماعية الجديدة التي كان علي أن أعيشها، قبل الجميع، كان يثير فيّ الإشمئزاز ويدفع بي بعيداً أكثر فأكثر.

باكراً ذات صباح، أمام شاشة متوهجة كانت تومض معلنة انطلاق رحلة إلى أحد الأمكنة النائية، أدركت ما يمكنني القيام به؛ وأكثر تحديداً ما لايزال كل منا قادراً على فعله. الواحد منا لا يغادر بدافع الحنين، بل على العكس؛ ولا لأن أمراً ما قد انتهى، حين تبقى من الحياة أشياء كثيرة، وأجنحة قادرة على التحليق. بمقدورك الرحيل بدافع من شعور متأجج، الوحيد الذي شعرت به حقاً: الشعور بالأمان، أخيراً، بالراحة. بأحاسيسك مفعمة، مرتبة كمثل نوطات موسيقية يتوقع أن تصدر أنغاماً رائعة. كنت بحاجة لأن أنظم رغباتي: فأعيشها وأعيشها مجدداً. عاد كل شيء لوهلة. الرغبة الجامحة في أن أضع بعض الترتيب لرغباتي، وأعيد إليها لمعانها بعد أن أنقّيها من كل شوائب العار الملتصقة بها.

أدوّن ملاحظاتي، أحيا، أكتب كل هذا، أتذكر.

ولا يمكنني القول إذا ما كنت سأغادر حقاً في يوما ما، في رحلة مبكرة.

يحدث أن تتبادل الكلام مع بعض العشاق، يواجه أحدكما

الآخر، تستعيدان حتى ذكريات بإحساس منك بأنك تفضي لنفسك بأسرار ما. وكأنما الحبيب يلج أعماق تجاويفنا النفسية. يكتشف كل منا هوية الآخر، انسجام تام:

... إني أنظر إلى جسدها. لاتزال على شفتيها ترتسم إبتسامة غامضة، راضية، والآن تتجاذبنا معاً رغبة للإعتراف بالكلمات، بعد الإعتراف الذي حصل للتو بواسطة الأفعال، بالصمت.

راحت تقرأ أفكاري وسألتني «متى»؟

«كنت في العاشرة. كنت أتمدد على السرير وأروح أختلق أشياء رائعة».

«أخبرني».

«الأشياء التي كنت أتخيلها كانت قوية للغاية، كثيفة للغاية، حتى لتكاد تبدو حقيقية. شعرت أني كنت في الواقع أعيش كل شيء في خيالاتي الشهوانية: صور نساء كانت لتأتي إلي، تتسلل بنفسها إلى الأفعال التي تبثّ فيها الحياة، هناك في غرفتي الظليلة الساكنة الصغيرة، أول غرائزي الشهوانية، فتصبح الغرفة الصغيرة منصة، مسرحاً إيروتيكياً متوهجاً. كنت صبياً صغيراً، ولكنني كنت مندفعاً بقوة، بشجاعة، ووحشية، إلى رؤى واضحة من الأوضاع والإيماءات التي لم أكن لأعرفها في تلك السن. كنت كمن استحوذ عليه رجل بالغ ليتسنى له استعادة تجارب عاشها. كان عمري آنذاك، معلقاً بين الطفولة الأولى وبدايات المراهقة، شبيهاً بالأجنحة الشفافة والأعين المعصوبة في رسومات إيروس، إبن مارس وفينوس: العصابة لا تمنعه من الرؤية بل على العكس تمكنه من رؤية التفاصيل الصغيرة، لأنها في الواقع حجاب الشهوة الجنسية، جوهر اللذة الحق».

«وبعد؟»

«وبعد، في داخلي، كان إيروس يتابع في النمو والتغيير. ولم يعد ذلك الطفل في الأساطير القديمة، بل أصبح شاباً محباً كما والدته وعنيفاً كما والده، شرهاً لا يعرف الشبع. هكذا وصفته «ديوتيما» في مناقشة أفلاطون: مفعماً بالنشاط والحيوية، مغامراً، عاشقاً للشعر، لا يمكن مجاراته في ابتداع الشهوات الحسية والجنسية؛ قادراً على الإطالة في ألاعيب النشوة بفضل القوة والقدرة على المقاومة اللتين اكتسبهما في طبيعة والده...

في «المناقشة»، إيروس هو أيضاً المؤتمن على الأسرار، سارق الأسرار الحميمة، عدو أولئك الذين لا يفهمون نور قوته... وبالتالي كان نوره بالنسبة لي البهجة بحد ذاتها.

«لنعد إلى خيالاتك الشهوانية التي كنت تعيشها بزخم في غرفتك الصغيرة المظلمة... يقول فرويد إن «إيروس» يعني أن نرجسية الليبيدو التي تتصاعد إلى مبدأ اللذة والحقيقة، تزيد من حدة غريزة بقاء الفرد والجنس البشري».

«ويتابع فرويد قائلاً إنه بهذه الطريقة يصبح الليبيدو طاقة تقود، بالفعل، من خلال هذا التسامي إلى ذروة الحياة الروحية».

في عينيها أقرأ ما كانت تفكر به، وما كانت ترغب في أن تسألني. أجبت، «هذا صحيح: حتى في ذلك الوقت، وكنت صبياً صغيراً أفهمتني الطبيعة لذة «الوقت المعلق»، تلك اللحظة الإستثنائية حين يمتزج فيها الجسدان ويصبح كل منهما الآخر».

مدت يدها وأشارت إلى صورة فوتوغرافية وراحت تحدق فيها.

«أجل، هذا أنا، كنت لا أزال في العاشرة من عمري وكنت

أجذّف في قارب مزيّف وأمي إلى جانبي. آنذاك درجت العادة على التقاط صور للأطفال أمام ستائر المسرح الخلفية الملونة».

صورة أخرى مغبشة كانت تبتسم من على الطاولة بين صور أخرى كنت أحتفظ بها كأعز صور حياتي.

«من هي؟»

«إنها ألبينا سافي. صغيراً، كانت تصطحبني معها إلى ضفاف نهر البو، وكانت توحي إلي بخيالاتها، الشهوانية التي لا تنضب من خلال حركات جسدها، جسد مازلت أرى إليه كالمعجزة. الرجال الذين كانوا يعيشون على ضاف النهر كانوا يرددون أنها كانت واحدة من النساء النادرات اللواتي يملكن ذكاء في «الأخت جيجي» وكانت هذه العبارة إحدى العبارات الملطّفة للدلالة على العضو التناسلي الأنثوي. كانت أول امرأة حدثتني، لتروي لي قصصها المتّقدة عن أشياء غريبة جعلت إيروس يقترب أكثر، وكانت هي تصفها كمن يفتش عن البحر ويراه من غير أن يجده حتى، مثل السراب الذي يكتشف البحر، والمياه اللازوردية المتماوجة فقط حيث سهول الرمال الجافة.

«قالت لي: بالفعل، سافعل أي شيء طالما سيحملني إلى مكان لم أزره من قبل. حتى ولو أنك، في نهاية المطاف، لم تجد ما كنت تحلم به، فالمهم أن تكون عشت تلك المغامرة».

«كانت تلقت تربية دينية. ثم أردفت موضحة، حين أخفق الرب في أن ينكشف أمامها عمدت إلى إبتكار ما يشبه أرضية خاصة بها. اتخذت لنفسها عدداً كبيراً من العشاق: الطريقة الوحيدة للإستمرار في الحياة هي في أن تستنفد حياتك إلى آخر

نقطة. ليس أن تكون سيئاً لمجرد أن تكون سيئاً. ولكني لا أعرف كيف تنجز الأمور منقوصة. والآخرون إما يعشقونني وإما يكرهونني حتى الموت.

«نظرت إلى الأعلى ورأت نفسها داخل مالك الحزين الأزرق الذي انطلق محلقاً في السماء، فرحاً متحرراً من الأعشاب النهرية الضارة، مشرعاً جناحيه إلى السماء الزرقاء الواسعة. فجأة أحاطت به مجموعة من الصقور. رسمت أولاً دائرة حوله لتتأكد من أنه أدرك أنها تحرم عليه حق امتلاك فضائها. ثم انقضت عليه لتكيل إليه الضربات من كل حدب وصوب. سقط على الحجارة. وشرع يضرب جناحيه في مسعى آخر للنهوض.

«راحت ألبينا سافي تحدق في مالك الحزين وتمتمت: «هذا ما سيصيبني أنا أيضاً...»

*

«ماذا تعنيه ذاكرتك لتلك المرأة؟»

«كانت أول مرأة احترمتها، كانت المرأة التي رأيت فيها نفسي».

كنا مستلقيين على الحصى عند ضفة مجرى النهر الجافة، عاريين، نتنعم بأشعة الشمس ونستحم بين الفينة والأخرى في أحواض المياه بين الصخور. تطلعت «ألبينا» إلى السماء ومدت ذراعها وجذبتني إلى جسدها.

«وها أنذا أمام عضو «ألبينا التناسلي».

إذاً، هي المرأة الأولى التي قمت...؟

«لا. كل ما فيها كان مشرعاً، مفعماً بالضوء إلى حد أن

عضوها بدا لي غير مختلف عن يدها أو أحد قدميها الناصعين الرائعين. كانت «ألبينا سافي» تردد «الخطيئة هي في العين التي تراها، لقد ورد هذا في الكتاب المقدس وهذا صحيح... إلى حد أنه لا يزال قانون حياة بالنسبة إلي أنا أيضاً».

اكتشاف العضو التناسلي الأنثوي بطريقة أخرى جاء في ما بعد، «وسأخبرك عن ذلك أيضاً».

إيروس هو لقاء سعيد...

حين أتعرف إلى امرأة جديدة، امرأة تكون على تناغم معي، أتذكر الليالي حين كنت طفلاً أراقب درب اللبانة.

«هنالك عالياً في السماء ثمة درب بإمكاننا أن نراها في الليالي الصافية. إنه يدعى درب اللبانة وهو يلتمع صعداً بلمعانه الباهت. على هذا الدرب تسير جميع الآلهة لأنه يؤدي إلى منزل زوس ذي الصوت الراعد، في مملكته المقدسة».

هذا ما قالته أوفيد، في بداية الـ «تحولات».

كنت أراقب بدون توقف ومن دون أن أغادر النافذة ولو للحظة، منتظراً أن يرسل إلي الكون المجهول طيفاً ما، إشارة ما. حين كنت أتأمل في «تحولات» كنت أردد لنفسي: «يجب أن تُفرض كل صورة على صورة أخرى وتصبح من خلالها مثبتة. نحن في كون حيث الأجساد والقصص السماوية هي في تحوّل مستمر إلى أشكال أرضية ترتبط ببعضها البعض داخل لولب مضاعف».

وإحدى أجمل لحظات الأيروس تكون حين يتلذذ بمفاجأتنا بلقاءات مفرحة غير متوقعة.

إنه يقدم عنايته الإلهية، ويطلب منا بالمقابل إيماناً حراً وعميقاً.

تأريخ لأحداث عاشقين متواطئين...

يتبادل العاشقان الأسرار بصمت:

«لم الإستمرار في البحث، إذا ما كان إيروس معدم الروح. الجنس لا يصبح إيروتيكياً البتة إذا كان من دون روح، أثر لها على الأقل، نفس واحد حتى، إشعاع روح: وإلا فإنه مجرد فعل حقير بائس. يكون إيروس في حالته السوية حين يشعر الواحد أنه في حالة اعتراف متبادل، في حالة تطابق مع المحبوب تسمع بإشعال جوهر الجنس وتحويل الفعل إلى فانتازيا، إلى مسرحية...»

«وبالتالي فإن هذا النوع من الإتصال بين عاشقين يجب أن يكون انطلاقاً من معرفة متبادلة؟»

«ليس بالمعنى الزمني الزائل. لمن الرياء والهزالة أن تقول بعض النساء «دعنا نتعرف إلى بعضنا أولاً».

«بالطبع كل إنسان يحمل في أعماقه ذاكرة موروثة تعيش فيها الحيوات التي سبقت حياتنا والحيوات التي تألفت منها حياتنا ـ حيوات الآباء الألفية ـ وهي التي خلقت طبقات من الأحاسيس والمشاعر وكدستها في داخلنا. يتجاذب المرأة والرجل ويسمحان بولادة إيروس حين يكون بينهما انسجام في المشاعر والأحاسيس التي سبق أن عاشها آخرون عبر الزمن وتعمد لحظة الحاضر إلى إيقاظها. وهكذا فإن النداء لا يمكن مقاومته. إنه ذلك التطابق الأصلي الذي قد لا نكون مدركين لوجوده، والذي أدعوه «الروح الأيروتيكية...»

يمكن لهذا أن يحدث منذ المرة الأولى، إحدى المرات الأولى.

إيروس هو طريقة لنتذكر أفضل ما في ذاتينا معاً». توافقني بالقول: «... كنت أتنقل باستمرار من رجل إلى آخر. وكانت أحيان أوافق فيها على الخروج مع أي كان. كنت أبحث عن إيروس لكني كنت أعود خائبة منزعجة».

«والآن؟ معي؟»

سألته مداعبة كتفيها، فخذيها، ساقيها، ثم عضوها: برفق ويتفتح ويتمدد كما حين نداعب عنق زهرة بلمسات صغيرة برؤوس أصابعنا. عناصر نقية وجوهرية: أشباه الظلال، القلق، التعقيدات التي تتبدد وتتلاشى. وجسدها الذي يذوب في اللذة: «تابع ما تقدم به وكلمني». كلمات، إيماءات إلى حد التخمة وأكثر منها أيضاً. هيجان يتسلل إلى الغرفة كما الرياح الساخنة من تحت الأسكفة... يسهل الصمت كما تحلو الإعترافات:

«كلميني أنت أيضاً. سأستمر في مداعبتك ولكن أرجوك تكلمي أخبريني أشياء. أحلامك الشهوانية الأكثر إتقاداً. ذروة ما أدركته في الجنس».

تخبره ثم يأتي دورها: «الآن أخبرني أنت».

في هذه الحكايا، إنحراف محبب يصدر من أعمق الأسرار وأكثرها حميمية، حياة عاشقين لم تكشف أسرارها إلى الآن، تثير، تستفز حتى أنها تثير شعوراً ضئيلاً مؤلماً بالغيرة وذروة لا يمكن تحقيقها بطريقة أخرى: «أخشى أن أؤذيك».

«أريدك أن تؤذيني».

نزولاً عبر بطنها وكأنما عليه كسرات صغيرة تتوجب إزالتها، يتلمس أعلى الفخذين، تطوف أصابعه بين العانة واللحم، تتندى الغمازات بقطرات العرق، وعندها، عند تلك النقطة بالذات تأتي

الشفاه لتحل محل اليد. هذا هو إيروس: أن تحب جسداً، جزءاً من الجسد لأنك تفهمه، تتكلم إليه كما إلى ذهن متقد، تستمع إليه مثل أصوات عقلين يتحاوران، تتعرف إليه. وهذا يسمح لك بإدراكه، من خلال اكتشاف الروح في أماكن الجسد الأكثر زوالاً والأشد سرّية، وهذا ما لا يعترف به العشاق العاديون، تلك الأمكنة التي طال انتظارها ليتم اكتشافها من داخل تناغم الجسد، «الأمكنة الثلاث»، في الثنايا الأكثر دقة، والتي تتدفق منها اللذة الذروة.

وفيما يتقدم الفعل الجنسي، يندفع الذهن ليسكن الجسد بكثافة أقوى، بكل إمكانياته الخاصة بالتفسير والإيحاء والتوسلات، من المهم جداً احترام الجنس بدل استغلاله بكل بساطة. «تعال».

تفلت العنان لنفسها. هزات جماع، يستمع إليها. أعماق أيروس البدائية ترسل إشاراتها، كما من أعماق مجموعة كواكب متلألئة تصل إلينا أخيراً أصوات العدم، تخيفنا أحياناً، محوّلة السحر والغموض إلى عنف.

الإمتلاك، أن إيروس ليس ولا يمكن أن يكون أبداً كما يعتقد بعض الرجال، مجرد ايلاج. هذا تجديف. التبجح بالإيلاج كدليل على القوة، والمفاخرة برجولة المحارب يقصينا إلى نقيض إيروس، إلى عالم الغباء الجنسي، حيث الإيلاج يكون في الغالب وحشياً وقصير الأمد. كن، على العكس إثنين في واحد، عش هذه الحالة الإستثنائية، غير مدرك الأحاسيس حيناً ومتقداً حيناً آخر. تعرف إلى العذوبة الجبارة في «الشعور بالآخر»، بتمهل موسيقى مضبوطة حتى تتمكن هذه الموسيقى من التحليق، إلى حين تتمزق هذه العذوبة وتتحول إلى أشلاء.

دع كل شيء يطول قدر الإمكان قبل أن ينتهي. بإمكان العاشق أن يطيل جمال الأغنية، ما القذف سوى مسألة عرضية زائدة. يكمن إيروس في الحماسة المشتعلة أو النشوة في التأجيل، الإقتراب، الكبح، ذلك الذي يطلق عليه الشرقيون إسم «الموت الصغير». يطلق بعض الرجال القوة الكامنة في منيهم في دقائق قليلة. إنهم لا يسمعون ولا يرون أيروس. يكون إيروس حاضراً أيضاً حين يتحسس كل من العاشقين أيا منهما يتدخل أو يتقهقر وراء تحركات الآخر.

إنهما في انسجام تام كما لو كان أحدهما داخل الآخر منذ الأزل. دقة الإنسجام التي لا تخطىء. مليئة بالسحر: «إني أشعر بك». إحدى أجمل اللحظات في ساعات الحب هي عندما تنظر إلى المرأة التي أحببت تنهض من السرير؛ الردفان، الفخذان، مشيتها التي تحوي اللذة المعيشة للتو، قبل أن تختفي بسرية في آخر الرواق باتجاه الحمام. إنها رؤيا أنثوية نادرة الكثافة، تقوم بتسليم الجسد والعقل إلى طقوس الإستراحة... نتناول شيئاً من الطعام، نحتسي برودة النبيذ، ونبدأ من جديد.

*

وهكذا حتى طلوع الفجر. وأحدنا متشبث بكتف الآخر، وحلم في اليد الممسكة ببطنها كما تمسك الكأس، السيقان اللزجة المنسجمة إلى أبعد حدود، الرغبة في الإنصهار الجسدي الوارفة في كل مكان، انتفاء أية غرابة في جسد الآخر. جسد الحبيب، جسد المحبوب، هما نحن.

هذا واحد من مشاهد أيروس السامية. نتبادل الكلمات الشفافة عن أمور صغيرة نحبها. هذا الهمس... قبل النوم. نوم من هذا

النوع أيضاً ينتمي إلى أيروس، نوم يحول نفسه في نهاية المطاف إلى نوم الفراق...

مشاهدتها وهي ترتدي ثيابها، تقاطيع جسدها تتوارى، يقبلها العاشق لحظة قبل أن تشرع ثيابها بإخفاء ذلك الظهر، ذينك الردفين العاريين اللذين يحملان آثار الإمتلاك المشترك، كما لو أنه امتلكها للمرة الأخيرة.

الوداع. الشعور بالفراغ قبل أن يتقابلا مرة أخرى. الوقوف هناك، أمام المصعد بانتظار أن يصل إلى طابقهما، وقبلة أخرى، مختلفة تحمل حنيناً سابقاً لأوانه لفترة ما بعد الظهر الجميلة، لليلة جميلة أدرجت قبل الأوان في محفوظات الزمن. إنه الآن نوع آخر من الهجران. المصعد البطيء أصبح قبل الأوان عنصراً للاتناغم. القبلة الأخيرة، الإفتراق بسرية، شفاهما تحمل عطر نفس ما. يقفل مزلاج الباب ينسحب المصعد.

إيروس والطهارة

منذ ذلك اليوم، في أفريقيا على قمة بلدة ليوبولدفيل أولد تاون، لم أعد ذلك المسافر المفتون.

العاهرات الصغيرات كان يتم عرضهن للبيع في أحد الأحياء حيث يعمد المشترون إلى سجنهن في أقفاص بقضبان حديدية. التقينا صدفة، أنا وصف الأطفال في ممشى يجتاز واحداً من مطردات عديدة. الفتاة الصغيرة في أول الصف كانت تضع شريطاً في شعرها. توقفت أمامي طوال الوقت الذي سمح لها به بائع الحب. راحت تنظر بقلق في عيني، إلى وجهي، إلى حيث قادتها الصدفة فيما كانت تمشي. كان ثمة في عينيها الطفوليتين إرهاق مأسوي لوالدة استنفدتها الحياة. في البداية لم أفهم لماذا توقفت هناك فجأة، أو ما كانت تعنيه ابتسامتها أو المرارة التي في ثنايا فمها الطفولي. فهمت ذلك عندما امتدت يدها اليمنى الطفولية الجميلة لتفك العقدة التي كانت ترفع شعرها إلى الوراء. راح بائع الحب يطوف حولنا، بشعاً ذليلاً ملحاً علي بلكنته الفرنسية الرديئة:

«اغتصبها... بإمكانك اغتصابهن جميعاً إذا ما كنت ترغب في

ذلك». كانت الطفلة تتأملني آسفة منذ تلك اللحظة على مستقبلها كامرأة، ذلك الذي لن تحظى به أبداً. بعد فترة وجيزة كانت لتختفي في الأقفاص ولن يذكر أحد إطلاقاً أنها كانت طفلة تملك فرصة لتكبر، لتكون جميلة. وهكذا فكت الشريط لتقدمه لي، وتغادرني، أنا من بدا تجسيداً لخيالاتها الشهوانية وآمالها المستحيلة، ذكرى ضئيلة عن نفسها ربما قد تنقذها من الضياع الكامل.

قام بيننا حوار قصير من الإيماءات وفيه كان وداعاً للحياة. انتقل الشريط من يدها إلى يدي. تلامست أصابعنا وتجمدت، فيما كل منا ممسك بالشريط. لقد دفع صف الأطفال للتقدم. لففت الشريط حول أصابعي قبل أن أنظر إلى الوراء وألوّح بتحية الوداع. وعندما استدرت وجدت أنها استدارت هي الأخرى فيما تبتعد مبتسمة بامتنان، لأنه الشريط الأحمر قد يكون هدية الحب الوحيدة التي سيقدر لها أن تهبها طوال حياتها.

من ذكرى طفلة التقيتها لثوانٍ وجيزة، احتفظ بالشريط إلى جانب صور فوتوغرافية للذين أحببتهم لسنوات.

رسالة إلى صديقة أشرح لها فيها «نوطة توسكانيني»

«...ثمة أوقات ـ حين تكونين بعيدة وما من توتر بيننا ـ حين أفكر بك، أتنفس عميقاً كل الإكتفاء الذي قاسمتني إياه خلال أيامي هذه تماماً وكأني أتنفس هواء فصل جديد منعش. بفضلك أنت تعود إلي مشاركة مفرحة في كل الأمور. أخرج إلى السطيحة، أتنفس عميقاً وأنا أنظر إلى روما، إلى قباب وأبراج الأجـراس عند غروب الشمس، وغروب الشمس ينظر إلي بالمقابل.

هذه هي أوقاتي المفضلة. كل الأهواء الأخرى استبدلها بفكرة أنك موجودة ـ بما فيها التوق الذي قادني عبر العالم إلى المغامرة داخل الأجساد التي هي كالبلدان، والتي لا تستحق أجزاء كثيرة منها عناء الإستكشاف لأنها تتمظهر مهجورة وفارغة، كما لو أننا عدنا معاً من رحلات طويلة ومعقدة.

إن روح الإنسان لا تحيا فقط في وهم الإكتشافات العجائبية، كمثل مستكشف أو عالم آثار، فهي تستمر في العيش لأنها، بالدرجة الأولى تمتلك أذناً مرهفة ومدهشة ندعوها نحن في بارما «أذن توسكانيني»، القدرة على سماع نوطة بالكاد مسموعة، صوت خلفي يصدح في وقت من الأوقات كمثل ضحكة عذبة...

أيروس كذلك الذي جمعنا معاً، والذي يوحدنا تسلل إلى داخلنا، بيننا، مثل نوطة فرحة وممتلئة، منبعثة من نفس موسيقي مغاير، بعد أن اضطجع القلب ذاوياً مقيداً سنوات عديدة. نحن مدينان له بشيء ما، بالكثير.

أعشق الصدق الذي به تطلقين نفسك، وتحررينها من منعطفات كثيرة خاطئة (قبلك لم أصدق قط أن نوعاً من النساء يمكن أن يكون على هذ ا القدر من الصدق). وبالتالي فإن كلاً منهن كانت تتزاوج أهواء الأخريات. سوف تقرأين الكثير من هذه الأخطاء هنا، ولكنها لم تعد تخصك إنها تخص عالم الآخرين، عالماً مزدحماً، فيه أطفال يندفعون بسبب الضجر إلى منزلق، أو يقفزون من أعلى كومة قش. سقطة مؤلمة أو نزف من الأنف.

وهكذا حين تقرأين هذا، لا تشعري بالإهانة. يتغير القدر بنوطة

واحدة، «نوطة توسكانيني»، كما النوم والإستيقاظ. كل من يكون محظوظاً فيجد التناغم والتواطؤ، يجد أيضاً أن تتابع النغمات الصغيرة سرعان ما يصبح إيقاع حياتنا المشتركة... تشدين على يدي، أشعر بحرارة أصابعك. في وقت من الأوقات لم يكن بمقدورك ضمي بهذه الطريقة، حين كانت أصابعك باردة وصلبة كالمخالب، لا تشعري بالإهانة... أفكر بإنسان يلتقي إنساناً آخر للمرة الأولى على هذه الأرض، يشرع في استيعاب هذا اللقاء، يحدّق في الآخر كما بالمرآة، يتلمّس وجهه وجسده، يتعرّف إلى الصورة المطابقة له.

إن الحياة لهي بهذا الألق المبدع، بخيرها وشرها. أحياناً تكفي المعاني البسيطة: الكآبة والعفوية على الجدران، حول سرير مثلاً تخلق أشباحاً صغيرة تصير البقع فيها ظلالاً تتدلى كملائكة سوداء طائرة، دمقس، قباب تشبه «المظلات الجهنمية» فوق عرش ملك الشمس في فرساي.

لقد اختفت الأقمشة الشجية فوق الرؤوس. وهذا يحدث لبعض المحظوظين كما حصل لك: «إن تتمكن امرأة في جسد واحد، غالباً ما رمت بنفسها بعيداً وتشعر بالإرهاق والخيبة وهي بنوع ما جديرة بالإزدراء، إن تتمكن من إخلاء المكان لنقيضها القادر على منحها قلباً جديداً شاباً... المهم أن يولد الإنسان مرة جديدة من بين رماده هو.

لا تشعري بالإهانة. ماذا تعني حكاية القصص، خصوصاً حكاية بعض القصص؟ أنت بحاجة أحياناً لأن تتكلمي مع الله بمفردك حول انطباعات مماثلة.

كل من يشعر بأنه قد هزمته التعاسات البشرية الصغيرة، عليه أن

يعيد النظر إلى مرآة العظمة، ليشعر مجدداً بهذا الإحساس ويستوحي منه وينتصح به. وهكذا فلتأملي بأن تجدي نفسك من جديد...»

المرات الأولى

تابعت تقدمي في عمق الغابات الكثيفة، بحذر وصمت. من بين أشجار الحور الممتدة ـ فيما كان النهر يتحول من اللازوردي إلى الأخضر وإلى الأحمر ـ خرجت فتيات من الأجمة، ورحن يتعدن عن بعضهن البعض بشيء من الفرحة الكسولة: كانت أقدامهن العارية تتحرك بإيقاع الحب الذي مارسنه للتو. غطين أجسادهن بقمصان رقيقة، وتوجهن إلى النهر حيث بسطن سيقاهن وانحنين ليغتسلن.

هذه البطون التي إلى أسفلها تدفع أيادي الفتيات المياه بحركات سريعة، والأرداف المسنودة إلى أعقابهن، كانت كمثل الآلات الموسيقية التي ابتكرها صانعو العود في بادوا، في دكاكينهم الغارقة في الضباب وفي دفء شتاءات قديمة حيث يمكن للجرس على المدخل أن يقرع في أي لحظة، ولكن السكون الأخرق يسود المكان في معظم الأحيان ويبعث حاجة للهمهمة على الأقل.

في هؤلاء الإناث الحذرات مثلي، رأيت استدارة آلات العود والمندولين والكمان، آلات نفخت فيها الحياة الأفخاذ والركب وخطوط الظهور التي كانت ترتعش عند ملامسة المياه.

*

ما زلت لغاية اليوم اعمد في معظم الأقات الى ترك مصباح مشتعل طوال الليل لئلا استيقظ فجأة وأرى كابوساً أكون فيه

أعمى. إنه واحد من مخاوف الليل التي عانيت منها وأنا طفل صغير.

مرة، أثناء الحرب حين كنا لاجئين في بو، استيقظت ولم أتمكن من رؤية النور؛ ضوء المصباح كان يغطيه ظل امرأة بدا لي عملاقاً. كانت المرأة تابعة لأحد ألوية موسوليني السوداء. كانت تقف قرب السرير؛ في يدها اليسرى تحمل مسدساً وراحت بيدها اليمنى ترفع الغطاء عن قدمي.

ثم شيئاً فشيئاً، في الهالة التي كانت تلف المرأة بالبزة وحركاتها الدنسة (هي الآن تلامس بطني بيدها المقفّزة ثم تمسك قضيبي برقة) كان بوسعي أن أرى عيني والدتي وشفتيها الدقيقتين وأظافرها التي راحت تضغط بقوة وكانت بيضاء.

قفزت أمي ووجهت إلى المرأة ضربة في ظهرها وغرست أظافرها في رأسها كما تفعل النمرة. سطع ضوء المصباح عليّ من جديد، ومعه صورة مقدسة تحميني بهدوء.

*

احتفظ بصورة لعضو امرأة.

قام ليغابو بنقشها على جذع شجرة حور، إحدى أعلى الأشجار بالقرب من قرية باكانيلو بو. أنا على يقين أنها لا تزال هناك، إذ أن لا أحد يعرف أنها من أعمال ليغابو. إنها واحدة من المنحوتات (هكذا كان يسميها) التي بعثرها ليغا في أنحاء غابة الحور «أيام دراجته النارية الحمراء»، أيام ثورته المجنونة. كان الرسام قد استخدم مراراً آدا فيتالي كموديل في رسومات فيها أسود ونمور وفهود تفتح أشداقها بطريقة مرعبة حتى لتبدو أنها على وشك إفتراس الرسام نفسه.

وأعرف أن بعض هذه الأشواق كانت رمزاً لعضو آدا فيتالي. كان ليغا ماراً بجانب النهر وأعجب بالصبي الذي كنته آنذاك. ضاعف عدد دورات المحرك وجعل دراجته تشب كالحصان ثم قال لي «تعال إصعد». وصلنا إلى الشجرة ورحت أنا أطوف حولها متعقباً خطواته، حذراً مثله حتى وصلنا إلى أمام المنحوتة. كانت الأعضاء التناسلية مرسومة بأصغر تفاصيلها بدقة متناهية. كانت غارقة في أفخاذ غير واضحة الخطوط، فذكرتني بثمرة برتقال مقسومة إلى قسمين بغية إظهار كيفية اتصالهما باللب. شفرا الفرج يتدليان حول الشق الفرجي مثل ذيل الخطاف، بلون لباب الخشب الزهري «ارأيت»؟

سألني ليغا مشيراً بيده.

الزمن والفصول ساهمت في إتمام عمل الفنان. عواصف الرعد في الصيف والبرد العنيف محت غشاء العذرية المنقوش. في الخريف، نقش المطر على مهل التجاعيد التي ترسمها الطبيعة في الأمكنة السرية من جسد المرأة. صقيع الشتاء، علاوة على توسيعه الشق، أحدث تصدعات فازداد ورم الأعضاء التناسلية وبان الجماع بأدق تفاصيله.

نما الطحلب فبد كشعر العانة واختبأت في داخله بعض القوارض. حتى الطيور البيضاء التي تنقض على الضفادع والحيوانات التي تصطاد الأسماك، والشحارير... كلها أضافت على النقش لمسات فكاد أن يكون حقيقياً. لمسة أخرى، هذه المرة، للخصوبة، أضافتها بعض الفراشات حين وضعت بيض الزغب المثلمع كاليراعات.

وكأنما كان سكان البو اشتركوا جميعاً في هذا النقش. شرع

ليغابو، وبعناية فائقة، يلامس منحوتته ومعها جزء آدا فيتالي الحميم. «إن لآدا، أردف قائلاً، أجمل عضو في وادي بو»، ولم يكن وحده بهذا الرأي.

رحت أتأمل فيه، وحلمه، وكان بلمسات أصابعه الرقيقة على النقش وكأنما يستجمع العيش، جوهر الإنسان، من الإشارات التي نقشها على الخشب. لقد أحب هذا العضو كما لو لم يكن هو الذي ابتدعه، إنما الطبيعة نفسها لتقدم له في تلك اللحظة الهدية المفرحة التي لطالما حرمته منها آدا فيتالي.

*

تبدي النساء فضولاً لمعرفة المرة الأولى التي قضيتها مع امرأة. «كان ذلك في غياري»، أروح راوياً لهن، قرية صغيرة قريبة جداً من النهر حتى لهو بالإمكان رؤيتها داخل المياه. كانت قرية شاحذي مناجل. وكانوا يجلسون على شكل دائرة وسيقانهم ممدودة ويمسكون بالمقابض بين ركبهم، ويركزون الشفرات ويشرعون بضربها بواسطة مطارقهم المستديرة الشكل. كانت القعقعة تسمع في كل أنحاء البلدة. وحين كنا نمر بالباص على الأوتوستراد المقابل، كانت أمي تدلني على وميض الشفرات ملتمعة في البعيد كما لو كان الأفق يرسل إشارات منذرة بالسوء. أخبرتني أمي بأن «دون غابجان» تعيش هناك، نساء النورس تعيش وتطير بحرية لكنها تتغذى بالنفايات. وللمرة الأولى سمعت كلمة «عاهرة» ملفوظة بحقد. هؤلاء النسوة قالت أمي، يأكلن الرجال ويفترسنهم: إنهن تجسيد للموت، وتذكر أنه يحمل منجلاً رمز بلدة غياري.

ذات مساء قلت لأمي «أنا ذاهب إلى غياري».

كنت لا أزال في الرابعة عشر من عمري.

ورجعت إلى هناك مراراً.

أحنت أمي رأسها وأطبقت يديها. كانت تلك طريقتها العنيدة في التعبير عن إستيائها حين يعارضها أحد وتكون هي في موقف لا تستطيع شيئاً حياله. بعد يوم طويل ترددت فيه الأصداء، بدت القرية تستعيد صمتها العميق. كانت المناجل في كل مكان. في صفوف طويلة مسندة إلى الجدران. في مجموعات هجينة كمثل كتائب الرماة وسط الحقول، مسندة إلى الشرفات، كمناقير طيور الغيق، تغمرها أنابيب المياه أو متروكة في أفران باردة بعد أن مرّت في النيران. كانت تلمع في ضوء القمر.

رحت أطوف الشوارع الضيقة، وبدا لي أني في مملكة الموت الذي ألقى بآلات صنعته، وقطع لبرهة طيرانه فوق الأرض. من خلف الشبابيك كان يتناهى إلى مسمعي غطيط شحاذي المناجل، وصراخ الأطفال وصوت رقاص ساعة كبيرة في مطبخ أحدهم. حاولت أن أتخيل «الغابجان». يقال إنهن يظهرن بجميع الأحجام والأعمار حتى أن بعضهن كن فتيات صغيرات. ذات ليلة، انطلق صراخ امرأة من خلف شباك في آخر القرية. هذه جماع مكثت منتظراً في الضوء الرمادي رأيت رجلاً يخرج. كان يرتدي معطفه حين رآني. قرأ في عيني أني أود الصعود إلى هناك أنا أيضاً غير أني لم أكن أمتلك الشجاعة الكافية لذلك. إقترب مني، اخرج يديه من جيبيه ومدهما صوبي. إقترب كفاه الضخمان من وجهي وفهمت ما كان بصدده. موحياً بالتواطؤ والتهكم أرادني أن أشتمهما. لم يكن البتة في حركته تلك ما يوحي إلى الإبتذال، كانت بالأحرى توحي إلي برغبته في تلقيني شيئاً ما. ثم قفز على دراجته الهوائية

وابتعد تحت أشجار الحور وهو يضغط على الدواسات بكل ما أوتي من نشاط وحيوية.

صممت الرأي ودخلت المنزل. قادني رواق إلى ما بين الغرف المقفلة. باب واحد مشقوق جاء إلي من ورائه صوت امرأة كانت سمعت وقع خطواتي المترددة. كانت علقت فستاناً حريرياً على مصباح بجانب السرير، فغرقت في ضوء خافت بدّل تعابير وجهها.

«تعال» قالت لي، حين اقتربت منها وتسنى لي التعرف إليها. بشيء من العجب تغلب على شعوري بالخوف. رفعت الغطاء لتكشف جهة السرير بجانب جسدها، كانت آدا فيتالي.

أمضيت تلك الليلة في «غياري»، وفي اليوم التالي لم أنفك عن الإرتعاش. حبست نفسي داخل الحمام ولم أتوقف عن التحديق بقضيبي، بدأت أمي تسهر في انتظاري.

*

«تعال» قالتها مرة أخرى، وهذه المرة برقة لم أعهدها بها من قبل. إصطحبتني إلى غرفة الحمام. فكت أزرار بنطالي وأمعنت النظر عن كثب. غسلتني بعناية بالماء والصابون ورشت سائلاً من زجاجة. شعرت بحريق، تركتها تفعل. أدركت لاحقاً أن ذلك لم يكن مجرد ولع مرضي إنما أجمل ما أبدته إزائي من عاطفة أمومة.

شباط ميلانو، ١٩٨٢

فندق مارينو سكالا.

صرخت بأعلى صوتها حتى أني نخعت رأسي إلى الوراء بعيداً عن وجهها كما لو أن صرختها كانت ستثقب طبلة أذني. رعشتها

غمرتني كلياً، وأشعرتني بنشوة الإنتصار، تلك التي كنت أشعر بها وأنا مراهق في لحظات معينة من السعادة. إن روعة جسد الإنسان تتجلى حين يعود هذا الجسد إلى الحياة من خلال جسد آخر. ولا يمكن لأحد أن يقول بأني لم أحب جسدي.

أذكر رعشة هذه المرأة كإحدى أعتي الرعشات التي أثرتها في حياتي.

بعد ذلك، جلست على كرسي بذراعين في وسط الغرفة وشرعت بالتحديق في جسد المصورة الفوتوغرافية العاري وهي نائمة على السرير. بالكاد كنا نتكلم خلال تلك الأيام التي أمضيناها في غرفة الفندق حيث مارسنا الحب ولم نكن نتوقف إلا لنتناول شيئاً من الطعام، أو ننام قليلاً. كنا على اتصال عنيد، ضار ومتوحش أحياناً من خلال رعشاتها فقط.

وهذه الرعشات التي ربطتني بها ـ وكانت باستمرار تغوص في الجسدين وتوحدهما أكثر فأكثر ـ هذه الرعشات كانت تحرك شيئاً ما في ذاكرتي. تذكرت فراشة دخلت إلى الأستوديو حيث كنت مقيماً، قادمة من على نبتة على السطيحة بعد أن جذبها نور اللمبة. بقعة الضوء الوحيدة المعلقة في العتمة بدت لها بالتأكيد نقطة تحتوي كل مفاتن الحياة، وفي هذه النقطة عليها أن تغوص. رحت أراقب طيرانها حول الضوء وتكهنت ما كان يتملكها من السحر والرعب في آن. ومن ثم اندفعت الفراشة بعنف لترتطم بزجاج اللمبة فاتحة جناحيها ومذعنة للقدر، وراحت تحاول المرور إلى داخل الضوء. وفيما أنا أراقب، راحت المساحة المتوهجة تمتص شيئاً فشيئاً جمال الألوان في طريقها الموت، وقد بدا هذا وكأن الفراشة قد تمكنت من اختراق الحاجز الزجاجي.

بقيت مسحوراً بسر تلك القوة التي تفوق المنطق وتدفعنا للغوص عميقاً في حقيقة فيزيائية مغايرة للطبيعة.

تأملت في المصورة الشابة وهي تسترسل في نوم عميق مرهق، وقد القت ذراعيها وساقيها مفتوحين كما لو كانت مصابة بجروح مميتة.

انساب ضوء أبيض من وراء المصراعين، كان الشتاء قارساً. الشوارع كانت مجمدة والثلج يغطي كل شيء. تعيد إليّ ميلانو ذكرى بعض الشتاءات المريرة في قريتي. كانت أسماك الحنكليس والأعشاب المائية البراقة يحاصرها الجليد فنلجأ إلى تكسيره بواسطة معاول خاصة. كانت طيور النورس تنقض على اللقمات الميتة بأجنحة تندفع في الهواء الجليدي، ومناقير تفتح وتغلق وفقاً للمجهود الذي تبذله للطيران وهي تحاول الإستفادة من ثقل البرد الذي يدفعها إلى الأسفل.

كنا نضيء المشاعل على طول ضفاف النهر، فتنقض عليها أسراب الدوري حتى تكاد تلامس النيران قبل أن تعود إلى السماء وقد حملت معها بعض الدفء والراحة.

تململ جسد المصورة الشابة. ارتسمت على شفتيها لمسة حزن شبه خفية. كان مهبلها تمدد واحمر لونه فبدا جرحاً بين الكدمات التي بين فخذيها، كما لو أن سادياً جرحها بسكينه في ذلك المكان بالذات.

في بو، أثناء الحرب، جلبوا إلى منزلنا امرأة مثخنة بالجراح.لم أعرف من هي ولم أسأل أمي حتى. بالنسبة إلي كانت المرأة مجرد رؤية جرح: دماء قانية، وأوساخ تمتد من صدرها إلى سرتها. كانت

المرأة تشبه عضوها الذي لم يكترث أحد لتغطيته. كان جسدها وكأن له مهبلين.

كانت أمي لطيفة مع هذه المرأة المجهولة التي لم تبادلها اللطف، لأنها لم تستعد وعيها قط. كانت أمي تلازم الغرفة لتبقى إلى جانبها طوال النهار. في الليل طلبت مني الدخول. رأيتها تجثم على ركبتيها ففعلت مثلها، كانت المرأة ممددة في السرير وظهرها ملقى على وسادات. سطع الضوء من المصباح بقرب السرير على جرحها الظاهر والجرح الآخر الذي بالكاد تمكنت من رؤيته. كانت رائحة المسك والكحول تفوح من جسدها، وكان شعرها مرفوعاً إلى الوراء وصدغاها غائران ومنخاراها واسعان. فكها كان كالحجارة. رأس ملكة فاحشة تمّ نقشه استعداداً لدفنه. أدركت أن عاطفة أمي كانت موجهة إلى جرح صدرها، ولكن أيضاً إلى تشابهه مع الجرح الآخر وقد قرأ ذهنها، حيث راحت تجول بواكير أفكار مريضة، في الجرحين تشابهاً منحرفاً ما بين الفجور والموت.

شرعت بسبابتها تتلمس الجرح الكبير بشيء من التردد الشهواني ثم راحت، بسبابتها وإبهامها، تزيل سائلاً ممزوجاً بالدماء.

«إنها تحلم» قالت هامسة.

«بم تحلم؟» أردفت سائلاً. بدا لي أن الحلم كان يشرق من بين نقاط العرق السميكة على جبينها. شيء لم أر مثيله من قبل.

«الخداع».

لم أعرف ما كان يعني هذا.

معلم القتلة والعاهرات. غير أنه كان يعرف كيف يحوّل نفسه إلى أورلاندو إيناموراتو.

للمرة الأولى في حياتي، استمعت إليها وهي تحكي لي عن أورلاندو إيما موراتو، وما العاهرة بالضبط، امرأة تمتلك الشجاعة الكافية لتكون ما هي عليه من دون خداع، صادقة في يأسها، في ازدواجيتها التي تتيح لها الإنتقال من مضاجعة حيوانية متكررة إلى الحب الأنقى. سمعت كلمة «ثرويا» خنزيرة، بغي، صوت أمي الهادىء الطيب شارحاً لي كل هذا وبدأت أدراك أن المرض في رأسها كان كمثل عنكبوت مفترس وأنها كانت مثلي تمزج في كلامها مناوبة، التواضع المغالى به، والخجل المتزمت فكان حديثها ليبدو مروعاً «مخجلاً» لولا عذوبة نبرة صوتها المفرطة.

*

ثم في ليلة اختفت قطرات العرق من على جبين المرأة المجهولة. وسألت «هل ما زالت تحلم؟»

إنها تحلم بكل شيء. لكنها لم تعد قادرة على رؤية أي شيء».

في بيرسيتو، إحدى مقاطعات بارما، أزاحوا الستارة عن نصب تذكاري لا مثيل له في العالم: «إلى ضحايا الإشاعات والحسد» على لوحة تذكارية نحاسية بين عمودين صخريين.

ذهبت إلى حفل الإفتتاح مرتدياً ثياب السهرة، كما يقال هنا بشيء من التهكم. حتى إني اعتمرت قبعة أيضاً. في بلدتي فقط، فقط في أرضي هذه حيث الأحداث الغريبة والبعيدة الإحتمال تملك أيضاً منطقها المجنون، يمكن لأحد ما أن يفكر بنصب مماثل.

الناس هنا يعرفون معنى معجزات الممكن، لغة الشاذ والخيالي التـي تحررنا من العبودية التي نقاسيها في الوجوه الأخرى من الحياة.

جمهرة من الناس بدأت تتحلق من حولي. ضحايا ثقافة الشك بدوا جميعاً مرتدين أزياء السهرة أيضاً. وكانوا بالتأكيد يعتمرون القبعات. رمقنا بعضنا البعض بنظرات سريعة وهذه النظرات كانت بمثابة كلمات وأسئلة.

«أعذرني، لم أنت هنا؟»

«ماذا عنك أنت؟»

ارتفع الصوت الرسمي: «إلى ضحايا السمعة المشوهة، المدينة تنتصب...»

*

حياتي الحميمة الخاصة كانت ضحية التخمينات المؤذية لكل أنواع التخيلات التي لا أساس لها، للإشاعات البذيئة التي لا تحتوي إلا على تعابير العقول الوسخة التي ابتكرتها.

أذكر يوماً أمضيته مع روبرتو روسيليني الذي كان يمكن أن يكون حاضراً معنا اليوم بزي السهرة خاصته. كنا لوحدنا، نجلس قبالة بعضنا البعض ونشعر بالمرارة لعجزنا عن كتابة ولو كلمة واحدة على الورق. قال لي روسليني: «إيطاليا الخسيسة هذه، إنها قادرة على تحويلك إلى لحم خنزير؛ هي تفعل هذا بشخص ما لمجرد أن أسمه معروف. يختلقون حولك كل الأمور المخجلة التي يحملونها داخلهم، داخل نفوسهم». لحم خنزير. إيطاليا لحم الخنزير...

في وسط الناس الذين لم يعرفوني قط، أوصف بالشهواني الذي لا يشبع، أو بالمثلي وأيضاً بكل ما قد يخطر على البال. النساء اللواتي رفضت واللواتي لم يرافقنني ولو للحظة وأخريات لم

أتبادل معهن ولو كلمة واحدة، أو حتى لم يرونني قط لفقن حولي قصصاً مؤذية. إن مفهومي المثالي عن أيروس الذي كنت أرى إليه على طريقة الشعراء، عمل الجهلة على تشويشه وخلطوا بينه وبين نقيضه: شراهة جنسية قذرة. وكل هذا سببه نساء ورجال قد يرتكبون أي دناءة بغية إغراق قضيب في مهبل، أو بغية أن يتم ايلاجهن. إستفقت من غمرة هذه الإنطباعات عندما علا صوت الكورس من بين الجموع معلناً بإسم الجميع: «أنا ألعنكم».

*

أسلوبي في إطلاق اللعنات على مشوهي السمعة يقتضي اتباع طقوس سرية خاصة بي. حين عدت إلى بارما بعد سنوات عديدة، رجعت إلى الكنيسة المهجورة التي كنت إشتريتها واحتفظت بها لنفسي. كنت ألجأ إليها حين كان يغمرني بحر من النساء والرجال الذين لايبحثون إلا عن الجماع الجنوني فيصبنني بغثيان يصل إلى ذروته. وقفت عند أسفل الدرج الخالي من أي لمسة إجلال.

كانت الدرجات الرثة تفضي إلى إحدى الغرف الخالية من أي زخرفة، بجدرانها المبقعة الرطبة، وقليل من الهواء يدخل من النافذة الصغيرة. كنت آتي إلى هنا حين أشعر برغبة في الكلام سراً إلى الطهارة التي كنت على يقين أني أمتلكها، التي أنا على يقين أني أمتلكها.

بعيداً عن العالم، كان هذا الحوار كمثل حب رائع بين عاشقين مخطوبين.

لم يكن هناك أي ضوء كهربائي وكنت أشعل شمعة وأضعها على الطاولة الخشبية الصغيرة. وكالعادة كان يخيل إلي أن صورة طهارتي السوداوية الساحرة كانت تجثم في مكان مجاور في

انتظاري لأن أشغل الآلة الصغيرة التي جلبتها إلى الكنيسة السرمدية: فونوغراف عتيق كنت أشغله بواسطة ذراع التدوير.

*

رحت أستمع إلى «كروسيفيكسوس» مقطوعة موزار الرائعة وحين بدأت السوبرانو لحن «أغنوس دي»، واللحن هذا المتردد في أرجاء كنيسة ريفية قديمة كان ليحمل أيا كان إلى أحلام رائعة. غمست قلمي الذي كنت كتبت فيه قصائدي الأولى وشرعت بكتابة الرسالة التي رغبت في نشرها: «أرحب بالأشياء الشيطانية التي تقولونها عني بفرح، لأن النقاء الذي أؤمن به هو نقاء يجري شفافاً لا يغيره شيء، ولا حتى حقارة قشور أجسادكم الهالكة. الموت يستولي على هوية الجميع، هويتكم أيضاً.. أدع لكن المهابل التي توزعنها على الجميع، على رجال عديدين في يوم واحد، وأدع لكم الأعضاء التي تستعطفون إنتصابها في كل مرة. لا تفتشوا عن الأسباب، أنتم مخلوقات تعسة لم تعرف يوماً أفراح الحب. وبالتالي أنا آسف من أجلكم لأنكم لا تعرفون شيئاً. الكفّار لا يدركون البتة أن عناية إلهية عظيمة قد قادتهم لخدمة ما صممه الإله نفسه... لقد كان وسيبقى منشأ السماء المتلألئة بالنجوم، تلك التي تواسينا في جوف الليل. ما عساكم تستطيعون فعله إزاء ذلك؟ أنتم أسوأ من الحيوانات.

«ولكني أتقدم لكم بشكري، لأنكم سمحتم لي بالرغم من كل ما حاولتم فعله، أن أتمم المعجزة، معجزة الحياة، وأتحمل ثقل الحياة نفسها هذا الثقل المخيف والمميز في آن.

*

لن يرى أحد هذه الصفحات الملطخة ببقع الحبر. وحده القمر

يضيئني من خلال الشمعة التي كانت كل شيء ولكنها احترقت. مقطوعة موزار تتردد في كافة أنحاء الكنيسة. استدرت صوب النافذة نحو الليل ورددت بحماقة: هل تسمعونه؟ نقاء الإيمان؟... وهذه النغمة، إسمعوا، إسمعوا كما الأخريات، علامة صغيرة في قطعة موسيقية لكنها تفوق الوصف لأنها بكل بساطة تعزف، لأنها بمنة إلهية قد وضعت بين نوطات أخرى كما يقتضيه الإيقاع قبل أن يتحول إلى مقطوعة ضخمة.

قبل أيام قليلة، كانت كلوديا أخبرتني كيف أن أحلامها المراهقة تحطمت إلى الأبد.

في الثالثة عشر من عمرها، أيقظتها دقات قلبها حين كانت تحدق في نقطة بعيدة كانت تومض في الأفق. في الضباب الأزرق فــي المياه البعيدة، خيل إليها ظهور رؤيا تنبئها بحياتها في المستقبل.

إتخذت الرؤيا هيئة مركب شراعي يتمايل إلى جانبيه متأرجحاً على الأمواج، ومندفعاً أحياناً إلى الأمام. أدركت أنه كان في حالة ترقب ليبعث لها برسالة غامضة. لطالما كانت تسير باتجاه المركب، باتجاه حلمها حتى بعدما بدأت تدرك أن في الرؤيا أشياء العالم المتخيلة، وأنه كان بمستطاعها أن تسمع وكأنما أغنية حورية.

كانت تفلت لنفسها عنان الغرق في الرؤى، وتروح تجول في وسط الحقول، وتتوه في الطرقات الخفية، على ضفاف الأنهر وأوجار الحصى، فتروي لنفسها أن بستان الفاكهة هو فرنسا، وأن قناة ما كانت هولندا وهكذا.

كانت تسرع الخطى مسحورة بضوء ما أو بلون أخضر ساحر، أو بأغنية غريبة. لأن كثيرين منا يرحلون إلى بلاد غريبة ثم يعودون، مثل ماركو بولو.

كانت كلوديا تروي لنفسها أن قسماً من البو كان الصين أو ربما بلاد فارس الغامضة، أما حوض كانالبيانكو فكان القطب الشمالي ودير بومبوزا كان الشرق كله.

في الدير كان بالإمكان رؤية لوحة رؤياالبشرية. غير أن رؤياها وهي في الثالثة عشر من عمرها لم تكن موجودة. ماذا تعني الرؤيا بالنسبة لفتاة صغيرة ذات ذهن نقي متقد وجسد تكسوه روعة اللحم التي منتها بها الطبيعة.

كانت سنجاباً وقعٍ في شرك. قلب في الإنتظار وسط الغابات الكثيفة. كان رجلاً يسد عليها الطريق: أرماندو المعروف بالجركسي بسبب من ملامحه القاسية وعينيه بقساوتهما الضارية.

لا شك أن هذه أرض العالم الآخر، ويروي المسافرون في حكاياتهم أن هذا هو القدر، فكرت كلوديا في نفسها غير أنها لم تتمكن من المرور بسبب الرجل الذي بعد أن عرف أنها جائعة طلب منها ألا تخاف، وقال لها أن ترافقه إلى مطعمه القريب.

«بإمكانك الحصول على طبق غني، وأيضاً إحتساء بعض الخمرة كالراشدين أيضاً».

لعب دور النادل وقدم لها الغداء. بعدما شبعت وشعرت ببعض السكر، أغواها لتصعد إلى غرفة تستطيع من نافذتها رؤية جمال القارب الشراعي الذي قد يكون وقد لا يكون حقيقياً، ذلك القارب الذي قالت له إنها تبحث عنه. وهناك اغتصبها وراح بعد

ذلك يهددها ويتوعدها: «إياك أن تتفوهي بكلمة واحدة لأي كان. أخوك جانح وأنت تعرفين ذلك. وتعرفين ما هي أملك أيضاً. بإمكاني قتلهما ساعة أشاء».

أرماندو الجركسي، زعيم قطاع الطرق المحليين، يلوّح لها من بعيد فيما تربض برعب على السرير الملتوي.

*

... بعد عشرين عاماً، قالت لي كلوديا «لقد طلبت وجبة هائلة في مطعم الجركسي. تعال معي سوف تجلس إلى الطاولة المجاورة وتتظاهر بأنك زبون عادي جاء ليتناول غداءه. لا تتظاهر بأنك تعرفني».

«لماذا؟»

«لأنني أريد أن تكون شاهداً».

على مدخل المطعم كانت ثمة ظلة مخططة بالأزرق والأبيض. بدت وكأنها حذرة متيقظة. في الداخل لم يتغير شيء. كان ذلك عند إحدى ساعات بعد الظهر الراكدة. وإذا ما كان الرجال يأتون ليدخلوا ويخرجوا فإنهم قد جاءوا للتحديق بكلوديا. ذلك اليوم الذي تعرضت فيه للإغتصاب ، شاهدتهم يضحكون مع الجركسي وهم على علم بفعلته ثم خرجوا بعد ذلك وهم يصفّرون ليتركوا له حرية التصرّف.

نفّذ الطباخ أوامرها. وكان الغداء كما وصفته كلوديا. ومن على عربات الأكل المحيطة بطاولتها كانت تفوح رائحة طعام رائعة. رحّب بها أرماندو معبّراً عن سروره لأنها تذكرت هذا المكان بعد طول مدة، ابتسم لها وغمزها بطرف عينيه: «تبدين رائعة جميلة

كما كنت وأنت صغيرة. أجمل حتى». ثم أضاف بخبث «لم نرك طوال تلك السنوات، خلت أنك مت».

«كنت ميتة إنما كان هذا منذ وقت طويل».

*

ألقت كلوديا نظرة سريعة على الدرج المؤدي إلى الغرف في الطابق العلوي: الدرجات الرمادية نفسها، السلم نفسه ينعكس عليه لون رمادي من على زجاج الأبواب المتسخة. كانت تحتفظ بفكرة هجست بها وقتاً طويلاً: «سوف أعود أيها الجركسي وكل شيء سيحدث تماماً كما حصل ذلك اليوم، إنما بطريقة معكوسة لأنك أنت سوف تأخذ مكاني».

عادت تنظر إلى الرجل ورأت أنه كان مثقلاً بالسنوات والمرض. قساوة عينيه الضارية تحولت اليوم إلى وميض فاحش لم يكن صادراً عن عقله المنحرف إنما كان ينعكس عليه. أدركت من أين مصدره: من المرآة الصغيرة التي يستخدمها الموت لإبهاره وتعذيبه.

نظر الرجل بوقاحة إلى ساقيها: «كيف تحافظين على جمالك هذا؟ ساقاي أنا إلى رحيل، وقلبي أيضاً...» وأردف بعد توقف قصير «كم عاشق اتخذت لنفسك أيه؟»

«وأنت ألا تزال تطارد الفتيات الصغيرات؟»

رأيته ينتفض قليلاً إلى الوراء. ثم لمعت قساوة عينيه الضارية مرة أخرى: «مازال بإمكاني تدبر أمري، لا تعتقدي عكس ذلك». لم يدرك الرجل أن كلوديا كانت رائعة بالثأر أيضاً. وأن الثأر المقدر له قد خططت هي له منذ اللحظة الأولى التي استحقه فيها حين

لمست يدها المرتعشة كمية المني والدماء الجارية تحت قدميها. وها هي الآن تجلس إلى الطاولة وتصدر أوامرها: «أخدمني!»

*

أطاع أوامرها. كان يتحرك بثقل بعد أن كان تعرض لنوبتي قلب، غير أن الجميع كانوا لا يزالون ينادونه بالجركسي ويكنون للذكر الفاحش الذي كان إحتراماً. واليوم لا يسعه الإنسحاب من أمام التحدي الذي بدا وكأنما متنبأ به». اخدمني» رددت كلوديا. «واخدم نفسك. أنت ضيفي. يجب أن تشرفني وتشرف غداءنا معاً». وراحت تحمّسه على الأكل والشرب بالشراهة نفسها التي كانت تتظاهر بها هي. ومن وقت لآخر كان يردد: «أوتعرفين لا يجدر بي...» وفي كل مرة كان يقول هذا كانت تملأ كأسه، وكان هو يشربه. وهذا ما أراده: أن يظهر لها أنه لا يزال متفوقاً عليها وأن يفهمها أن هذا الإفراط لا يخيفه حتى لو كان هو يجازف بحياته في حين أن كلوديا لم تكن تجازف بأي شيء.

ابتسمت: «هيا روّح عن نفسك أو تخشى أن تصاب بالإجهاد؟ ما همك؟ هذه المرة فقط...»

تذكر الألم الكبير الذي مزق قلبه مرتين، لكنه استمر في التهام أطباق لحم الخنزير الشهية التي كانت تقدمها له ضاحكة على طرف شوكتها، وهو أيضاً كان يرغم نفسه على الضحك قبل أن يفتح فمه وهو يفكر في نفسه: «هذه المرة فقط وسوف أكون أرماندو الجركسي أكثر من أي وقت مضى. الأخبار سوف تنتشر حتماً وسوف ترافقه هذه القصة حتى آخر أيام حياته.

*

وتابعت كلوديا إلحاحها: «هيا كل أنت بحاجة لتزويد دمك ببعض الحرارة. وإذا لم تفعل... كيف ستتدبر أمرك حين نصعد معاً إلى فوق؟»

نظرا معاً إلى الدرج وقال في نفسه إنه يجب ألا يدعها تأخذ المبادرة. «هل تذكرين؟» سألها غامزاً ببسمته، «هل تذكرين كيف كان الأمر يا كلوديا؟»

«المفتاح» صرخت بنبرة آمرة ومدت يدها. أخرج المفتاح من جيبه. أمسكه بين أصبعيه وجعل قطعة الخشب تتدلى تلك المكتوب عليها رقم ١٠ بالأحمر، رقم الغرفة.

«الرقم ١٠، هل تذكرين؟» بدا مغتبطاً بأدائه وكان واقفاً بمواجهتها كما أنه راح يشتغل على صوته ليشبه اللهجة المخادعة نفسها التي كان عليها ذلك اليوم حين كانت كلوديا الصغيرة تقف قبالته بوجنتيها المنتفختين من الطعام والخمرة، وحين راح هو يؤرجح القطعة الخشبية إلى الأمام وإلى الوراء ممسكاً المفتاح بين أصابعه ومردداً: «هيا بنا، من غرفتي سوف يكون القارب الشراعي الذي يتهيأ لك أنك ترينه، قريباً جداً حتى لسوف يتسنى لك لمسه». كان صوته كما هو اليوم: «أما زلت تؤمنين بالقوارب الشراعية المجنونة؟»

«لقد عدت إلى هنا لأني اؤمن بها اليوم أكثر من أي وقت مضى. إذا ما كنا معاً اليوم ههنا فذلك أن أحداً منا لم يغير ما يؤمن به». نهضت واتجهت نحو الدرج مصدرة أوامرها إليه: «بإمكانك أن تأتي بالزجاجات».

حمل الجركسي الزجاجات وجر نفسه إلى السلالم وراء كعبها العالي. أحس أن شرايينه ممتلئة بالرصاص وشعر بالغثيان.

لم يخالجه إلا إزاء نساء قليلات هذا الحقد الذي لا يعرف حدوداً، ذلك الذي تثيره فيه هذه المرأة بوقاحتها ويبقينها من أنها تذله بجمالها المتهكم وهي تتمايل بردفيها أمام عينيه. أن تتحداه هو الذي كان على قدر لا يوصف من الشبق. وكان شبقه هذا يريه أحلام يقظة هائلة، ومن هذه الأحلام واحداً كان يراوده مراراً: إن يرى ذات صباح أثناء تجواله في غابات الحور امرأة معلقة على كل شجرة. تركت كلوديا الباب مفتوحاً قليلاً حتى ليتسنى لمن في الخارج رؤية ما يحصل في الداخل.

وقفا الواحد بمواجهة الآخر في الغرفة ذات السرير الواحد. لو كنت أصغر بعشر سنوات، فكر الجركسي في نفسه، لما كان فمي جافاً بهذا الشكل، ولما كان لساني ثقيلاً كحجر الرخام. على أية حال انتزع الكأس التي كانت تقدمها له وشربها دفعة واحدة، ثم أخذ الكأس الثانية أيضاً. تحرر لسانه وتمكن من الكلام مجدداً.

«بصحتك قالت».

«... صحة» قالها بجهد.

*

دفعته فرمى بثقله على السرير. كان يتوقع هذا. خطة كلوديا كانت واضحة: أرادت أن يكون أحدهما مكان الآخر، لإعادة تمثيل كل موقف حصل في ذلك اليوم البعيد. لقد دفعها هو أيضاً آنذاك، وقبض عليها فيما كانت تنظر من النافذة إلى البحر وهي تبتسم قليلاً، وتأفف من شعورها بالدوار (رأسه هو بدأ بالدوران اليوم)، ومن عدم استطاعتها من تبيّن القارب الشراعي.

قال لها حينها: «إخلعي ثيابك، لا تخافي، أود النظر إليك فقط!» شرع يحك ثيابه، خلع قميصه وكنزته بصعوبة حين سمع

الكلمات نفسها: «إخلع ثيابك. أود النظر إليك فقط». عندها أطلق شتيمة: «اللعنة!» ذلك أن الغثيان عاوده مرة أخرى فاضطر للإنحناء: ردة الفعل نفسها التي كانت أبدتها الطفلة كلوديا.

كان بإمكانها رؤية المشهد مجدداً تماماً كما حصل: كانت هي كما هو الآن، ظهرها عار ومنقبض، وجهها تغطيه، بقع حمراء. وما إن استدارت حتى رأت في المرآة قبالة السرير أنه سارع إلى تغطية عينيه. ثم أدرك أن المرأة كانت ترفع رجله بوداعة ماكرة، وتمطه لتتأكد بعدها من أنه يظهر في المرآة.

لطالما أحب هو أن يجبر المرأة لأن تتخذ هذا الوضع الجنائزي الكئيب قبل أن ينقض عليها.

«إسترخي. دعيني أساعدك». كان قد قال للصغيرة كلوديا. واليوم تردد المرأة بكل تهكم وخبث: «سوف أساعدك. استرخ». لم يكن أرماندو سريعاً حتى يتمكن من منعها وما لبث أن لاحظ مذهولاً أنها استولت على حزامه وراحت تعريه من ثيابه بحركات رشيقة ومتعجرفة، شبيهة بتلك التي جعلت منه شاباً لا يقهر. حين تمدد شعر ببعض التحسن.

«أنا عجوز» قال لها «مليء بالسموم، إني مثير للقرف، أعرف أي لذة يمكن أن يعطيك هذا؟ إنه لعادل وطبيعي أن رجلاً عجوزاً ومريضاً...»

ألقت على الجسد المهدم نظرة غير مبالية، ثم قاطعته كلوديا قائلة: «لم آت إلى هنا للذة. غير أني أود أن تسير الأمور بطريقة منطقية. أنت اليوم عجوز جداً وأنا آنذاك كنت صغيرة جداً، ما الفرق لمن يجني فائدة؟» حاول مقاومتها غير أن عينيه كانتا

كالحجارة ولم يتمكن من متابعة النظر في الفراغ. نظر إلى عضوه وإلى صفنه حيث كانت هي تنظر كذلك من دون أن يبدو على وجهها أي تعبير.

«أنظر إليه. إنه ميت» قالت له «ألا ترى أنه ميت؟» بالفعل كان عضوه مجرد قطعة لحم ميتة بغض النظر عما كان عليه من نشاط ويقظة في يوم ما، ما جعل رفاقه الفاحشين والشمالى ينادونه بالمعبود أو الوحش، وحش الجركسي.

رشح سائل أسود من تحت جفونه. قد يكون السائل دموع الهزيمة أو ربما بكل بساطة واحداً من عوارض مرضه، كمثل العرق المتصبب على وجهه. رغم ذلك حافظت نبرته على لهجة التحدي: «أيا يكن فإن عضوي هو الأول الذي ولجك يا ملكتي. إنه الذي جعل منك امرأة». حافظ صوت كلوديا على حياد نبرته «بالضبط. هذا كل ما كنت أصبو إليه أيها الجركسي. أن ينظر كل منا إليه ويراه ميتاً». ملأت الكأسين حتى الحافة. «لنشرب معاً» نخب شيئك الميت هذا». رفعت كأسها ومدت له الثانية. انقلبت الكأس من يده واندلقت عليه. ضحك الجركسي قائلاً: «لم تهزميني بعد».

هناك متسع من الوقت لكي يعود إلى الحياة. امتدت يده اليمنى إلى تحت فستانها. فسارعت إلى القبض على معصمه وضغطت عليه بين ركبتيها آملة في أن تكسره. تحمّل الوجع وتابع القول: «يقال إنك امرأة بمقدورها إعادة رجل ميت إلى الحياة. حسناً أريني ذلك. إفعليه». أرخت ركبتيها فتدلت يده إلى جانب السرير. «إنها معجزة لا يمكن تحقيقها كيف يمكن لأحد أن يحيي شيئاً لم يمتلك قط حياة خاصة به، قطعة لحم عفنة في جيفة حيوان».

فتح الرجل جفنيه وبانت عيناه كجذوتين مشتعلتين. أمسك عضوه بيديه بقوة أيام زمان، وقبض على المعبود الذي رآه الجميع مروعاً في الأيام الخوالي، أيام السكر والعربدة الوحشية.

المعبود المنتقم لا يموت، لا ينسى المتعبدين له. وهو نفسه كان مارس عبادته له بطقوس مقززة، وكان يتلهف لأي حقارات ممكنة بمقدورها إرضاء مشيئته. كيف يمكن أن يحرمه من المعجزة؟

*

إلتقطت الكأس التي أسقطها الرجل. وضعتها بجانب كأسها على الطاولة بقرب السرير. وملأت الكأسين. جلست على السرير وأدارت له ظهرها وقالت: «هيا. حسناً سأنتظر ريثما نشرب النخب».

كان السرير يرتعش. لم تكن كلوديا ترى من الرجل سوى رجليه. قطعتان طويلتان من الأوتار والعظام النافرة من القدمين اليابستين. تكهنت من النظر إلى رجليه مدى المجهود الذي كان يقوم به الجركسي بغية جعل المعبود ينتصب من موته، ويثور على الذل الذي جعله يلتوي كرقبة ديك عاجز عن نفش ذنبه لإغواء دجاجة. ضحك الرجل لهذه الصورة وهز رأسه بكآبة. ثم حاول التركيز على الرؤى التي لطالما أثارته في حياته. لم يدرك على الفور أن النار في شرايينه لم تكن معبودة لحظات المجد خاصته. بشعور بالإنتصار تشبث بشيء لم يكن الإنتصاب بحد ذاته إنما نوعاً من التوازن، انتصاب أفعى ساعة تنزلق تحت تلافيف القلب قبل أن تنقض. كانت الأفعى تزحف صعوداً من قدميه المتيبستين ويشعر بهما كالثلج. كان عليه أن يعوق تقدمها. لقد قال له الأطباء بأن يدع كل جزء من جسده ليترهل كما لو كان يتظاهر بالموت،

وحين يأتي الموت الحقيقي ينخدع ويغادر. سمعت كلوديا كلمة «ساعديني». استدارت فرأت الجركسي وكانت يداه ورجلاه ممدودتين كما لو على أهبة السقوط في العدم، وكان من إحدى الحفر يتطلع إليها من وراء الخوف، بإيمان مجنون، كي يُفهمها بأنها هي الآن المعبودة الوحيدة القادرة على اجتراح المعجزة.

«ساعديني كي لا أموت».

شعرت لوهلة بشيء من الإرتباك وتذكرت كلمات رددتها أمها مراراً على مسمعها: «القسوة الحقيقية هي أن يكون المرء قادراً على التفاخر بتأدية خدمة ما». تناولت يده وأمسكت بها محاولة أن تنقل إليها بلمستها ونظراتها القوة نفسها التي جاءت بها إلى هنا لتقتله. والآن هي تحاول ردع الأفعى قبل أن تنقض على قلبه... كان ثمة العديد من المفاجآت المتبقية في رحلة الرفاق هذه في هذا العالم، مجموعة حلقات ومؤامرات ملتوية وتغيرات. لو أن أحداً أخبرها أنها حين ستطأ عتبة المطعم سوف تتشبث أصابعها بأصابع الجركسي في تضامن يائس، وسوف تروح هي تلح عليه: «هيا أيها الجركسي... بإمكانك فعله أيها الجركسي».

*

للمرة الأولى، شعر الرجل بأحاسيس تجتاحه: عبثية، حب، إمتنان كما لو أنه تم الصفح عنه: الشعور بقليل من كل شيء، الشعور بأن اللعبة كانت تستحق الشمعة. كل شيء كان ينقصه لغاية اليوم، وبسبب هذه الإغماءة المشرقة لن تنكد عليه نعمة الحياة بعد اليوم. نظر إلى الضوء المنساب من الخمرة الحمراء في الكأسين على الطاولة بالقرب منه، وراحت الإشراقة التي تطوق كل جوهر الحياة، تعود إليه من دون أي معبود، وتكره الأفعى على التراجع إلى

أن ترحل عنه. «الآن، قال وهو يبذل مجهوداً لكي يبتسم: «النخب». شربت كلوديا الخمرة من كأسها. وضعت الكأس الأخرى على صدر الجركسي وخرجت من الغرفة.

راح الجركسي يحدّق في نفسه في المرآة في آخر الغرفة فيما هو يؤرجح ما يشبه زهرة بعنق طويل، زهرة عدوة بتويج بلوري تماماً في المكان الذي لم تتمكن الأفعى من بلوغه.

حوار مع ا.ب. وفيه أخبرها قصة «رقصة الغيرة».

«سوف تعتقدين أن هذا جنون». قلت لها «غير أن الغيرة كانت بالنسبة لي نوعاً من الفتوحات. كانت مرحلتيّ طفولتي ومراهقتي شاقتين للغاية، نادراً ما لامسني الحب ـ حب والدتي حتى المريضة بالقلق والكرب والرهاب، موجودة باستمرار في مكان آخر، بعيداً في إحدى العيادات الطبية ـ تلك الأراضي القاحلة المهجورة أيام شبابي عودتني على الرضى والقبول بحب الآخرين كيفما أتى حتى ولو كان غير صحي أو غير ممكن تحقيقه... فقط في ما بعد في وقت متأخر تعلمت كيف أظهر مشاعري الحقيقية، أحاسيسي الصادقة. وفي الوقت عينه تعلمت الخوف من فقدان هذه الأحاسيس والرغبة الجامحة في الدفاع عنها وحقي في أن أعرف أنها ملكي تماماً»...

«إذا أوليست غيرة، ذلك الميل إلى لوم رفيقك لخيانته الجنسية الخالية من أي أسس؟ في «وهم الغيرة». رأى فرويد آلية قوية لصد الميول المثلية الجامحة. وكأنما ثمة حاجة معذبة وعنيدة لرجل آخر، لأمرأة أخرى، تدخل أو يدخل إلى العلاقة حتى يقوى فينا اشتهاء غير معلن للآخر. تثقل الغيرة بنظريات كثيرة مملة وأحياناً كثيرة سخيفة. كيف يمكنك ألا تخاف من أن أحدهم سوف يسرق

منك الإنسان الذي يجعلك سعيداً؟ أو بعبارة أخرى أكثر تحديداً كيف بإمكانك، وأنت بالقرب من هذا الإنسان، أن لا تخشى أن يسلبك أحدهم سعادتك؟

«في الأحوال كافة، الغيرة شعور يجعل الإنسان أكثر قابلية للعطب وأكثر فساداً...»

ما من شعور قوي لا يحتوى شيئاً من الفساد فيه. ومن جهة أخرى فإن الغيرة هي أيضاً حالة مميزة لأنها تطلق عالم السحر والخيال. إنها مبدعة بحق. بوسعي أن أخبرك عن بعض التخيلات الشهوانية التي يرويها عاشقان الواحد للآخر. حكايا الأيروس تلك... إبداع لا حدود له. بوسعه أن يكون متألقاً وللسبب ذاته أن يكون مؤلماً ألماً شديد الألم.

إنه يتطلب دائماً ثمناً باهظاً يلذعك حين تجتاح الدهشة وجودك، يشعرك بنفس الإله ذاته، ولكن بنار الجحيم أيضاً. الغيرة تشعرك بالحياة، والشعور بالحياة ترافقه دوماً رهبة الموت. بهذا المعنى قد تصبح الغيرة مرضية، ويمكن لأعراضها أن تتخذ أشكالاً لا يمكن تصديقها.

متى شعرت بالغيرة لأول مرة؟

حين عاد إلي حقي بالحب، كما أخبرتك، بعد زمن طويل لم أشعر خلاله بشيء. بادرتني فتاة: المسني. داعبني فقط المسني. لمست وجهها وجسدها بكل أجزائه، داعبتها مداعبة طويلة متأنية وأيقنت أن يدي كانتا قادرتين على جعلها تشعر براحة قصوى، حتى بدا جسدها وكأنه ممتلىء بالنور، مشرق وكما لو كانت ابتسامتها تنتشر من شفتيها إلى كل جزء فيها... لم تكن امرأتي. وبوجودها معي، كانت تخون رجلاً آخر ولكن بالرغم من هذا

كنت أنا الخائن، شعرت بندم كبير حين فكرت أن رجلاً... آخر، أن رجالاً آخرين كان بوسعهم مداعبتها كما فعلت أنا، وأنها كانت لتبدأ بالإشراق بنورها السري مجدداً.

فجأة تحركت في داخلي ذكرى راحت تناقضني. ذكرى لطالما عمدت إلى صدّها: «قد لا تكون تلك المرة الأولى. كنت طفلاً صغيراً ولم تكن أمي مرضت بعد.

حين كانت شابة كان رقصها رائعاً. كانت تعشق الرقص. وبوسعي أن أرى ذلك المكان كما لو كان موجوداً أمامي الآن: بالو غاردينيا قاعة رقص غاردينيا. أتخيل جيداً رقصة أمي الأخيرة قبل مرضها. رغب الجميع في مراقصتها وكانت هي تراقص الجميع. وكنت أجلس أنا وحدي وأروح أراقبها وهي جذلى وقد نسيتني ولم تلحظ في غمرة فرحتها أني كنت هناك أنا أيضاً ـ وكنت رافقتها إلى قاعة رقص غاردينيا لأراقبها وهي سعيدة، رغم كل شيء ـ شعرت هناك وكأنني عاشق مخدوع، وفي الوقت عينه، كنت فخوراً بشعوري هذا وهو شعور خاص بالبالغين. حين أمسك بي أحد أصدقائها مازحاً وجرّني إلى ساحة الرقص، تحركت بخطى غير واثقة ولم أدر إذا ما كنت أرغب في البكاء أو في التفاخر. خطوات الطفل راحت ترافق نغمات الموسيقى الفرحة بغية محاربة الألم الصادر عن إقصائه فيما هو يتذوق لذة الثأر المنحرفة، هذه الذكرى لا تزال تتحرك في داخلي. أشعر بها باستمرار وهي ترقص بتردد رقصة الغيرة.

تخيلات شهوانية أيروتيكية: حكايا يرويها أيروس

يتبادلها العاشقان فيما يمارسان الحب. أو أن كل واحد منهما يحتفظ بها سراً لنفسه. هذه الخيالات هي جزء من فيزيولوجية

أيروس: أن نرويها لبعضنا البعض فهو مشاطرة العلاقة الحميمة. أما أن نخبئها فهو أمر غريب أو نوع من التحفظ الذهني. غالباً ما تكون هذه الخيالات مبدعة، طفولية مثل الخرافات وحين نرويها لبعضنا البعض نعود إلى مرحلة الطفولة، إلى أحلام الأقزام والساحرات وإلى حبكات كنا نلفقها ونحن صغار إذا لم يلفقها لنا أحد غيرها.

في خرافات أيروس، تمتلك الأمور الطفولية أساليبها الخاصة لتسمح ببعض الإنتهاك، ببعض الإنحراف. وبهذه الطريقة تطرد أجزاؤنا الأكثر ظلمة ويخبو أيضاً التوق إلى الخيانة. التواطؤ الناجم عن إعادة رواية خيالاتنا يزيل الهوامش الفاحشة التي تنتشر كالبقع الشاحبة في أذهان العشاق، وهي لا تتحول في الغالب إلى أفعال حقيقية إلا إذا حل محلها إنحراف متبادل. الخيال يشكل واحداً من أهم فصول أيروس وأكثرها إثارة للجدل. وبلمسة من السخرية والتشجيع الضمني بدافع نية صافية، أنقل هنا البعض منها، والتي يوافق عدد كبير من النساء على مشاركتها مع حبيبهن. من الأمثلة الأكثر شيوعاً: «في السينما أنت تجلس بجانبي، وفي المقعد إلى جانبي الآخر يجلس رجل لا أعرفه. يشرع بمد يده إلى تحت قميصي. يلامس رجلي. تروح يده تصعد إلى فخذي بخلسة خشية من أن تلاحظ أنت شيئاً. أما أنت فتتظاهر أنك لا ترى تلك اليد التي تستمر في الصعود وتعمل على إزاحة سروالي الداخلي وأنا أتركه يفعل... المرأة التي روت لي هذا لم تكن في الحقيقة لتسمح لنفسها الإنحدار إلى هذه الدرجة من الإنحطاط. وهي إذا ما تم إزعاجها بهذا الشكل لأتت ردة فعلها عنيفة وغاضبة. أما الإستثناءات فهي تعاني من نتائج وخيمة. قرأت مرة عنواناً رئيسياً في جريدة عن جريمة قتل امرأة في الثلاثين من عمرها قتلت في

روما في ظروف غامضة: «ليديا كانت تسعى وراءه» أعلنت العناوين وقد ركزت التفاصيل وتناولت بإسهاب علاقاتها السرية المنحرفة: قصة طويلة من الألعاب الخطرة التي لم يعرف بها زوجها البتة. أحد عشاق ليديا كان يصطحبها إلى أحد بيوت السينما المخصصة للراشدين حيث كانت تؤدي أدواراً جنسية مع عدد كبير من رجال لا تعرفهم فيما شريكها يراقب ويوجه أداءها أيضاً.

بعض حكايا أيروس الخرافية تساعدنا على تخطي هول إنحرافات مماثلة. من الخطأ اعتبار أن امرأة طبيعية لا تعاني نسبياً من عذابات مماثلة.

في الحقيقة أنها طبيعية وصادقة لأنها قادرة على التعرف إلى نقاط خوفها وألمها من دون أن تتسبب بعدوى الآخرين.

كل إدراك شفاف يرافقه حتماً خوف من أن القوى السلبية قد تنجح في الوصول إلى أعماقها وتدمرها.

حتى المرأة الوفية يمكن أن تعاني من عذابات التخيلات المتناقضة والمغوية: أرغب في ممارسة الحب معك في مكان يمكن لأي أحد أن يفاجئنا فيه ويرانا. أريد أن يراني أحد الآن، في هذه اللحظة بالذات».

*

يقول مثل «ذكوري» إنه بالإمكان التعرف إلى شكل مهبل المرأة من خلال شكل شفتيها. ولكن وفقاً لمثل «أنثوي» فإن مواهب الرجل الخفية يمكن أن نقرأها في يده وفي شكل أصابعه. قاعدتان لم تخطئا أبداً كما وأنه لم يتم تأكيدهما تماماً.

والآن راقبوا لعبة الغمزات بين عاشقين خلال حفلة عشاء،

نظراتهما التي تتقاطع فيما تشرد على أيدي وأفواه الضيوف الآخرين. تماماً كما في ألعاب طفولية فإن قصص أيروس الخرافية لا تحتاج دائماً إلى كلمات.

تعود العبارة المستحوذة إياها «المرأة الأخرى» و«الرجل الآخر».

«كيف برأيك سيكون حالي مع رجل آخر؟»

«هل لي أن أحظى بإمرأة أخرى؟»

إنها مضطربة وأحياناً يثور غضبها.

في فيلم «مملكة الحواس»، من أكثر المشاهد إثارة للإزعاج ذلك الذي يلاحظ فيه البطل ومضة إعجاب في عيني خادمته العجوز، وهو كان قد أصبح على حافة الإنهيار بسبب تحديات عشيقته التي لا تنتهي، فيسارع إلى مضاجعة العجوز بعنف وشفقة في آن قبل أن تموت المرأة ـ الخادمة أثناء رعشتها الأخيرة.

*

سألها: «هل سبق أن فعلته مع امرأة؟»

«يحدث هذا، لكثير من النساء، وأنت مع رجل؟»

الرجال عادة يروعهم هذا السؤال. غير أن البعض منهم يعترف بخنثويته العرضية التي قد تكون ظهرت أول مرة في إيماءات بسيطة بريئة في وقت من الأوقات، في فترة الطفولة ربما.

«أعتقد أن هذا قد حصل ربما».

الخيالات الشهوانية لدى المرأة تتغذى في معظم الأحيان بواقع يتوجب الإعتراف والبوح به وذلك لمجرد اللذة التي تعطيها تجربة غريبة مغايرة.

«في أحد الأيام، كنت آخذ حمام شمس على شاطىء في

أفريقيا. كنت لوحدي على الشاطىء باستثناء أحد السكان المحليين. كان رجلاً عجوزاً مكث ينتظر مدثراً بثوبه الطويل ومعتمراً قلنسوة. كان بمقدوري رؤية عينيه تومضان في الظل حيث كان منحنياً ذليلاً كالمتسول، متسخاً أشعث. أخذ يحدّق في الزاوية الناشئة عن انفراج رجلي. جعلت يدي تنزلق داخل سروالي البيكيني ورحت أمطه حتى بانت كل عانتي. فعلت ذلك على مهل أمامه. بدأت أشعر بالبلل، لا أعتقد أن حركاتي الفاحشة قد أثارتني إنما فكرة أن هذه البحثة قد شعرت بسعادة لم تحلم بها وعاد الدم يجري في عروق العجوز، كما لو أنه عاد شاباً وهو يشتهي هذه المرأة الغريبة الشقراء التي لا يجرؤ على لمسها. وهو يرغب بها ألف مرة أكثر من المال الذي كان ينتظرها بصبر وهو يدرك أن أحداً سوف يرمي له بقطعة نقود عاجلاً أم آجلاً، فلا يطلب شيئاً بل يمكث من غير حراك تحت شمس الشاطىء الحارقة، كمثل سارية في قارب محطم...»

تخيلات المرأة الشهوانية تجعل حبيبها يطلق عليها أحياناً نعوتاً سافلة... وهو من جهته يشعر بحرج طفولي عندما يحاول أن يقول لها هذه الأشياء. وحين تعطي المرأة انطباعاً أنها قد غرقت في هذيان ارتعاشي أو في نوع من التنويم المغنطيسي الذي يبعد كل أنواع الكبح، تخرج منها حينها حقائق يتعذر ضبطها قد تجعل الرجل يعاني من شعور رجعي بالغيرة.

وهذه بالتأكيد أحد أكثر أشكال الغيرة إثارة للعذاب: في هذه الحالة تولد إثارة في معاقبة الذات من خلال ما يريد الرجل ـ وفي الوقت ذاته لا يريده ـ أن يعرفه عن ماضي المرأة وتجاربها الجنسية ـ أي نوع من الرجال؟ كيف؟ متى؟

من هذا الماضي الذي قد يصبح هاجساً، تخرج آلاف الفرضيات المؤلمة، مزدحمة بالأشباح والتجاوزات وكل الأوضاع الممكنة والبعيدة الإحتمال.

وهكذا فإن خرافات أيروس فيها الأقزام وفيها أيضاً الغول. ولائحة التعقيدات كما جاءت في لغة الخرافات والحكايا تحتوي أيضاً على «عقدة القزم» وقد ورد في الكتب «أن الغول يرمز إلى فكرة غرس الأفكار بطريقة لاواعية، إلى الإنتحال النفسي لمواصفات المعتدي». المهم أن نعمل على طرد هذه الأهوال العقيمة وذلك بحرية مطلقة.

أيروس هو أيضاً أسطورة فاتنة

كل السكان في بارما سمعوا عنها. وكان الجميع يتكلمون عنها. كان ثمة امرأة شابة في العشرين من عمرها تملك صوتاً ذهبياً رائعاً: كان إسمها أوبيرتا بونيفاكيو. كان والدها رجلاً محبوباً جداً بسبب الإسم الذي يحمله: أوبيرتو كونت سان بونيفاكيو. كان الوالد ينتظر صبياً بلهف وحين أتته إبنة سماها أوبيرتا: «فكرة حب غير سعيد» كان يقول مستشهداً من مقاطع إحدى أوبيرات فردي التي كتبها تيميستوكل سوليرا: «كنت مخدوعاً! يائساً! السخرية ليست ملك وحدك».

كان محبو الموسيقى يأتون من بعيد لينتظروا أمام منزل بونيفاكيو ويتمشون ذهاباً وإياباً متظاهرين بأنهم يقومون بنزهة. كان الجمع الصغير المتلهف ينتظر بصبر ويروح بين الحين والآخر يسترق النظر إلى الشرفة، إلى الستائر المغلقة وراء صفوف زهور الجيرانيوم. عاجلاً أم آجلاً كانت أوبيرتا ستغني. كانت تختلس النظر إليهم وفرحتها تكبر كلما ترى الجمع يكبر وأن المارة المزيفين يزداد عددهم شيئاً فشيئاً. غير أنها كانت تعاني من هلع الوقوف

أمام الناس. «العالم يخيفني» كانت تردد «العالم يخيفها» أكّد والدها مبدياً أسفه ومحاولاً التبرير «عالم الرجال مفترس . ألم يحصل هذا لسلفي أوبيرتو، كونت سان بونيفاكيو، الذي هزمه إيزيلينو دا رومانو؟» «بالفعل حصل هذا» ردد المستمعون المحرومون مبدين موافقتهم على هذا القول. غير أنه في بعض الأحيان لم يكن الإنتظار الطويل خلف النوافذ بدون جدوى. إذ أن أوبيرتا كانت تتحرك فجأة بوحي من إشارة ليس لها علاقة بالبشرية: قد يكون الضوء المنزلق على الجدران معلناً ربيعاً رائعاً، أو رائحة أشجار الليمون التي تصل إليها من الطرقات فتشعرها بدوار خفيف، أو هراً سعيداً رأته يتلوى على أحد السطوح في الشارع المقابل. ثم كانت تسرع، ودمها يضرب بسرعة، لتختبىء في إحدى فجوات الجدران في المنزل الكبير حيث تمارس الحب وحدها، في ظلال غرفتها الصغيرة، وهي ممددة على سريرها الأبيض. حين كانت تشعر بالرعشة، كانت هزة الجماع التي تمنحها لنفسها تسلحها ضد خوفها من العالم، وحينها كان ينطلق صوتها الجميل حراً رائعاً فيرسل روحاً بنفسجية ترفرف على البلدة:

«كل ما لا يحتوي لذة في العالم هو حماقة.

فلنستسلم ونذوب بسرعة في جنون الحب. الزهرة التي تتفتح وتموت تعرف الفرحة الذائلة».

«أفضل من ماليبران» قال الناس.

«أفضل بكثير» نردف نحن ونرجّع الصدى.

إيروس حين لا تتوقعه أبداً

ذهبت إلى بارما في بداية فترة ما بعد الظهر، عند ساعة الركود حين تكون شوارع البلدة الريفية مشمسة ومقفرة.

أدركت، مذهولاً، أني كنت أطارد امرأة في الأحياء والأزقة. كان جسدها «بارمياً» ولا أعرف كلمة أخرى لوصفه. ذلك الإشراق الذي كان يخرج منه، من أردافها وأكتافها التي ورثتها من والد قروي وساقاها الطويلان الجذابان: ثمة ما ورثته بالطبع من والديها القرويين اللذين علماها كيف تنقل حركات وإيماءات صاحب الأرض الذي امتلك حياتهم.

فيها كنت أرى أجيالاً من النساء اللواتي أعطين حليبهن لعائلات من الطبقات العليا بعد أن فطمن الجنس عن مولدهن الأول.

وحين ذهبت على دراجتي الهوائية إلى قمة البلدة مرة أخرى أدركت أني كنت بجانب فتاة أخرى تركب دراجتها بحيوية وسعادة وهي في طريقها إلى عملها. كان الهواء يرفع فستانها من

على فخذيها ورحت أنا أحدق بذلك اللحم الأبيض المزهر الذي كان يرتعش مع ارتجاجات الدواستين عند كل حركة.

أدركت الفتاة أن أحداً يلاحقها، فراحت ترفع فستانها تدريجياً وتجعله يطير أكثر فأكثر حتى بت أستطيع رؤية الخط العصي على الوصف، حيث سروالها الداخلي يضغط على مهل على أردافها.

كانت تحدد دعوتها هذه حتى يتسنى لحوار الإثارة المتبادلة أن يصير أكثر اشتعالاً. كان علينا أن نحافظ على مسافة معينة وإلا فإن الحوار الصامت مهدد بالإنقطاع. سارعت الرغبة دقات قلبي، اندفعت في دمي وملأتني بأحاسيس تشبه أريج الزيزفون على طول الطريق. ومن ثم توارت الفتاة في إحدى الطرقات الجانبية. هؤلاء الفتيات يتلقين تربية جنسية كنت وصفتها في مناسبات أخرى بكلمة «حضارة». وفيها يتنكر أيروس بهيئة مقعد الدراجة ويقرض الفتيات بعض التواطؤ من أيام الطفولة: هذا التورط الذي يحصل تحت أشعة الشمس، في الهواء الطلق، لهو أكثر رقة من الإستمناء ولهو خال من أي شعور بالذنب، إنه خطيئة بريئة وجريئة لأنها ناتجة عن الحاجة لأن نكون أحياء.

أسرت لي إحدى الفتيات: «أحب أن أرتدي قمصاناً فضفاضة ليتسنى للهواء العبور من تحتها ورفعها فتظهر سراويلي التحتية الضيقة وأرى الناس ينظرون إلي بسعادة وأشعر بسعادة أنا أيضاً. أشعر بالإثارة لأني أستفزهم وفي الوقت نفسه أشعر بالنقاوة.

*

كان في بلدتي الثانية سابيونيتا ثمة كاهن يدعى دون ماركو.

كانت النساء تشبهنه بالنسوة لأنه كان يرتدي رداء راهب وهذا ما كان يجعله مختلفاً بالنسبة إلي. كان معجباً بي وكان يسمي الذكاء الذي كنت أظهره وأنا طفل «عقل من دون خمر» مثل مالغاسيا الذي يدخل إلى دمك وينقض عليك محدثاً أزيزاً في أفكارك».

كنت أخدم له القداس وأساعده في مهمات صغيرة أخرى. وكنت أمضي ساعات طوالاً جالساً تحت شجرة الصفصاف بالقرب من منزله. ظهرت غيليا وكانت تقف عند حافة الحقل. لم تكن لتدع دون ماركو في سلام. كانت تتدبر لنفسها مكاناً بالقرب منه على مقعد الكنيسة وتلصق فخذها بفخذه متظاهرة بأنها تفسح المكان لجار غير موجود، ثم تفرج ركبتيها وتروّح عنهما وهي تخفق تنورتها فتظهر رجلاها العاريتان. بعدها يبدأ المؤمنون بالتوافد إلى قداس الصباح. في حضور غيليا يمتلىء صحن الكنيسة بأنفاس البشر، وجهها يعطي معنى لأصبع الرب الذي يشير به من على الحائط مهدداً وحاثاً البشر على الإبتعاد عن التجربة. حتى أعين القديسين كانت لتبدو أكثر إشراقاً من وراء خيوط العنكبوت، والسماء الليلكية وراء أكتافهم تنبىء بعاصفة شبه حقيقية.

تظاهر دون ماركو بأنه لم يلاحظ شيئاً، وكان ينحني في صلاته بحرارة أكثر أو هكذا خيّل إلي وأنا أراقبهما. ثم تمسك غيليا بيد الكاهن وتجره من الكنيسة كما لو كانت تصحبه للقاء عشيقين. بدأ الإعتراف.

تسلل دون ماركو وراء الستارة ثم أنزلها ليجد نفسه أمام وجه المرأة الرائع ونفسها الرقيق من وراء الحاجز المشبك. كانت غيليا تتظاهر بالإعتراف ويروح صوتها المفعم بالتقوى يصف بالتفاصيل

الدقيقة خطايا الجسد التي اقترفتها مع هذا أو ذاك. كانت الإشاعات المحلية تقول عنها: «بإمكانها أن تمارسه مع أي كان حتى مع والدها، أو حيوانات المزرعة».

*

ومع ذلك فإن هيئتها الخارجية كانت صورة الطهارة إياها، وكان يبدو مستحيلاً أن تعمل على تشويهها بتصرفات ممنوعة، أو أن تكون هي مختبئة وراء رأس حيواني متوحش.

هناك في آخر الكنيسة كنت أتجسس على هذا الإعتراف الذي يجمع دون ماركو بغيليا، حاراً كالمضاجعة.

وكنت أتخيل ماذا يمكن أن تقول له، وأشعر باهتياج من التخيلات التي كانت تنمو بشكل لا يحتمل ويصل العنف الذي يتفاعل في أحاسيسي إلى أقصى درجاته.

ذات يوم كنا نحن الثلاثة على مدخل برج الجرس. كان واضحاً أن غيليا لم تكن ترتدي شيئاً تحت ثوبها الفضفاض الذي شدته بحزام حول خصرها. صعدت أمامنا على الدرج. وكان دون ماركو يتبعها. نظرت إلى الأعلى: إلى رسغيها النحيلين، إلى بشرة فخذيها البيضاء تحت سواد ردائها. شعرت وبدون شك هكذا شعر دون ماركو أيضاً ، بتوق كبير لمد يدي وتمريرها بين فخذيها فالامسهما بالكاد حتى أصل إلى الحرارة المنبعثة من عضوها فادفىء أصابعي بهذه الحرارة، وبحركة هيام انتهك المحرمات وأترك يدي تضيع في ذلك المهبل الذي بدا لنا هائلاً.

*

كنت في سيارتي، عالقاً في زحمة سير خانقة على طريق ضيق

على طول نهر التيبر، كنت أسير ببطء شديد أخف سرعة من سير المشاة في ساعة الزحمة تلك.

كانت بجانبي سيارة أخرى. ظهر وجه امرأة بموازة وجهي ورحنا نحدّق ببعضنا البعض من خلال النافذتين المغلقتين. فجأة ودت أن تنظر إلى البعيد لكنها لم تفعل وقد أدركت أنا ذلك. شاءت التركيز على نظري حتى تضع حداً لصراع داخلي في جزء صغير من الثانية. كنت أعرف جيداً هذه النظرات. هذا النوع من الرغبة التي أصبحت قوة لم تتمكن الفتاة من السيطرة عليها، تنومها مغنطيسياً كما كانت تفعل بي أنا. كان جفناها وكأنما مجمدين فوق عينيها الخضراوين. قرأت فيهما أحاسيس متناقضة: ذهول وسعادة برؤيتي، مرارة وأمل، وأكثر من كل هذا دعوة لنتعارف. كانت المرأة جميلة، كانت نظرتها المحدقة تقاوم ضجيج النفير الذي شرع يغير علينا من كل إتجاه. ثم تحركت السيارة حاملة بعيداً معها في تلك النظرة المتلاشية لقاءً غير متوقع لأيروس.

بين الرجال...

يمكن التواطؤ الموسيقي أن يولد بين رجلين تواطؤ يجد موسيقاه في الحواس ويخلق رابطاً لا يوصف ويصعب تحديده. وتزحف إليه أيضاً أمور أخرى: الكآبة، الأسف على حب مستحيل لنساء غير مباليات أصبحن بعيدات وغريبات لأنهن انجذبن إلى الرجال بطريقة مملة أو منحرفة، ويستعبدهن عالم الأنوثة الذي يثبت في النهاية أنه منهك للأعصاب وممتلىء بنفسه.

يلزم حظ وافر للتعامل مع النساء بطريقة مرهفة. بين رجلين صديقين يزول بسرعة القلق من القساوة ومن الخيانات. ويمكن لعلاقة صداقة عميقة أن تولد. إنها كما العيش المقولب داخل

الحياة، تماماً حين تضيف إلى رسالة «جملة واحدة فقط»، حين تتبادل القلوب تفاهماً كلياً بعد أن ينعكس الحس الشهواني فارضاً سطوراً غير عادية وقوة خاصة تتغذى من الواقع الفظ.

تعجز النساء عن فهم لغة من لغات أيروس قادرة على أن تجعل رجلين على اتصال نقي. إنهن مصرات على كونهن فائقات الذكاء وأنهن قادرات على تبين مثلية خفية. هذا الشك لهو رذيلة سخيفة متأصلة في عالم النساء، وأساسها حس متحجر لا يقبل أن التزحزح من مكانه حتى ولو كان مجرد افتراض.

في حالات عديدة، حين تكون ميول الروح في خطر، فإن المثلية أو الجنس الطبيعي يبدوان كمبادىء ملائمة في متناول الشخص ليس إلا، أو ثمرة مناورة ذهنية الفية مشابهة للتدابير المختلفة التي اتخذتها الكنيسة الكاثوليكية في وقت من الأوقات لتقصي النساء عن ممارسة حياة الحواس وحياة الروح.

أيروس لا يعيش بالعقائد مثله مثل الوجود البشري. إن نوره يستحق التناقضات الزائلة ولا علاقة له بالمحرمات والإرهاب الذي يسمم المجتمع السطحي ويثقل على الأمور اليومية ويصدها.

إذا لم يكن أيروس إلهاً إنما مجرد كاهن في خدمة لعبة الحواس الحرة، يمكنك أن تنتمي إلى صديق، إليه وإلى نفسك أيضاً. ويفسح أحدكما المجال للآخر كما يتم تبادل الرسائل بين محبوبين، بواسطة إدراك هو دائماً مخالف للقواعد، مفتوح على كل الأمور، قابل للمخاطرة. يرفض أن يستسلم فيحطم الفساد نفسه ويعرف كيف يغرق نفسه في الحزن ويعرف أيضاً كيف ينبعث منه مجدداً. أن روحاً واحدة أسيء فهمها تستحق الكثير. إنها مصباح سحري.

*

... أذكر كيف كان الصمت يخيم على منزل م.س. كنا نشعر بأن هذا الصمت يحدّق فينا متفحصاً، وكأنما كان ثمة نظرات تتسلل إلى داخلنا وتلف الغرفة.

رفعنا رأسينا وحدقنا جيداً لندفع أعيننا إلى الإستجابة للنظرات المحدقة، لنؤكد لها أننا على علم بوجودها وبقوتها. رغبت في النهوض والرحيل بعيداً. م. رغب في أن يسجن نفسه في غرفة مظلمة ليسترسل في البكاء.

كانت الوحدة تسبقنا بكثير: تحولت إلى حورية بحر وحملت معها فيما تخترق السقوف الرومانية سحراً شرقياً يحمل نغمة الحياة نفسها، وسمعناها تجرفه معها بعيداً عن توقنا للسعادة.

أدار م. جهاز الستيريو وانتشرت الموسيقى في أنحاء الغرفة. ثم اتجه صوبي وراح يداعبني. كنا نرى في أعين بعضنا التناغم الكبير الذي كان بيننا، السيمفونية التي تجعل كلاً منا يدرك أنه حقق قفزة هائلة إلى الثقة والإيمان بالنفس. كان هذا كل شيء. لا شيء غيره البتة.

إيروس يتحدى الزمن

إثر عودتي إلى بو، استأجرت زورقاً آلياً وطلبت من السائق اصطحابي إلى ضفاف البوثينا ـ كان النهر يشع بأضواء شفافة شاحبة تمر فيها مسرعة الفيلات والحدائق. كانت العزلة تكبر حولي في السهول المحيطة إلى أن توقف الزورق بإشارة مني إلى السائق عند مرتفع رمل رائع. وراءه كان ثمة بقايا بحيرة جافة وركيزة مهترئة. في هذه البقعة المستنقعية حيث نمت بعض النباتات كان هويس القناة مزخرفاً بالصدأ اللمّاع والشمس تلمع على القصب فتجعله يبدو وكأنه دروع فرسان غونزا غاس الذين سقطوا بالمئات في معارك بعيدة. كان المكان يدعى فيك بيرغينيف: الفاسق العجوز.

كان المسنون يأتون إلى هنا لممارسة الحب، في حين كان العشاق الشباب يتحاشون الإقتراب من المكان. في إحدى المرات رأيت رجلاً وأمرأة يمارسان الحب، رأيتهما يخرجان من دغل القصب في بوسكو روسو ويتوقفان تحت شجرة الحور. وربما أنهما قد اتخذا قراراً سريعاً من دون تفكير. لأنه هو، وكان خياطاً من

كيكوينارا كان لا يزال يرتدي مريوله المشكوك بالدبابيس. وكلما كان يحاول معانقة رفيقته، كانت تنسحب إلى الوراء. كان دائماً ثمة دبوس يتوجب انتزاعه وكانت البداية شاقة ما جعلت العجوزين يغرقان في مرح صاخب إلى أن تم أخيراً انتزاع كل الدبابيس، ولم يتبق أي شيء بإمكانه تعقيد الأمور.

غير أنهما سرعان ما وجدا عذراً آخر حين اكتشف هو ندباً على صدرها. رأيتهما يتحاوران حول الندب وكانا بدون شك يسترجعان ظروفه ويتجادلان بشأنها، ثرثرة ولغو امرأة ورجل بمثل سنهما. كان الأمر يتعلق بالتأكيد بمرحلة شاقة من حياتهما إذ أن المرأة شرعت بالبكاء حتى أنها حاولت الهروب، لكنه أمسك بها بعنف وراح يواسيها بلطافة مفاجئة.

عادا يضحكان مجدداً لسبب سخيف كما يفعل الأطفال وبحركة غير مبالية جعلت المرأة رفيقها يستلقي على العشب وراحت تداعب صدره وتتأمل في إمكانية جمع وحدتهما ليس فقط في الضحكة المغتصبة، ولكن في طريقة أخرى ونوع آخر من التواطؤ.

ثم انحنت فوقه، فكت أزرار بنطاله فيما بقيت على بعض المسافة كما لو كانت تخاف أن تدع يديها تفعلان شيئاً لم تعتده من قبل، حركات من طفولتها ومراهقتها البعيدتين. سحبت عضوه إلى الخارج وشرعت تحدق به. كانت نظرتها نظرة كائن تعلم الحياة على حساب حياة بأكملها. إن المعجزات غير موجودة غير أنه من الحماقة ألا نتوقع البعض منها.

راح الرجل العجوز ينظر هو الآخر إلى عضوه الممدد فوق سرواله. يحدق النظر ويبتسم بين الفينة والأخرى. أولاً بحذر، ثم

بفرح واحتراس، راحت الأيادي الأربع تلامسه. وكان هذا مبعثاً لفرح كليهما: عادا مجدداً ولدين صغيرين يستعدان ليطيرا طائرة ورقية. أحياناً كانت الأيادي تتوقف عن مداعبة العضو لتداعب بعضها البعض وتتناقل بعض الشجاعة.

وفجأة حصل انتصاب قوي غير متوقع، وأصيب الخياط العجوز بذهول. حدق العجوزان ببعضهما ثم حدّقا فيه، بارتباك واضح لا يعرفان ما العمل وذلك قبل أن يتبعا الطائرة الورقية الصاعدة نحو الجنة وهي تنفذ شروط المسار السحري الذي تسلكه الطائرات الورقية، وبدا على العجوزين تلهف لمعرفة ما إذا كانت الطائرة ستنحرف أو ستقع بفعل عصفة ريح. بدا عليهما أنهما يتساءلان عن القوة الغامضة التي جعلتها تطير: أكان الجسدان هما اللذان امتلكا في داخلهما تلك القوة النامية، أم أن ما حدث كان نعمة منحتها لهما لحظة منسية في رحلة السنوات الطويلة؟

نهضت المرأة العجوز واتجهت نحو أدغال القصب لتتوغل فيها وتحتفل أكثر بالحدث، تبعها الخياط العجوز: كان يمشي بحذر شديد وقلبه يرتعش كما لاعب السيرك الذي عليه أن يحافظ على جملة أشياء سريعة العطب عالياً في الفضاء.

تشرين الأول/ أكتوبر:

كان رائعاً أن أكون في ريانو. ألوان الغرفة ناعمة وكان للفيلا حديقة واسعة. الغابات بدأت تحمل إشارات الخريف وكانت شفافية الأشياء مؤثرة حتى أنها حركت مشاعر الضيوف أيضاً. في مكان ليس ببعيد كان ثمة بحيرة صغيرة كنت أمضي أوقاتاً طويلة جالساً إلى ضفافها. في اليوم الأول تبعتني فلافيا. كنت أحب كيف كانت تجعله الصمت يبتسم. ثم لماذا أصريت على أن أبدو على هذا القدر من اللامبالاة؟ لربما كنت متأثراً بخطابات الضيوف الآخرين المعتادة: الجنس الخالي من الروح يسيطر على كل ما حولنا، عدد كبير من الرجال والنساء يشعرون ظاهرياً بالرضى من واقع أن الجنس المزيف كما هو الجنس عندهم، صورة عن المجتمع والحياة. ثمة من لخص المؤتمر الأول لعلماء السكسولوجيا بهذه الكلمات: «إن الجنس المتوقع والمرهق والمتكرر يسحق اللذة».

ثمة آخرون رووا دعابات ساخرة عن السكسولوجيا، عن نظريات تقسم الشعرة قسمين بواسطة مبضع بارد، عن مواد تحليلية

تتطلب غوصاً عميقاً ومؤلماً أحياناً في التجارب الإنسانية ليتسنى لها نقل واقع الحياة: «إن تحليل الروح الشهوانية ينبغي أن يتم على جسدك نفسه وليس من وراء المكتب».

كنت أفكر بما قاله بو ليوتو أحد الكتّاب الفرنسيين المفضلين لدي، وهو من أبرز كتاب عصرنا هذا بالرغم من أنه غير معروف على نطاق واسع.

*

شاعر الحب الجسدي وهو كمثل بروست (الذي لم أشأ قراءته يوماً) شاعر وصاحب التواصل العشقي في المرحلة المعاصرة، كان مغايراً وفاتناً على الورقة المطبوعة وكذلك مع عشاقه غريبي الأطوار. ومما كتبه: «الوطن الأول الذي نسكنه هنا هو الحياة، والحياة موجودة في الرغبة التي تنفخ فيها الروح.

لا شيء يستحق التضحية بالحياة، لا شيء يثير النفور أكثر من إطفاء الرغبة. علينا أن نتعرف إلى ذلك العنكبوت الوحشي ونطرده بأي ثمن.

وهانذا الآن أقول لفلافيا: «هلا تسمحين أود البقاء وحدي». كانت ردة فعلها باردة فيها شيء من الإحترام والمرارة.

«هل أنت حزين؟»

«لا» كنت أكذب.

«هل بإمكاني أن أفعل شيئاً من أجلك؟»

«لا شيء».

من غير أن ألتفت ورائي أدركت أنها قد توارت ذليلة مجروحة، ورغم ذلك كنت أكن لها إعجاباً كبيراً.

رأيتها مرة أخرى بعد ظهر ذلك اليوم. كانت ممددة تحت أشعة الشمس بالقرب من حوض السباحة ومن غير أن يلاحظني أحد، رحت أراقب جسدها. كانت ترتدي سروالاً قصيراً لا غير وكلما كنت أحاول ضبط نفسي كانت رغباتي الشهوانية تتسلل إلى ذلك الشق الغامض في اليقين، ذلك الذي ندعوه سحراً. وبما أنه كان من المستحيل أن يراه أحد برفقتي، راح يتصرف بمفرده. وكمثل قط قفز من على حضن صاحبه النكد واتجه إلى حضن فلافيا يدلكها بكفه الناعم: ثدياها، بطنها، فخذاها حيث كان السروال القصير الأبيض يلمّح إلى مهبلها الظليل.

نهضت فلافيا فرحت أتأمل تلك المشية البطيئة التي أثارتني بتحفظها وأعادت إلي طقوس عوالم المرأة السرية. لم أتماسك عن ربطها ذهنياً بطقوس أخرى ضاعت في الزمن وكنت أحتفل بها أيضاً أفضل احتفال. سألتني رغبتي: «كيف يا ترى سوف تمارس معي الحب؟ بأي كلمات؟ هل سوف تختارني بعناية أم أنها لن تميز بيني وبين العشاق العرضيين». كان الرجال الآخرون يطاردونها، وهذا كان واضحاً أفكاري وتساؤلاتي نفسها. حلّ الليل. الليل الأخير. صعد كل الضيوف إلى الطوابق العليا. أنا أيضاً كنت في غرفتي. الغرفة المتاخمة لغرفتي إلى جهة اليمين كانت غرفة فلافيا. كانت توضب حقائبها استعداداً للرحيل. خرجت إلى الرواق وأغلقت بابها. أغلقته بعنف فأصدر ضجة مدوية. توقفت خطواتها قليلاً، وراء باب غرفتي. كنت أسمع تنفسها وهي تنتظر. توجهت إلى مقبض الباب، لماذا لا أزال متردداً؟ وتساءلت أكان هذا بدافع الهشاشة التي تجعل الرغبة تتلاشى من دون سبب على الإطلاق، أخشية على لحظة النعمة، التي من الصعب قبولها أن تختفي؟ لا. سلمت بالأمر. كان ذلك، فقط وكلياً، بدافع لذة الزهد المنحرفة.

سمعت وقع خطى فلافيا نزولاً على الدرج، وصوت محرك سيارتها منطلقة إلى روما.

عودة أيروس الزوجي

تركتها تتبعني... كان مضى عامان على رؤيتي زوجتي السابقة للمرة الأخيرة. لم أكن سمعت صوتها حتى عبر التلفون. والآن ها هي الخطوات التي ترجع صداها وسط الصمت المخيم على روما المقفرة كمثل قطرات مطر تتساقط على السطح. كمثل دقات قلب داخل جسد حرّم عليه الكلام. كانت هي. أدركت هذا بيقين مطلق. كنت سمعت هذه الخطوات ورائي فجأة في الليل، كمثل يد تطبق على حلقي في الظلام.

لم أكن لأخطىء التمييز بينها وبين غيرها. هذه الخطوات بقيت في قلبي، هذه الخطوات وحدها في تناغمها الذي بالكاد يمكن ملاحظته. وهي قد رافقت خطواتي لسنوات عديدة. كانت خطواتي تحاول التناغم مع خطواتها في الشوارع في أنحاء العالم كافة. بتحديد أكثر، كان كل منا يحاول ونحن نمشي معاً، أن يتوصل إلى تناغم واحد لا تناغمين كانا ملكنا منذ ذلك الوقت وإلى الأبد. انتهى كل شيء بتلك الطريقة التي تنتهي بها بعض العلاقات الزوجية من دون أن يعرف السبب بالتحديد. لأن الحياة هي كما هي، ليس إلا. كنت أعبر البيازا سان برناردو وأنا أفكر بموسى وسط النافورة، والتمثال تنسبه التقاليد إلى بروسبيرو دابريكيا. ويقال أن بروسبيرو أراد أن ينافس تمثال موسى الذي نحته مايكل أنجلو غير أنه قام بنحت التمثال بعد أن مدده على الأرض وبعدما انتهى منه، أنهضه واكتشف مذهولاً أنه أخطأ في تقدير كل المقاييس. هل يا ترى أنا أيضاً، بالطريقة نفسها نقشت كل حياتي،

نقشت زواجي؟ منقلب الوجه إلى تحت، منبطحاً... وحين جاء الوقت لتسديد الحساب، حاولت قدر المستطاع أن أدعمه وأسنده. قد تكون مارتا زوجتي السابقة، تراودها أفكار مماثلة هي الأخرى. في تلك الساعة كانت البيازا مقفرة. رحت أمشي وكان حذائي ينشر صوت وحدتي الطيع. كنت أسمع وقع خطواتها يتردد صداه ورائي. حين توقفت، توقف هو أيضاً. مع ذلك تابعت الإنطلاق ومن ثم التوقف بشكل طبيعي كما لو أنها لم تكن موجودة. لم أنظر إلى الوراء، لم أفكر حتى بالنظر إلى الوراء. وصلت إلى فيا دي سانتا بالبينا حيثما ـ ويا للغرابة قلت لنفسي ـ وبحسب ميرابيليا أوربيس تضرم نار الأمل، وكل البائسين والفقراء الذين يحدقون بها كانت تضع حداً لعذاباتهم على الفور.

إن روما بهذا المعنى هي مسيحية على نحو استثنائي، فهي لا تنفك توزع الحكايات الرمزية المماثلة حتى لا تنتهي الأسرار الصغيرة الإنسانية وتضيع في عالم العدم.

ها هي خطواتها مجدداً. راودتني فكرة: سوف اصطحب مارتا إلى المنزل. وقد تكون هي أيضاً فيما كانت تتبعني تشعر بالحنين نفسه. بعد أن كانت أدركت أني لن أتصرف بطريقة أو بأخرى، وأني لن أتصل بها. راحت مارتا تتذوق مثلي لذة غامضة في تعقبي خلسة، وقد شعرت أنا بذلك.

*

اجتاحتني فجأة عاطفة عذبة ومتوحشة في آن وعادت إلى ذاكرتي ليلة مشابهة في زمن غابر، في التاريخ نفسه، في كانون الأول من أحد الشتاءات الجليدية. هذه الليلة كنا نعيد المسار نفسه كما حين تهنا معاً في أول ليلة خرجنا فيها لتناول العشاء. بعدما

خرجنا من المطعم فوجئت بيدي على كتفها ولم أفهم لماذا جعلتني هذه الحركة السخيفة أشعر بسعادة كبيرة وأشعر أننا عشنا معاً رفقة عمر طويل: حتى أني تبينت أيضاً في إيقاع أنفاسها المعنى الأكثر حميمية لوجود ما قدّر له منذ تلك اللحظة أن يرافق قدري.

«أريد أن أمشي» قالت مارتا.

مشينا وبقينا صامتين، وراح وقع خطواتنا يتردد في ليل روما ونحن نسمع فيه تلاشي كلمات غير محكية في داخلنا، كلمات لم يكن مجدياً النطق بها عالياً.

كان ثمة في جمالها شيء مشرق وصباحي. إن الطبيعة تجود على بعض النساء بعناية خاصة حتى لنكاد في حالة من النعمة نعتقد أنها تعمّدت اختيار هذه المخلوقات وهذه الأشكال فقط لتبتكر لعبة حاذقة من المفاتن المتباينة. في مارتا كان ثمة حرية وعذوبة وكأنما تسيطران على وجودها. أحياناً كانت تفكر بأمر بعيداً عني فتنصرف عني بذهول مفاجىء سريع. من المهم جداً أن تدرك أنك تمسك بيد أحدهم وهو بحاجة لأن يمسك أحد بيده ومع ذلك، لا نزال نمشي الآن في الشوارع نفسها، وها نحن اليوم طيفان يهيمان في وحدتيهما المنعزلتين متباعدين ومسجونين في اللامحتمل، لنا ثقة بصوت خطواتنا ليس إلا.

في تلك الليلة الأولى كان رائعاً للغاية أن نمشي معاً في كل مكان، نضحك، نتوقف أمام المحلات المغلقة وراء ستائرها الجديدة ومارتا مبتهجة بالمجوهرات المعروضة غير آبهة لأن تقول شيئاً مهماً. ونحن نطلق نفسينا لنرتجل مرحاً صاخباً طفولياً. عادت يدانا لتصبح مرة أخرى يدي مراهقين: في رغبتهما بالاتصال بالطريقة التي أعادتنا فيها الحياة إلى بعضهما البعض.

فجأة بدأ الثلج يتساقط خفيفاً. تابعنا السير شارعاً بعد الآخر، ونحن نتنفس بعمق عطر الثلج الذي كان يجتاح المدينة المقفرة. كانت مارتا سعيدة كالطفل وهي تترك ندف الثلج المتقلبة تتساقط عليها. اتكأت إلى جدار ونظرت إلى الأعلى: لنذهب إلى منزلك ونمارس الحب. اقترحت هذا بسرور بسيط من غير أي خداع أو تلهف آلي كذلك الذي تقدم به النساء ذواتهن عادة.

... الآن أيضاً يتساقط الثلج خفيفاً فيما هي تتعقبني وأنا أدعها تفعل. كنت أنصت جيداً خشية أن تختفي خطواتها بين لحظة وأخرى. غير أن وقع خطواتها كان يستمر محافظاً على المسافة نفسها.

فهم كلانا أنه بمقدورنا الكلام من خلال خطواتنا، لنتبادل بهذه الطريقة كل الأسئلة وكل الأجوبة التي احتفظنا بها لمدة سنتين في داخلنا. لماذا حصل ذلك؟ سؤال طرحناه على أنفسنا مرات لا تحصى. للنهاية قوانينها الخاصة وأحياناً تكون هذه القوانين ملفوفة في الغموض. كانت أعصابك هي السبب يا «مارتا». ثورات الغضب التي كنت تفعلينها من دون سبب. عدم تفهمك...

«لا. أنت الذي لم تتفهمني أبداً...»

أطلت بخطواتي حتى نبطىء مشيتنا وكانت تلك طريقة لتغيير مجرى الحديث. «هل صنعت لنفسك حياة جديدة؟»

«وأنت؟»

«ها أنت تبدأ من جديد: هل عليك أن تجيب عن كل سؤال بسؤال مثله؟»

فقط حين تكون أسئلتك صادرة عن أنانيتك حين لا تفهم أن الآخرين لهم حقوق مثلك، أو أكثر منك، لأنك أحياناً تبدو

وكأنك ترغب في تحطيم كل ما تمسكه بين يديك حتى يتسنى لك البقاء وحدك مثل كلب شارد. أنظر إلى نفسك».

نظرت إلى نفسي في نافذة أحد المحلات.

«ماذا عنك يا مارتا، ألست وحيدة كالكلب. أنت مخطئة بشأني وهذا أنموذجي. بعض النساء لا يفهمن حين يكن لهن رجل ما حباً كبيراً فيلطخن بأزماته هو، وخوفه من القدر ومن أن يتخذ جسده كل تظليلات الروح... وهو لا يستطيع أن يترك كل هذا التشويش وهذه الفوضى لهذا لم تفهمي أنت».

«قد يكون هذا صحيحاً ربما بإمكاني أن أفهم ذلك الآن».

«إنما الآن فات الأوان. ألا تسمعين هذا الجرس في الليل. إنه يقرع لنا. يقول لنا إن الآوان فات».

«أسمعه. أجل».

«أود لو أنظر إلى الوراء يا مارتا. أود أن أرى أي آثار تركتها هذه السنوات على وجهك. أود أن أعرف أن وجهك أكثر استرخاء الآن ولم يعد يصيبك بالجنون لأتفه الأسباب». «إني أنظر إلى كتفيك، أحاول أن أقرأ عليهما حياتك الجديدة. هذا صعب للغاية. أصبح شعرك أكثر تباعداً».

وحده الليل الأجوف يمكنه أن يفهمنا تماماً، بنظرة محبة إلى حياتينا. وربما العكس. حياتانا ليلتان في حالة حب مع وحدتهما الخاصة.

دخلت من باب المبنى الذي كان منزلنا. تركته مفتوحاً. صعدت الدرج. توقفت عند منبسط درج الطابق الثاني أمام الباب، بابنا. بعد تردد دخلت خطوات مارتا من باب الطابق الأرضي.

شرع قلبي يخفق بشدة: «هل ستأتي إلي؟ هل سأسمعها تصعد الدرج؟» تقدمت إلى العتبة ضارباً بقدمي لأصدر ضجة مرتفعة في البناء الساكن.

وكأنما كانت تلك آخر الكلمات في حديثنا: «إنه بعد منتصف الليل يا مارتا. اليوم عيد ميلادي... لماذا توقفت؟ حتى ولو أنك لا ترغبين في أن تتمني لي عيد ميلاد سعيد، على الأقل قولي شيئاً».

لم يجبني سوى سكونها.

«هذه السنوات... تبدو كالكتلة الضخمة بالنسبة إلي. حتى هرّنا العجوز رحل. ما من شيء، ما من أحد ينتظرني وراء الباب. كل شيء ينتهي بالفعل، حتى الأشياء الخارجة عنا.

قد تكون خطواتنا هذه التي لن تتقدم أكثر من ذلك هي وداعنا الأخير». سمعت خطوات مارتا تعود بإتجاه «البورتون» وتختفي في الليل الذي أصبح أبيض بسبب الثلج. دخلت الشقة، لم أشعل النور، بقيت واقفاً في البياض الذي يظلل كل شيء. عادت إليّ كلمات: «لنذهب إلى منزلك ونمارس الحب» رأيت مجدداً حركات هذا الحب بكل تفاصيلها كما لو كنت أعيشها مرة أخرى.

نساء الميكانو

الميكانو هي لعبة أطفال مصنوعة من قطع معدنية يمكن أن تفك وبها يمكن بناء إنشاءات ميكانيكية مختلفة.

... كانت للأسطورة صورها الخاصة التي كانت تحولها إلى شياطين ووحوش: المينوطور، التنين، الخطاف، الكمير...

«ليست الوحوش أقل عدداً من المعجزات» كان بالزاك يردد. أما

بوفون فقد ذهب إلى تصنيفها مضيفاً: «إن الوحش هو تحذير بيولوجي يذكرنا أن الطبيعة حتى في هيئة الجنس، قادرة على إصدار قشعريرة في روحنا وفي رغباتنا».

نحن نعيش في زمن تخمة وتعويد بليد. التلفزيون على سبيل المثال، يمارس علينا نوعاً من تطهير الحواس (بمعنى «إزالتها) وذلك بجرعات تعطى لنا على الغداء والعشاء فيها كل الفظاعات الناشئة عن الأخبار اليومية وجرائم التاريخ. وبالنهاية، نحن نتغذى بالرعب ونجد كل وجوهه متشابهة فنعجز عن التمييز بين التفسير والرأي. وبالتالي فإن شناعات بيازال لوريتو كان لها المدلول ذاته لمذابح المافيا والعصابات. ومجازر البوسنة ورواندا تصبح موازية للورينا بوبيت الذي قطّع زوجته الشابة. إن واقع التعويد نفسه هو الرعب بحد ذاته. أصبح المشاهدون يختلسون النظر بلذة لا مبالية. لم يعد هناك شفقة أو نقمة بل مجرد حشرية منحرفة ومرضية وحسب.

لقد أكّد أرسطو أن الفظاعة ليست ضد الطبيعة إنما ضد ما يجب أن يحصل في الطبيعة. نساء الميكانو يمكن تجسيدهن ضمن هذه الإعتبارات. إنهن في وقت واحد ممثلات ومشاهدات ضجرات لأنفسهن. لسن دمى بوجوده مشرقة إنما رؤوس ألعاب. إنهن يقظات للحفاظ على المظاهر فيما يؤدين أدوارهن الإجتماعية البورجوازية ويتنقلن من رجل إلى آخر بسرية حذرة، ويمنحن أنفسهن لرجل مختلف كل يوم تقريباً. إن إزدواجية ضمير بعض النساء هي قصة قديمة: المرأة «المحترمة» للإستعمال اليومي، أما الآخر فمكرس للجماع الحقير ليس إلا. على أية حال لم يتكلم أحد علناً على هؤلاء الأتوماتيكيات باستثناء بعض الهمسات الغامضة في الطبقات الوسطى: «أنهن يقمن بذلك مع أي كان. يهبنه لأي

كان. وبما أن هؤلاء النساء يملكن مغنطيساً عباد يقضيبياً قاتم اللون حيث يجب أن يكون قلبهن، فإنهن ينجذبن إلى مفاتن الرجال الفجة: جمال جلف، شباب، مواهب حيوانية وجهل أيضاً، وبالتالي فإنهن ينجذبن بسهولة إلى المجاملات السطحية التي يفتعلها الرجال الذين يتباهون برجوليتهم المجنونة، والذين ليسوا أقل وحشية من النسوة أنفسهن بممارستهم جماعاً بليداً وغير مقصور على امرأة واحدة، وفي الغالب تدفعها نحوه تلميحات من صديقاتها ـ الميكانيكيات: «إنه رائع في السرير». وماذا لو كان إخفاقاً، فشلاً قضيبياً...؟

كاهنات محزنات لتوق الآخرين ولهفتهم البائسة، يتيمات الأيروس الدنيئات الذي يعاقبهن هو بالذات، فيتلهفن للتفتيش عن والد مستحيل داخل حدود «اللذة المحلية»، في بهلوانيات المضاجعة التي قد يتوصلن فيها إلى درجة الإحتراف بالمعنى التقني، إنما ليس بالمعنى الحسي (براعة ما كانت لتتفاخر بها عاهرة محترفة صادقة). هن يعتقدن أنهن يسيطرن على اللعبة ولا يفهمن أن هيئاتهن الميكانوية المفتتة الميتة لا تعني سوى العبودية المطلقة. إن الآلية التي تحركهن في الواقع، وهي غارقة في العقد والطموحات المخذلة، تعود أصلاً إلى فظاعات صغيرة في البربرية البدائية. وكمثل ممثلي الدرجة الثالثة المسرحيين الجوالين، يتدربون على أداء أدوار الإيماء: عليهن الإبقاء على الإنصهار مع أجساد ذكورية، وهي في الغالب أجساد غرباء، ويهبن أنفسهن لتلجهن قضبان هؤلاء الغرباء ويحتفلن معهم في السرير احتفالات تبقى رغم كونها في الغالب متلهفة، طقوساً وثنية جديرة بالإزدراء. إن مشاهد هذه المسرحية الإيمائية المعرضة لأكثر التجارب إذلالاً تتجلى كما يطلق المسدس المأجور طلقاته المروعة: تبادل خلع الثياب، قبلات مغتصبة في

البداية، قضيب يتوجب إرضاؤه بالأصابع أو بالفم. للنساء الميكانويات عدّاد هو بمثابة العضو الرائع الذي لا تتدفق منه أي قوى مغنيطيسية إيروتيكية. اقتحام. ثم يسأل الرجل ببلاهة: «هل آلمتك؟»

الجماع في هذه الحالات مدعاة للنفور. لهو أمر مثير للإزعاج أن نتخيل أجساد هؤلاء النساء، وسرعة عطبهن المسحوقة أمام النشاط الذكوري التشريحي. هؤلاء النساء وركبهن مغروسة على السرير، ورؤوسهن ممدودة إلى الأمام كما لو كن بانتظار أن تقطع. وقد يسأل المرء كيف يتوصلن إلى امتصاص كل هذا وعند أي درجة من التمدد، ولا أتكلم هنا على ثقوبهن إنما على ضمائرهن. كيف يستطعن تحمل هذه الأثقال الهائلة من دون أن يتحطمن ويتحولن إلى فتات صغيرة.

ومن ثم، من وقت لآخر إيواء المني الدخيل على كل عقائد الحب.

الإمتلاء به ومن ثم النهوض والذهاب إلى الحمام لتنظف كل شيء ما عدا كرامتها، وتعود لتستلقي على شراشف تحمل بقع وآثار عمل شائن فظيع أصبح ملموساً. تغتسل مرة أخرى وتنشف جسدها وهي لا تزال تأمل بهزة جماع مستحيلة، ومن ثم الإستراحات حيث يدخنان سيكارة ويتبادلان كلمات فارغة وسخيفة ومن ثم البدء من جديد. البرنامج والآلة ثم تشغيلهما «هكذا. أنحني».

حماقة الذكر الذي يحسب أنه قد نجح في امتحان ما: «هل أعجبك هذا؟ هل كان جيداً؟»

وجوابها المعتاد الملفق، الماكر والمرهق من كل خبث نساء الميكانو: «الأفضل».

أهو الشبق المزمن والجوع الدائم لليبيدو؟ لا.

إنهن منجرفات فحسب تقودهن وحدة مرضية وعطش لإثبات أمر لا يمكن إشباعه في مكان آخر، وأيضاً تقودهن غطرسة أنثوية كبيرة.

لو تستجوبهن سراً، تدرك أنهن يخفين خسارة عميقة ومرتبكة يجهلن أسبابها، وإشمئزازاً يبدينه إزاء أنفسهن ولا يعترفن به إطلاقاً. إنهن يقدمن تبريرات مرتبكة ومبهمة وحتى لو أن ثمة حقيقة في ما يقلنه فإنهن يبحثن عن إمتلاء اللذة، وهذا أمر يصعب إيجاده: الرجل المناسب. والأكثر شعوراً بالمرارة منهن قد يقمن باعتراف ما: «أنا كل ما لم أرغب في أن أكونه يوماً. والأكثر إذلالاً أني قد تخيلت الكثير من نفسي ووهبتها لمتعة الآخرين».

إن علاتهن هذه الصادرة عن عجزهن أمام أيروس لا يمكن أن تشفى إلا بواسطة حب صادق. الوحشية هي الحنين، مريعة ومترجمة إلى رعب، إلى شيء غير معروف، شيء هائل ومأسوي، وهو على الأرجح قد ملأ بقواه جذور حياة الفرد.

إنه ذلك الحنين إلى عدم المعرفة الذي يقود إلى المضاجعة التي تصبح قابلة للتبادل، كما الأهوال التي يحملها إلينا عالم الصور كل يوم. وكل ما يتبقى هو إحصاء لعدد القضبان المستهلكة.

أيروس المتفاني

هذه قصة تناقلتها منطقة بارما لسنوات عدة. قصة غامضة ملتبسة. لويزا كانال كانت تزوجت من غابرييل باريلي. لقد اختارت غابرييل وليس غيدو كارا الذي قبل قرارها برفضه بتصرف يتناقض مع أي منطق على الإطلاق. بلطف، عمد إلى سد الطريق بوجه ذكرياته وأحاسيسه كما تتوقف الساعة، وتكون عقاربها مشيرة إلى آخر ساعات السعادة، حيث يكون المرء مدركاً أنه من غير الجدوى أن يتقدم أكثر في ساعات ودقائق المستقبل، لأن المستقبل لم يعد فيه وقت له، لقد انتهى وهذا يحدث. يمكن للموت أن يطرأ، غير أنه من الممكن ألا يكون موتاً جسدياً: الجسد وحده يستمر في الحياة.

غيدو، مثل لويزا، كان اتخذ قراراً هو الآخر.

غير أنه لن يكون بعيداً عن المرأة التي أحب. فهو اليوم يعيش في المنزل المقابل لذلك الذي سوف تسكن فيه مع غابرييل بعد زواجهما. لا يفصل بينهما سوى حديقة صغيرة. وهكذا فإن لويزا وغابرييل سوف يكون لهما باستمرار شاهد متحفظ صامت، وهو

من جهته يبدو لأنه في إمكانهما رؤيته في أي لحظة تماماً كما يراقب هو حياتهما الزوجية.

لم يكن يفوّت عليه شيئاً: من حبهما، من إنجابهما الأطفال، من الخيبات والآمال. وبالمقابل لن يهدر شيئاً من نفسه في سبيلهما: من الخيبات والآمال. لن يحب مرة أخرى، لن ينجب الأطفال، لن تكون له آمال ولكنه لن يعرف الخيبة أيضاً. كان مسروراً بكونه يشبه اللبلاب المعترش على الجدران، أو زهرة جيرانيوم متفتحة، أو زخة مطر غزير: كل الأشياء الصغيرة التافهة التي تصبح بمرور الزمن، جزءاً ضرورياً من الحياة اليومية.

وذات ليلة قام غابرييل بإيقاظ لويزا. رأته يقف قرب السرير فسألته بلهفة: «هل قام بعمل مجنون؟» ابتسم لها غابرييل وأجاب: «إنه بصدد القيام به. غير أنه مجرد جنون. جنون جميل. لاشيء يدعو للقلق». إتجها صوب النافذة وشرعا في مراقبته.

كان غيدو منحنياً إلى أرض الحديقة حيث قام ببناء حواجز قصبية ليحمي بعض النباتات من الشمس والمطر. كان جميع سكان المدينة يشيدون بمواهبه كبستاني يعرف كل طقوس الزراعة وكل طقوس الشمس. كانوا يرون من بعيد رأسه الحليق، وكان حلقه بعد أن تركته لويزا لتتزوج من رجل آخر، وقد لف حوله وشاحاً من الصوف. سألت لويزا «ولكن ما تراه يفعل؟» «إنه ينقّب الأرض» أجاب غابرييل. «ولكن هذا مستحيل، إنه منتصف الليل»... كانت نبرة صوت لويزا حزينة.

«لا، أقول لك إنه ينقّب أرض الحديقة، ألا ترينه؟ لقد خرج منذ ساعة وبدأ بقطع الأغصان الميتة في نبتة الورد». «ولكن لم؟»

«الله وحده يعلم. لكن غيدو وحده يعرف أسرار الفصول».

كانا ينظران إلى السماء وحسبا أن إشعاعة الفجر الأولى تنبىء بطقس جميل. استمر غيدو في العمل وتمكنت ليزا من تبين وميض المعول. ومن خلال الوميض الذي يعلو ويهبط على كتل التراب، كان بإمكانها التكهن أنه يتحرك بإيقاع سعيد. خيل إليها أنها ترى الرجل يلوح بيديه كما لو كان يرسل إشارة تحذيرية لإشباع الهواء التي تعرف بالتأكيد أن الأعشاب الضارة المسماة ماري لويزا، وزهرات البنفسج التي كانت تعشقها الدوقة نفسها، زهرات البنفسج التي لا يزال سكان بارما يحملونها إلى قبرها في مدفن الكبوشيين، إنما ولدت بأريجها من أرض التربة التي أزيح عنها مخبأ الصقيع. كان غابرييل ولويزا يختبئان حين يقترب غيدو ثم يعودان ليظهرا وراء النافذة حين يبتعد إلى الجهة الأخرى. وبنظراتهما كانا يتساءلان عما يمكنه أن يحفر في الحديقة بهذه الحيوية عند بزوغ الفجر.

من وراء شجرة الصفصاف سمعا صفيراً.

«هل هو الذي يقوم بهذا؟» همست لويزا.

أنصت غابريل: «يبدو وكأنه زقزقة العصافير».

لكنه كان غيدو بالفعل. عاد إلى الظهور وشفتاه تتحركان، وتصفران كما العصافير، ثم ترك المعول معلقاً في أحد الجذور. ركع وراح برقة متناهية ينتزع بصلة نبات بحجم البيضة. تنشق عطرها كما لو كانت كنزاً إكتشفه للتو. ثم حملها بقبضة يديه ورفعها عالياً. توجه ليجلس على مقعد وهو يسوّي معطفه. أتى كلبه واقحم أنفه بين ركبتي غيدو فيما هو يحدق بالغيوم الكثيفة وبأول ضوء جليدي. سقط الضوء على البصلة فأضاءها.

*

«أنظري. إن الثلج يتساقط». صرخ غابرييل.

راحت الرياح تفتل تساقط ندف الثلج في أنحاء بارما، على نوافذ الواجهات المحيطة وأغصان الشجر الباسقة؛ ولكن هناك تحت حائط الحديقة، لم تتمكن الرياح من المرور، واستمر الثلج يتساقط برقة وحذر على غيدو والكلب، صديقه الوحيد. تركه غيدو يتساقط عليه من دون أن يقوم بأي حركة مبتسماً للكلب ولنفسه، ولكن بدرجة أولى مبتسماً إلى البصلة التي رفعها عالياً مجدداً فبدت شاحبة باردة راح الضوء يسترسل في مداعبتها ويرسل إليها ببطء إشعاعات ذهبية.

«فلنتركه وحده. إنه سعيد».

وبالفعل كان كذلك. كان سعيداً لأنه كان يُري لويزا وغابرييل قلبه كما لو أنه أخرجه من قفص ضلوعه ووضعه في قلب البصلة التي تطلق من وقت لآخر إشعاعاً ذهبياً. قلب إنسان تجمد لكنه لا يزال يعرف كيف يستجيب بهالة رقيقة من السحر، لرحمة سماء الشتاء الواسعة. إدرك لويزا وغابرييل أن غيدو كان يحمل قلبه في قبضة يديه، لكنهما لم ينطقا بكلمة واحدة. وإلى قلبهما تسلل أيضاً ألم حاد بارد كالثلج.

أغلق غابرييل مصاريع النوافذ الداخلية ليحمي رقة لويزا وتواضعها وقد اقتربت منه وضمته بين ذراعيها، فصار وجهاهما وكأنما جاهزين للإستسلام معاً إلى نوم عميق واحد. وكان غيدو يتخيل هذه اللحظة لأنه لم يتركهما أبداً حتى ولو أنه لم يرفع رأسه ليتأكد ما إذا كان غابرييل ولويزا وراء النافذة.

«هل ستعودين إلى السرير؟» سأل غابرييل.

عبرت لويزا الغرفة وتمددت بجانبه. توحدا في الحب وخيل

لغابرييل أنه يمارس الحب نيابة عن غيدو أيضاً. كما لو أن حرارة دمائه كان بإمكانها بث الدفء في البصلة المتجمدة التي يشعر بوجودها داخل صدره. إستسلما لنوم عميق وهما على يقين بأنهم لن يفترقوا أبداً هم الثلاثة، وبهذا اليقين تشبث كل منهما بيدي الآخر. قبل أن يغفو، أطرق غابرييل مفكراً: «لم نرزق بأطفال بعد. ولكن حتى لو لم نرزق أبداً بهم»...

وكان غيدو في الحديقة تحت، جالساً بدون حراك قد شعر بهذه الفكرة هو أيضاً.

أيروس واللعب

أحياناً كان يعود الطفل أيروس في الأساطير القديمة ليلعب مع ر. ومعي.

أيروس المعصوب العينين بجناحيه الشفافين طفلاً كان يعشق اللعب، وفقط أثناء اللعب كان يزيح عصبة عينيه. تبدأ ألعابنا بعد سلسلة من الأفعال الجنسية التي قد تكون مرهقة ولكنها لم تكن لتطفىء رغبتنا المتبادلة في أن يستمر واحدنا في امتلاك الآخر. كيف؟ من خلال اللعب طبعاً. يجد جسدانا طرقاً عديدة للتعانق، للتمازج؛ نطلق أسماء جديدة على الحركات والمداعبات وذلك برقة ساذجة لا يعرفها سوى الأطفال. لقد ساعدنا أيروس كي نبقى أحياء بالعمق. يا للفرحة بأن يعود إلينا الآن بمعرفته المبدعة لألعاب الأطفال التي من خلالها تذوقنا حقيقة الحياة، التماثلات الأولى بين الحلم والحقيقة...

لمن المستحيل أن نشرح للبلهاء القضيبيين ما نقتضيه اللذات الكبرى. قد يعتقدون أننا مجانين. إن إيلاجهم لهو بليد خال من أي حس بالخيال أو باللعب. لا. من غير المجدي أن نحاول شرح

هذا لهم. إذاً فلتبقَ الكلمات كما هي، كمثل العلبة الغامضة التي يتلقاها الممثل ولا يمكن للمشاهد أن يرى ما بداخلها كما حدث في اللحظات الأخيرة من فيلم بونويل «جميلة النهار». حين أشرقت سيفيرين بالبهجة وكانت تؤدي الدور كاترين دونوف.

حتى الإسم الذي أطلقه على ر. دونينو يصبح جزءاً... من لعبتنا، وهو نقيض العنف الذي يقتل أيروس.

بالطبع يجب أن تمتلك المرأة في اللعبة، كما ر. ذكاء حسياً يتجاوز القلق الخفي من الأداء الجنسي المتوقع، وهو ما يزيد من جمال أيروس كما المروج والسماء تزين تحليق طائرة ورقية. ر. وأنا طيّرنا طائرتنا الورقية معاً. ولغة الرموز في اللعبة باتت ملكنا وحدنا. ينمو في داخلنا عرفان بالجميل إزاء من يمنحنا هذا الإمتياز: بأن يفهم واحدنا الآخر ونتشابه جنسياً حتى في الظلال الأكثر زوالاً.

يعود المرء في هذا السياق إلى مفهوم الموسيقى. إن مرح أيروس هو «الطباق» الذي يجعل الموسيقى تصل إلى ذروتها وهو ما يفسره عازفو الأوركسترا بالمساندة المتبادلة للنوطات السرية. هذه النوطات السرية الخفيفة المرحة تثبت في قلب الذاكرة أكثر من الكونشيرتو الرائع في فعل الحب نفسه.

ثم نستغرق أنا و.ر. في نوم عميق بعد أن نرتّب جسدينا في وضع رائع كما وصفت آنفاً. وندرك أن رجلاً يمكن أن يعانق امرأة حول خصرها فيؤاسيها ويؤاسي نفسه أيضاً فينسيان ذكريات غابرة كانا فيها وحيدين، يعانق كل منهما نفسه في سرير لا رفيق فيه، أو فيه الرفيق غير المناسب، ويتخيل أن إنساناً غير مرئي يشاركه وحدته. شريك وحضور كامل.

حين نتعانق بهذه الطريقة بمقدورنا أن نتحمل الرحلة الطويلة

نحو الأبدية المجهولة. نحو السر. ننام ونحن نتنفس على إيقاع واحد، ونرى في القالب الأحلام نفسها. في الصباح نستيقظ آسفين. نوم أيروس الطفل الذي يتلاشى مع أول شعاع شمس ينساب من أحد شقوق المصاريع كما تطير فراشة بعيداً.

حوار مقتضب

«إن الوفاء في الحب أمر رائع».

«إنه لغة جديدة تعلمناها معاً. أحب أن أتكلمها معك».

«كانت أصلاً في داخلنا، في الظلام صامتة عصية على الوصف».

حين نتكلمها، نظهر إمتناناً واحتراماً لحياتنا التي تسببنا لها مراراً بالأذية نتيجة أخطائنا».

ضوء الشتاء أزرق وبنفسجي. إنه جزء من الصفاء الذي به نفترق لنمضي نهارنا كل على حدة مدركين أننا أوفياء لبعضنا البعض.

*

الوفاء مختلف عن الإخلاص. إنه موجود بدافع القناعة وليس الواجب. إنه من أثمن خصائص الحياة. رويت در. كيف أن الوفاء يقي من الكوارث الصغيرة، وكيف أن الكوارث الصغيرة في العلاقة تشبه سمكة الحفش التي يقذفها البو عالياً خلال الفيضان، فتروح ترسم قوساً طويلاً في السماء قبل أن تسقط أمامنا كالنيزك بين المنازل شبه المتداعية. راحت تضرب ذيلها ضربة عنيفة أخيرة وترتطم بشجرة فتيّة ومن ثم تتمدد من دون حراك. كانت تزن أكثر من مئة كيلغ، وكانت من أجمل سمكات الحفش التي يمكن

للمرء أن يراها، غير أنها كانت مغطاة من رأسها حتى ذنبها بطبقة من الوحل التي سرعان ما أصبحت قاسية كالحجر، كما لو أن الفيضان لم يترك على جانبها جرحاً مروعاً. رحت أحدّق في سمكة الحفش وأنا أشعر بحزن عميق جعلني عاجزاً عن الكلام، ورحت أتلمس حراشفه برؤوس أصابعي برقة متناهية.

«إن الوفاء ينقذنا من هذا» أشرت در. إنه يحمي الحب من أسوأ النهايات، من ميتة الحفش.

لحن منفرد ليد واحدة

شهوة متوحدة كئيبة. هنا في بارما يطلقون عليها عبارة «لحن منفرد لأجل يدك الراغبة».

يمكن أن يبدأ هذا بإثارة لطيفة حين ترى فجأة وللحظة واحدة، فتاة عارية وراء النافذة في المنزل المقابل. ترتدي بنطالها بحركة سريعة يمكنك أن ترى فيها عادات حياتها بأكملها، لتختفي بعد ذلك ويبدأ كل شيء كما يحدث للعاشق المجنون الذي يهيم مصفراً بين الدلتا والبحر، ليحلم بلون الأرتيميزيا الأزرق الشاحب، بتفتح زهرات شجرة الويبرنوم، بأسراب طيور الماء ذات اللحم المر، ثم فجأة يظهر السراب، وميض مالك الحزين الأحمر في السماء البنفسجية اللون. أو أنك تكون هناك جالساً بين المتسكعين في البار الأزرق. مستلقاً كرسياً من القصب، محدقاً في أسراب الدواري وأنت تنتظر غياب الشمس وتتذوقه كما ثمرة مشمش يانعة تذوب في فمك على مهل.

*

إنهم يجلسون في الخارج ويشعرون براحة كبيرة، يخالجهم توق

سري للنساء كما لو كانوا كلهم تحت غطاء واحد ـ هكذا يقولون ـ وفي الجو يمكنك أن تشعر بالمرأة التي لن تأتي بعد اليوم، والتي لن تأمل أبداً في أن تحظى بها، بحدس النهاية. لهذا السبب تراهم يتكلمون بتبجح وكلمات مجنونة مثل كلمات الأطفال، ولهذه الأسباب المفعمة بالجمال والرقة تراهم يسترسلون في الثرثرة واللغو. ويمكن لأحدهم أن يقول فجأة: «أو تعرفون أني أتكلم هكذا مع الله أيضاً كما لو أني أضع لساني في فم امرأة».

وفي هذه اللحظة الإستثنائية تمر فتاة، فتاة توحي بفكرة العودة إلى المنزل، إلى السعادة فيما تحرك وركيها الرائعين وتحسب خطواتها ببراعة ومكر. مشية امرأة من بارما لأجلهم فقط، فقط لأجل متبطلي البار الأزرق. يروي عن ستندال قوله:

«إذا ما سألني أجنبي عن وجه بارما، فإني لأقول له إنه النعمة بحد ذاتها. إنه وجه من وجوه نساء هذه المدينة، وجهها ومشيتها. إن المدينة قد خلقت من أجلها...» يقف المتسكعون وهم ينفضون كسلهم بحركة من أذرعهم ويحاولون التأنق قبل أن ينطلق كل منهم في سبيله. في أعقاب هذه المشية المتمايلة. وتصبح الكراسي القصبية مهجورة.

*

ثم تنفجر الشهوة في داخلك كما عاصفة صيفية في هذه الأنحاء حين تشاهد قطرات المطر الضخمة الأولى، وهي تطبع نفسها بغضب على تراب الفناء وترن كالعملة المعدنية. واحدة من هذه العواصف قادمة، من النوع الذي يمزق ستائر السماء وترفع بطيران أسراب السنونو إلى الغيوم وثمة حشد صاخب من الناس المندفعين للإختباء تحت القناطر.

تفوح رائحة من التراب المبلل بالمطر وتبرق السماء حتى لتكاد أنفاسك تنقطع وتشعر بالدوران. ومن ثم تتذكر الروائح التي شكلت جزءاً من طفولتك. في الحقول يرفع الفلاحون مذاريهم المليئة بالقش ويبقونها فوق رؤوسهم لتقيهم من المطر.

على أية حال، هكذا تحترق الشهوة وتشتعل في داخلك، فتحملها معك إلى المنزل وتستلقي معها على السرير حيث تمارس الحب مع نفسك. نكهة كثيفة إستثنائية، كما لو أن روحك هي التي تهبها مُرة وحلوة في آن، وتصبح ملموسة جسدية: تندس بنفسها إلى هناك في الأسفل وتحتفظ لنفسها بإشراقة خاصة. إنها ليست مجرد استمناء بسيط. إنها أكثر من ذلك: إن الأمر شبيه بمن يروي لنفسه قصة أيروتيكية نقية، قصة خرافية أسبانية يتحول فيها ثُقل اللحم بنفسه إلى إشعاع.

أعتقد أن الشيء نفسه يحصل لأمرأة تمارس في ظروف مماثلة الحب وحدها في السرير.

تتلمس جسدك، تقود حركاتك قوة حادة ومرهفة كما لو كانت أصابعك تطوف على مفاتيح اللذة، بتوق جامح للعودة إلى نفسك، وفي الوقت عينه بتوق لمكان آخر غير معروف. تجد نفسك مجدداً صبياً صغيراً، أو فتاة صغيرة بخيالات شهوانية بسيطة تتلاحق كما حين لم يكن العالم قد قام بأي شيء من أجلك.

تتفتح الأفكار والصور غزيرة كما تفتح الأزهار، يبث فيك الدفء مثل جمرات تنطفيء وتبث أريجها من المدفأة... هناك، من خلال هذه الصور تبتكر مضاجعات رائعة وألعاباً غزلية تشبه موسيقى مبهجة، وتتذكر أن أول لعبة حب في حياتك كانت تفوح منها رائحة الغسيل النظيف.

من الذي توده أن يكون معك هناك في السرير؟

الجميع ولا أحد.

تعود لتدخل بصدق إلى أعماق نفسك. الحركات التي تكررها تتخذ أشكالاً غامضة. كما لو أننا نتكلم إلى صدق عضونا الكبير لنستأنف حواراً قطعه تدخل الآخرين. في هذه الحركات، حين تداعب نفسك وتكتشف من جديد تلك الأمكنة التي لا يمكن لأي غريب أن يكتشفها. كمن يقطع بطيخة إلى قسمين ليرى مدى نضوجها ومدى إحمرار لونها، يترأس أيروس بروعة استثنائية لأنه مطمئن لرفقتك، برفقتك وحدك، إنه صديقك الأعز ولست بحاجة لأحد غيره، كما لو أنه جالس إلى حافة سريرك ويبتسم لك إبتسامة الرفقة كما يقال في بلدتي. أيروس طبقة الصوت الرائعة في هذا اللحن الثنائي لصوت واحد. إنه أيروس كما لو كان المتكلم من بطنه: إنه يتكلم إليك ولكنك أنت الذي تعيره صوتك.

تشعر به في رؤوس أصابعك، كما أوتار الكمان وفي غنائك المنفرد ترن آلاف الألحان الثنائية:

تتجسد في خيالاتك الوحشية. تدرك أن أيروس يعيش بالرغم من الحب الذي تمارسه مع الآخرين، بل إنه يحترم هذا الحب أيضاً. أيروس، روحي التي تبلغ كل ما هو مرغوب فيه... وفيما يرشدك هذا الصديق ترغب في نفسك، ترغب فيها بتوق وأنت مضطر لأن ترغب في نفسك بسرور ـ يا للمعجزة المشرقة ـ إلى أن ينهكك هذا لإرهاق الذي تعاني منه الحياة نفسها، وحين لا تعود الحياة ترغب في نفسها (وهنا لا يهم إذا ما كنت ترغب في الحياة أم لا) عندها فقط تكون النهاية...

تقفز هرتي جينا إلى السرير، وتتكور على معدتي برغبة منها في أن تصبح بطني المكسو بالفراء.

أدرت رأسي وتراءى لي أن زهرات الجيرانيوم المتمايلة وحدها على الشرفة، وقد ثملت هي أيضاً من اللذة السماوية التي تلفّها: إن ثمة لكل الأشياء الحية أيروس متكلماً من بطنه.

إيروس التذكر المفاجيء

ماركو يمارس الحب بصفاء وسكون مع فتاة صديقة مطاوعة؛ صديق آخر ينظر إليهما مسروراً بسعادتهما الصامتة ومعه صديقته أيضاً. ولكن آنذاك، في هذا السكون الظاهر تلح الحاجة لترتيب الأمور، الحاجة لأجساد تتحرك بتناغم أكبر مع رغباتها العميقة كالمعرفة: توق للصمت، لليلة ساكنة حيث يستحيل أن نشتم عبير شجرات الزيزفون من خلال النوافذ المفتوحة، حيث للصمت كما للبحر خلفية بعيدة من الألحان السعيدة.

فجأة ينسحب ماركو؛ كما لو أن وميض البرق قد انفجر فجأة من صفاء جسديهما الذائل. ينسحب من شريكته تاركاً ليس جسدها فحسب، إنما أيضاً التواطؤ المفترض أن يجمعه مع عشاق آخرين.

تكوّر على نفسه في زاوية من السرير كمثل كلب مجروح على حافة الطريق؛ لم يحرك ساكناً كما لو أنه لم يعد يرى الأجساد ولا الغرفة.

يحدق ماركو في الظلام. ماركو هو نفسه الظلام. ينظر إليه الآخرون بشيء من الخوف.

الآن خرج الأصدقاء يمشون معاً في الليل. أصدقاء أوفياء وأجسادهم تستنشق هذه الصداقة وقد طهرتها الذكرى المفاجئة التي استحوذت على ماركو. نسوا جميعاً الحركات التي جمعتهم قبل قليل وكانت من غير طائل، أو أنهم يدركون أنهم أساءوا فهم أمر ما؛ خجل لم يكن سوى عزلة منحرفة. فهم الأصدقاء أنه حتى الصفاء يمكن أن يساء فهمه. إن علة تستحوذ علينا يمكن أن تتحول إلى سكون هو نقيضها بالذات. رفع ماركو وإحدى الشابات رأسيهما إلى الأعلى وراحا ينظران إلى إحدى النجمات. ربما يفكران بأن ما يشاهدانه فوق هو الله في أية حال.

على طاولة مأدبة الطعام الحمراء في ضوء القمر بواكير ثمرات البطيخ. يروح الأصدقاء ذهاباً وإياباً يغطسون وجوههم في الشرائح الحمراء وماركو تروعه الدموع في عينيه: من التي سوف تحبه حقاً في مستقبل يفترض أن يكون قريباً جداً؟ وهل سيجد حقاً من ترغب وتعرف كيف تحبه حقاً بقلب نقي، ومن دون أن تكون ضحية الجنس الذي لا ينتمي إلى مكان غير هذا هنا في أرضه القاحلة؟ ما تذكره ماركو: فجأة رأى والدته في وقت ما من الليل، بعد جدال عنيف مع والده بشأن مالو التي اكتشفت أنها عشيقته وعانت بسبب هذا من أسى وكرب عظيمين: كانت أمه تئن مرددة: مالو، مالو، مالو، في لازمة استحواذية وهي متكئة إلى المرآة البيضاوية الشكل بجانب السرير وحيدة، عارية، منحنية على نفسها... تهيأ للولد الصغير ماركو وهو يراقبها من على الباب، راحت تصفر وتتقلص بفعل الألم الذي يستحوذ عليها. وها هي الآن شرعت تقوم بشيء ما بأصابعها ما بين فخذيها. حركة راحت تتسارع أكثر فأكثر يرافقها لحن نواح فيه غيظ وتجديف لكي تنسى مالو، وتستحضرها أيضاً بتعجّل مثل نشيج يائس فيما تنظر إلى

حركاتها في المرآة كما لو أن النظر إليها يخفف من جنونها بعد أن تكون قد استدعت عينيها لتكونا شاهدتين (كما يجبر الشاهد الطفل ماركو نفسه على عدم الهروب).

راحت أمه تقحم أصابعها أكثر فأكثر إلى الداخل، وراح رأسها يميل إلى الأمام وإلى الوراء وكأنما كانت ترغب في إنكار شيء ما إلى أن انتهى يأسها في رعشة، ثم وقعت على ركبتيها تحت الصورة المقدسة على الحائط، رسم للسيدة العذراء والطفل: «اللعنة على الجنس» صاحت وهي تبكي «اللعنة على الحب». إتكأت إلى أسفل الحائط كما لو كانت ميتة، واقترب ماركو وجثم بجانبها وضمها إليه وراح يملس شعرها ويرجوها «هيا يا أمي». استدارت أمه نحوه وحدّقت فيه بعينين زجاجيتين لم تكونا تريانه هو إنما والده، الزوج الخائن الذي منذ أن وقع في حب مالو لم يضمها مرة بين ذراعيه بهذه الطريقة.

همست قائلة: «أنا أحبك. مازلت أحبك».

أدرك ماركو أن هذه الكلمات لم تكن موجهة إليه، فهو لم يكن موجوداً أمام إعلان الحب هذا، كانت الكلمات موجهة إلى والده. ولذا فإنه أخذ مكان والده وشعر بأنه أصبح رجلاً خائناً وغير محبوب... ضم والدته أكثر فأكثر وقبّلها على فمها. لم تكن قبلة إبن لوالدته إنما قبلة عاشق فيما ماركو يتساءل كيف يكون تقبيل الرجال ثم قال: «أنا أحبك أيضاً وقد انتهت قصتي مع مالو يا أمي. أنا هنا. من أجلك أنت فقط. راح يلامس جسد والدته برقة ثم مجدداً حاول أن يتخيل كيف يقوم رجل بالغ بمداعبة جسد امرأة. صور، تكهنات عبرت في داخله. برقة مرهفة راح يتلمس المكان من حيث ولد وبدا له طبيعياً أن يقوم بهذا بالنعمة ذاتها التي بعثتها

والدته في دمائه حين ولدته: أعظم الهبات التي قدمتها له على الأطلاق.

لاحظ كلاهما أمراً واحداً في اللحظة نفسها. من الصورة فوقهما، صورة مريم العذراء والطفل سقط عليهما وكأنما نور النقاء ولفهما في عناقهما. تلك القوة كانا بحاجة إليها ليعود كل منهما إلى دوره المعتاد فيما يتذكران بصفاء وسكون الأسف والنوم ولكن أيضاً كرامة الوجود. ما أرجىء التفكير به كان مركزاً في انحلال رقيق لكل الغرائز التي تجعلنا نتواصل بانسجام مع الذين يشبهوننا.

من مفكرة الأيام العابرة

أيروس والبنفسجي.

أنا أقرأ في الوقت، بشعور بالوقت يستحوذ علينا فجأة الرغبة في أن يبحث أحد عنا، تماماً كما يسعى المرء وراء آثار حب ضائع، في أمكنة راقبتنا ونحن نحيا حتى ولو لفترات قصيرة. أفكر بما قاله بروست: «بارما إحدى أكثر المدن التي رغبت في زيارتها بعد قراءتي «منزل البراءة» بدا لي أسمها مكتنزاً، ناعماً، بنفسجي اللون، عذباً...» هناك يعيش أيروس الذي لا حاجة له للاتصال الجسدي منتشراً كالضوء، في انتظار أن يتم تنشقه كما النسيم، أن يُنظر إليه كما إشعاع من ضوء الشمس.

إنه يتم تنشقه والتأمل به في بعض الأمكنة، إنه ينتمي إلى هذه الأمكنة: بعض الساحات نصف المضاءة والنصف الآخر في الظل، بعض جوانب الطرقات. أوضح من القناطر في صباح مشرق من شهر نيسان.

أنا أطلق عليه إسم «أيروس البنفسجي اللون».

ثمة من لا أعرفه بدأ يدخل إلى منزلي. فتاة على ما أعتقد. لا أعرف في الحقيقة من هي . كان من السهل لأي كان أن يحصل على نسخة عن مفاتيحي. إن الدخيل يظهر قدراً كبيراً من الذكاء في تسلله إلى هذه الغرف أثناء غيابي. من الواضح أنها تراقبني. أنا لا أقوم بأي حركة لأكتشف هويتها. إذا ما كانت هذه لعبة بالنسبة إليها فهي كذلك بالنسبة إليّ أنا أيضاً. يعجبني هذا:

السر الصغير الكامن في زياراتها حين أكون غائباً والأساليب التي تبتكرها لإحياء غيابي.

إنها تترك لي عرضاً ملاحظات تدعها على الآثاث مكتوبة بخط متنكر حتى لا أتمكن من التعرف إليه. إقرأ: «فلنمارس الحب هذه الليلة».

غير أنها لا تأتي. ولم أعد أصدق أنها سوف تحافظ على المواعيد التي تعطيها. أعرف أنها لن تأتي. هنا وهناك كانت تترك لي هدايا غريبة، تعلقها على جدار المكتب مثلاً كتلك الصورة الكبيرة التي تظهر فيها قبة معبد بيضاء، امتداد مرج وجدران الكاتماندو، أو تتركها على كرسي بذراعين كتلك القبعة المستديرة السوداء وعصاها السحرية.

إستيلاؤها على المنزل يتزايد يوماً بعد يوم. افتح خزانة فأجد بين بذاتي فستان سهرتها الأنيق، أو أفتح درجاً وأجد قمصاناً قطنية صيفية زاهية الألوان عليها رسومات وشعارات غريبة بلغات مختلفة: البعض منها يدعوني للتأمل والبعض الآخر إلى نشاط أيروتيكي متسام.

أتساءل ما إذا كنت سأعرف يوماً من هي هذه المعذبة البارعة التي أيقظت ألعابها في أيروس الفضول.

*

يزعجني أن أقرأ قصصاً تجتاح الصحف عن «انتهاكات الجماهير الأخلاقية» بعنوانين كمثل «ماهي رذيلتك؟»

«الأفضل أن تكون منحرفاً من أن تكون لا مبالياً».

«لوليتا في مانهاتن... وفي أماكن أخرى»...

وفي كل مرة أفكر بنينو. كان يقول: «في مواجهة الإبتذال لمن الضروري التعرف على الخير الموجود داخل كل سر». كلمات المازوركا الزرقاء تردد هذا أيضاً وتطلق على القمر إسم «الروح الهائمة». وفي «مرلين كوكاي»، وهو نادٍ ليلي في البو كان نينو ببذته الحمراء القانية المهلهلة، يوحي إلي بنفسه بالكآبة والتشاؤم، فتتوقف روحي آنذاك عن الهيام مثل القمر.

*

أقرأ على غلاف الصحيفة المزخرف بياناً رسمياً للبابا، هذه المرة في مؤتمر القاهرة حول الإسكان والإنماء: «الأب الأقدس يقول جنس وليس تابو». رفعت عيني إلى الأعلى.

إنه يشبه وجه القمر لكنه في الواقع مزيج مركب من حمض الخلايا النووي والبروتينات، مصور عبر مجهر الكتروني. الصورة المكبّرة مسنودة إلى حائط غرفتي وترسل صدى من أعماق اللاتكوّن الغارق في أسرار الجسد البشري، نوع من القبة الزرقاء السماوية مقلوبة رأساً على عقب. وبدلاً من أن نطلق عليها إسم الشفرة الجينية، من الأجدى أن ننظر إليها كقطعة موسيقية من

الطبيعة: تماماً كما ترمز النقطة والفاصلة في رموز المورس إلى الحروف الأبجدية. وفي هذه الصورة المكبرة الضخمة تعرفت إلى اللغة المقدسة التي أتت بنا إلى الوجود. كما لو كنت أستمع إلى داخلي، حيث تعيش لغة ما نحن عليه، فتنعكس صورة ضخامة الكون. وحتى لو أننا لا نستطيع التشبث إلا بالمرئي، صمت هذه اللغة البلا حدود، فإني أعرف أنها تتواصل وتتكلم فيما الكلمات الأخرى التي أستخدمها عادة ـ من عقلي ومن قلبي ـ تبدو خالية من الحياة بالنسبة لي.

بمقدوري الشعور بكلمات توحي بنفسها إلي، كلمات وصلت إليّ من قلب السر، تؤاسي روحي وتلطف وحدتي.

*

توفي والدي قبل أشهر قليلة.

لا يزال موته ينمو في داخلي، كمثل شفرة بالكاد وخزت بشرتي في البداية وهي الآن تشق طريقها شيئاً فشيئاً إلى اللحم والعظام.

ذات يوم، شرح لي والدي بكلماته البسيطة، وبطريقة مفاجئة جعلتني صامتاً مندهشاً كمثل ما أعنيه بكلمة أيروس. قال لي: «إنه كطيران الفراشة».

كنت أفكر بوالدي بالأمس، وللغرابة، كتبت بعض السطور لوالدتي التي لا تزال على قيد الحياة وبصحة جيدة. أتساءل لماذا تحول الألم الذي سببه موت والدي إليها:

حياة والدتك تستمر.

في الجوارب التي تعلقها لتجف.

بعد أيام، بعد أن تموت،
لن يتذكر أحد حبل الغسيل،
أن لمستك تنتهك فرشاة أسنانها،
وتشرع في الصلاة من أجلها،
لنعمة أن يستمر إيمانك بسنها المتقلقل،
لقد وجدت طريقة لكي ترحل،
العيش في العادات التي أورثتك إياها،
عيناك مغشيتان، لا تستطيع الرؤية.

فضولي وأكثر فضولاً

بعض النساء ـ مثل م. ـ لا يتحرر فيهن أيروس إلا بعد صراعات عنيفة.

التدمير قد بدأ.

يغلق الباب بعنف فتهتز المصابيح اليهودية.

الفارس على صهوة الجواد الجامح لبارون سور غينتال، صار لديه الآن سبب وجيه لأن يشب. الصحون البيضاوية الشكل من تلال باسانو، الملونة برسومات الآلات الموسيقية والنوطات، كانت تتحدى م. برنينها الذي يشبه رنين آلات المندولين الصغيرة. لقد دفعا الثمن غالياً. الثمن الأغلى يثقل على الباقي بثغرة تشبه عيناً ضالة أو مارشال نيبرغ بعد معركة مروّعة. على الطاولة الزجاجية في غرفة الجلوس كتب ومجلات ورزم رسائل تصل إلى الأرض، وبدأ القرد السويسري الصغير بحركة جنونية يمسح الحذاء النحاسي الذي كان يمسكه في كفه، ويهز كتفيه بحركة متقطعة لا مبالية. تمثال بوذا، ذكرى حملتها من رحلة سعيدة وإستثنائية كنت قمت

بها و.م. كانت تدرك ذلك ـ سقط على الأرض فأعطى معنى جديداً للعبور من رامايانا: «إبتسم أيها الحكيم في طريقك إلى الموت».

بعد أيام قليلة عاد التمثال إلى البيت، وقد خاط جروحه مرمم صديق في فيا دي غيبوناري. من الأجزاء السيراميكية التي حملتها له في علبة من الكرتون، راح يحسب اندفاعي الأيروتيكي صوب النهاية: «سوف نصل إلى هناك»، قال «إنهم قادمون بسرعة أكبر».

تمثال يرمز لهرقل، قطعة أثرية نادرة، كان يهزأ مني. فكرت بأن هذا قد يكون إشارة جيدة غير أن م. صادرته وقذفته بعنف إلى الحائط. أذكر بأني شعرت بغبطة تجتاحني فيما أقوم بقذف تمثال صغير من البورسلين إلى باب المدخل، تمثال بائعة زهور صغيرة بثوبها الفضفاض. هذا التمثال كان واحداً من مجموعة تماثيل سويسرية كانت تحبها م. وتذكرها برقصات فاني السير.

ثم قمت بقذف تمثال ثانٍ وثالث فتمددت المخلوقات التعيسة على السجادة بوجناتها الحمراء المنتفخة، مفتتة هالكة وعوضاً أن تذهب إلى المرمم آل مصيرها إلى النفايات.

خنجر ياباني، تذكار آخر من إحدى الرحلات، جعل يرتكب جرائم غريزية. التماثيل البيروفية، المزخرفة برموز السلام الأبدي كانت تؤكد أن الموت ليس بالواقع أسوأ ما يمكن حصوله.

تمزقت صور الباخوسيات على نسيج الأوبوسون المطرز لأنها كانت تذكر م. بالزنى المزعوم. محرقة بخور على شكل إيل تحطمت أشلاء: كان قرناه بالغي الطول وبدون شك أوحيا بشيء ما.

كما لاحظتم، فإني كنت هاوياً لجمع الأغراض الثمينة.

في المزهرية الهندية المصنوعة على شكل جمجمة تعلوها بطة حمراء وصفراء اللون، حاولت م. أن تغرس الأفكار التي عجزت عن غرسها في رأسي، وكانت النتيجة أنها وجدت نفسها تلوي رقبة البطة بعنف شديد، فيما جثمت أنا بحذر على السجادة، لألتقط الأجزاء الصغيرة وأضعها في علبة الكرتون.

إقترحت أنه ربما لا يجدر بها أن تحطم المرايا. غير أنها لا تؤمن بالخرافات فراحت قطع المرايا المحطمة تتطاير، تلك التي كنت فيما مضى أنظر فيها إلى نفسي حين أستيقظ من بعض الأحلام.

ورغم ذلك، لم تكن لتسمح لنفسها بتحطيم التماثيل والصور الدينية ـ م. مؤمنة وهي تمارس من وقت لآخر الشعائر الدينية الكاثوليكية ـ لذا فإن الصلبان لم تتعرض لأي هجوم وكذلك المنافض التي على شكل ملائكة لم تكن إلا لتتطاير فيما ندر، من وقت لآخر. وأخيراً تناهى إلى مسمعنا صوت ساموراي مهيب يردد صارخاً: «كفى». انطلق الصوت من وراء درع يوكوهاغي ـ دوغوسوكو وفغر القناع فاه من بين جناحي الخوذة المصنوعة على شكل طائر الهو ـ هو الأسطوري. امتد القفازان إلى الأمام بحركة بطيئة راحت تهددنا.

بعدها ثمة قوة أخيرة متبقية ربما مدنا بها إنهاكنا، قادتنا إلى آخر قطعة أثاث كانت لا تزال سليمة ـ السرير بلوحته الرأسية المزخرفة، كانت ميزته الوحيدة قدرته على منحنا الراحة. تمددت عليه م. وقد خفت ثورتها غير أنها تشعر بإثارة جنونية.

*

أرخيت بثقلي إلى جانبها. لم يكن أحد منا يحاول التفوق على

الآخر. كلانا قد قام بذلك. استلقت في وضع استسلام كانت تفضله على غيره، وتركتني ألجها من الجانب. ما كانت يا ترى أداة الوصل بين جهوزيتها لأن تستجيب بشكل رائع إلى إيقاعي، وبين العدائية التي أظهرتها للتو؟ حتى أني تمكنت من تكوين فكرة ما: كم بوسع الجمال الجسدي أن يكون أخلاقياً!

إيروس والحيل الصغيرة

من يدري لم أتذكر هذا الآن؟ ربما لأني في إستيائي أروح أفتش عن شيء يمكن أن أتماثل به.

لفترة من الزمن أقمت علاقة مع ليديا، فتاة كانت تتفوه بالأكاذيب. لم تكن مواهبها الإغرائية هي التي أغوتني ـ بالحقيقة لم أكن لأجدها إستثنائية ـ إنما اللذة العارمة التي كانت تجتاحني حين كنت أقوم بكشف أكاذيبها. عارية من أي مكر أو دماثة، سهلة الكشف. في أكاذيبها كنت أرى رمزاً لجوهر الكذب الأنثوي الذي هو بمثابة آلة ميكانيكية صغيرة غريبة.

كنت أجلس عند حافة السرير حين تنهض هي لتذهب إلى الحمام. كنت أجول بنظري في أنحاء الغرفة وأراها بدون أي إمكانية للخطأ: الخفّان: زرقاوان باهتان ضخمان، خفّان رجاليّان، كانا يسترقان النظر من أماكن لا تخطر على البال، أو أنهما كانا يظهران فجأة أمامي. وكان واضحاً أن ليديا تخلصت منهما في اللحظة الأخيرة الممكنة بمواهبها الفذة في اختلاق الذرائع والحيل ولكن من دون أن تعمل على صوغها بشكل بارع. كان الخفان

يتكئان إلى حاملة المجلات أو بين رف الخزانة السفلي والأرض، أو على رف كتب شاهق... وإذا لم يقعا على الأرض ولم أشاهدهما يسقطان أرضاً بجانب قدميّ حيث يبدوان وكأنهما يستنشقان تكشيرتي بغبطة وسرور. كنت ألتقطهما وأنظر إليهما. أقحم قدميّ فيهما فيختفيان أثناء قيامي بذلك. داخل هذين الخفين الزرقاوين الضخمين كنت أتخيل مراوغة هائلة: رجل الثلج البغيض الذي كنت أدعوه سراً الضيف الغامض، والذي بمعيته كنت أشارك ليديا وقت فراغها.

ثمة مرحلة من النور، من الضحكة الخفية التي تسكن فينا. هل ستعود يوماً إليّ؟

إستحواذ أيروس وانحرافه

تعريف:

«سكوبوفيليا»: تعبير جديد كان يستخدم أصلاً في التحليل النفسي للتلصص أو اختلاس النظر إلى الأعضاء الجنسية، أو النشاط الجنسي بغية إشباع الرغبة الجنسية.

يتحرك هذا المفهوم بدافع ولع شديد هو بمثابة إثارة جنسية غير محدودة، قد تتضمن جزءاً من عمل تحضيري يعرف «باللذة التمهيدية» ويؤدي إلى تنمية اللذة النهائية. وحين تقصي هذه اللذة التمهيدية كل الأنواع الأخرى من النشاط الجنسي، حينها فقط تصبح السكوبوفيليا إنحرافاً.

«حاجة منحرفة جامحة للمراقبة يمكن أن يتم ربطها أيضاً بالسكوبوفيليا، وكذلك الإفتضاحية التي تكون في بعض الحالات كبتية وقمعية. ثمة، في الواقع تماثل بين السكوبوفيليا وبين التلصص

«المقلوب» المتمثل في افتضاحية المرء لجسده هو. أني على معرفة بأزواج يشعرون بالإثارة الجنسية من خلال مراقبتهم لزوجاتهن وقد امتلكهن رجل آخر، وعشاقاً يشعرون بالإثارة حين ينظرون إلى أحبائهم أو حبيباتهم وهم يشبعون رغبات الآخرين. هؤلاء هم مخلوقـات خسيسة، وفي انحرافهم لا أجد سوى الفساد والقذارة.

كان سيزار متلصصاً غير أن ما كان يسعى وراءه يمكن أن نطلق عليه إسم «أيروس الظلام». كان جديراً بالشفقة التي تمنح لأولئك الذين يجازفون بحياتهم من أجل حاجة يائسة بلا أمل، مدركين كل محطات درب الجلجلة.

كان بستانياً أو بالأحرى شاعر النباتات والأزهار الذي أعاد خلق التناغم مع الجمال الذي خلقته الطبيعة. كان متزوجاً من روزا، وكانت روزا تأتي بعشاقها إلى البيت وتمارس معهم الحب على سرير الزوجية. وكان يتم نفي سيزار إلى سرير خفيف نقّال في أسفل البيت حتى أنه كان يجلب القهوة للزوجين اللذين مارسا الجنس طوال الليل، فيما هو ينصت من سريره إلى صرخات اللذة تطلقها زوجته، وأصوات ممارسة الحب.

كانت روزا قد جعلت منه عبداً لقساوة قلبها، خادماً مذلولاً لنزواتها الشهوانية، وإلى حد ما، لم يكن سيزار يقوم بأي ردة فعل، ويروح مستسلماً بكليته للألم المروّع الناشىء عن معاملته كشيء يتوجب تدميره.

وهكذا بدأ يهيم في الليلة الرومانية ليتلصص على مضاجعات الآخرين: فدية منحرفة كان يدفعها لنفسه بمراقبة أزواج لم تكن روزا زوجتهم، الزوجة التي استمر في حبها.

أخبرني سيزار عن مأساته شيئاً فشيئاً بعد أن اكتسب ثقتي وفاز بصداقتي. حين تعرفت إليه كان قد تحول من بستاني أميري ينظر إليه باحترام كلي، إلى بستاني بسيط يعتني من وقت لآخر بنباتات الآخرين. كان حوّل النباتات المهملة على شرفتي إلى جنة صغيرة غنّاء. أحبني سيزار وما لبث أن بادلته هذا الحب. وكان ليضحي بحياته من أجلي. اعتاد زيارتي حين أكون وحيداً وأعاني من مشاكل بسيطة سرعان ما يجد لها حلولاً. عاطفته نحوي كانت تجعله يحدس، بنوع من الشعور السحري بأوقاتي الصعبة. في إحدى المرات كنت أعاني من ارتفاع في الحرارة فأتى إلي ولازمني ليومين متتالين، يمكث إلى جانب سريري ويعتني بي. ويروح يراقبني بصمت باسماً لي برقة متناهية؛ الرقة التي كانت تجعله قادراً على جعل زهوره ونباتاته تتفتح بألق لا مثيل له. حابساً أنفاسه، كان سيزار يطوف طوال الليل على ضفاف مستنقعات التيبر، وبين أدغال القصب والأشجارالخفيضة. ما كان يطارده في ضواحي روما كان أمراً مقززاً. كانت طرائده هي الرجال والنساء أثناء المضاجعة. كانوا يرونه وكان هو حين يدرك اكتشاف أمره يفر مولياً، خافضاً رأسه إلى الأماكن الخفية المظلمة.

كان الرجال يقفزون مرعوبين والنساء ينفصلن عن أعضاء عشاقهن وهن يصرخن بغضب وحقد. كان ثمة من يطارده ويمسك به فينتزع سترته ويشبعه ضرباً.

كان سيزار ينزف من أنفه وفمه ولكنه لم يكن ليبالي. كان يستمر في ذلك. نساء أخريات ركابهن في الوحل تحت جسور المدينة، كانت الليلة الرومانية مرصوفة بالفسوق. كان يطرد الكلاب التي تكورت بين الأدغال خجلاً من أن تموت تحت الليلة

المقمرة الصافية. تحت جسر فيال ماركوني، لم ير نساء بل قططاً حقيرة تموء فيما تندفع إلى داخل القطط الشاردة.

حينها أتت لحظة كان فيها سيزار متكئاً إلى جذع شجرة على أعلى كومة نفايات، وكان بريق روما البعيد يومض من بين الوريقات. كما لو أن نظره قد طار عائداً من الظلال المحيطة، إلى داخل الظلام في جمجمته. رأسه محني صوب صدره، والعرق يتصبب من وجهه. أظافره تحفر في النباح، كتفاه يرتعشان، وراح يبكي مدمدماً: «يا إلهي ساعدني».

ذات ليلة نجح سيزار في التجسس على زوجين سعيدين كانا يمارسان في سيارة الحب خالياً من العنف ومن أية بشاعة.

كانت تحبه برقة وسمو كبيرين حتى لأن سيزار تذكر نباتاته المفضلة، حين ساعدها على أن تلمع وتشع أكثر من السماء المحيطة بها.

في المرأة، رأى روزا كمالطالما تمناها أن تكون معه. هذه الهناءة المعروضة أمام عينيه كانت نفّاذة لدرجة أنها دخلت إلى قلبه وشعر أنها ملكه. وفي التماعة مفاجئة، فكر أنه لمن الجرم أن ينهي هذه اللحظة السعيدة التي أتت إليه من الآخرين. فكر أيضاً أن قتل رجل مثله لن يكون جريمة إنما تحريراً. وهكذا حرّر صديقي سيزار نفسه.

*

تعريف:

«**الفتشية**»: انحراف يكون فيه جزء معين من الجسد (شعر صدر، شعر العانة...) أو قطعة ثياب معينة (حذاء، جوارب، سروايل داخلية...) قادراً على إيقاظ الرغبة الجنسية. أما المشاكل

الناتجة عن ذلك فتتمظهر في أمراض مرتبطة بالحب. يقول أيليس ان: «ما من جزء واحد في جسد الإنسان، ألاّ ويمكن أن يكون مثيراً للشهوة الجنسية».

أما أكثر الأجزاء المألوفة فهي: اليد، عنصر حاسم في الجنس؛ القدمان، فتشية القدم منتشرة جداً ومعقدة نظراً لعوامل كثيرة مثل فتشية الحذاء، العانة...

«إن النزوع إلى الفتشية، كما كل النزعات الطفولية، مقدر له أن يكون مرافقاً بالكبت، وعقد الذنب التي تبدأ في مرحلة مبكرة من الطفولة.

*

كان جسد مافالدا بوردي يفتن كل أهل بارما حين أصبحت أماً، ومن هذه الوالدة الرائعة الجمال ولدت بشاعة بييترو التي يستحيل تفسيرها.

ردة فعل أهل بارما كانت مزيجاً من السخرية والذهول. كيف يمكن لمافالدا أن تلد نقيضها؟ ترعرع بييترو محتقراً من الجميع كما لو كان هو المذنب في كونه بشعاً. وخلال فترة نموه كان يعاني من عذابات كبيرة تبعتها أحلام كان ينظر فيها إلى نفسه وهو يولد كمثل جذع شجرة ملتو في حديقة مسحورة. رأى شخصاً عجيب الخلقة يخرج من مهبل كان رمزاً للكمال خلقه الله بريشة فنان، وحتى أنه سمع أيضاً شيئاً ما: وحده، هو، نوطة خاطئة في مقطوعة موسيقية رائعة. هذه الفجوة الرحمية التي كانت محط إعجاب حشد ذكوري هائل، أصبحت كابوساً يراه حتى في يقظته. وكان في رأسه ثابتاً كالمعبود، باب مزخرف دنسه الحقيرون. كان يهيم في المدينة وهو يشعر بأنه يتعرف إلى صورة أمه الرائعة في عيني كل

الذين ينظرون إليه بنظراتهم الحائرة، أو الذين يحدقون فيه، ويتظاهرون أنهم ينظرون إلى مكان آخر. يراها حتى في البؤبؤ الأبيض في عيني ميغليافاكا الضريرة، أو في باغايانني الذي كان يعزف على كمانه جالساً على الأرض كما المتسوّل.

كان يصلي: «رباه، أرجوك إجعلني أبدو أفضل بقليل». لم ينفك عن التفكير بالمعجبين بمافالدا، وهو كان يكرههم كرهاً شديداً، وفيما هو يفكر بهم كان يقف كل صباح عارياً أمام المرآة ويجبر عينيه على النظر إلى أنحاء جسده كافة آملاً بأن يظهر شيء ما جميلاً، شامة ربما، ليجمّله. يحصل هذا حتى للأشجار. برعم وحيد، غير أن أوراقه وأغصان شجرته بقيت مهجورة كئيبة بلا أمل لكن بييترو كان متقد الذكاءبقدر ما كان بشعاً. تعلم العزف على كل الآلات الموسيقية حتى راحت النساء اللواتي كن يشحن النظر عنه، تلتفتن إليه. كان يستولي عليهن بعزفه الرائع على البيانو، بلمسته الملائكية على الكمان، بشبّابته التي تستعيد ذكريات من الحوريات والغابات في الأساطير القديمة، ومن الغيتار يعصر العواطف الشجية التي يوقظها حب سعيد.

أدرك جيداً أن النساء تستسلمن لنغماته الساحرة ثم يقوم بدوره بامتلاكهن ويدخل إليهن من الباب الخفي المزخرف مستخدماً جواز مروره الموسيقي كحيلة مقبولة تبعد عنه الحاجة لاندفاع إلى سلوك الأساليب الطبيعية لكي يصبح دجالاً.

وفي كل مرة كان يلج فيها امرأة، يخطر على باله لحن من دون كارلو: «لم تحبني قط! لا، إن هذا القلب موصد أمامي». غير أن هذا الصوت لم يكن لينفجر في ذهنه على شكل أغنية، إنما في

روحه المجروحة التي خلفها وراءه، هناك خارج حدود المهبل المذهل الذي منه خرج جسده المشوّه. عضو والدته الهائل، اللامع كمثل كوكبة من النجوم في قبة السماء، صار عيناً تراقبه ولا تغيّبه عن نظرها لحظة واحدة، فيما هو يروح يستعرض نفسه خصيصاً لها في مضاجعات استثنائية مذهلة.

يجب ألا يخيّب آمالها. وكان عليه إلى حد ما، أن يعوض لها خيبات الأمل المتكررة التي تسبب بها بولادته، فراح وبشعور منه أنه مولود بالخطيئة، يحمّل هذه الأفعال كل الشغف المطلوب من المخرجين من زمرة الأبرار لينالوا غفرانهم وخلاصهم من الخطيئة. وبالتالي فإن ذكاءه، الذي كان يصفه بالذكاء التناسلي، والثبات المعرفي الذي به كان يؤمن اللذة للنساء، اجتمعا معاً ليكوّنا فناً غرامياً فريداً غنياً بابتكارات أيروتيكية لا مثيل لها.

حوّل بييترو نفسه إلى عاشق رائع، ولم تبال نساء كثيرات إلى حد ما، بأنه كان بشعاً، بشعاً للغاية.

ثمة أناث من الجنس البشري، وبنعمة إلهية، لا تثرن إعتراضات تافهة حول مظهر الرجل الخارجي إذا ما كان هذا الأخير قادراً على إشعارهن بلذة فائقة التصوّر.

غير أن هاجس بييترو ظل ذلك الباب، باب والدته الذهبي، الشبيه بابتسامة الإله الذي ينحني هو أمامه تعبداً واحتراماً إثر كل دورة في ممارسة الحب حين يخلّف شريكة في قمة السعادة، ويشعر هو أيضاً بالغبطة لأنه تلقى إشارة استحسان وموافقة: يشعر بالغبطة كما لو كان المعبود قد قال له: «برافو، لقد فعلتها ثانية وحتى لو كان ذلك في الوقت والمكان غير المناسبين.

وبعد كل انتصار، كان يشعر بحاجة ملحة وشهوانية ليحمل

معه علامة ما. كما يحمل صائد الأسود الحاذق معه إلى البيت عرف ملك الغابة. بعد إنتهاء الأفعال الجنسية كان على بييترو أن يقوم بفعل إضافي لنفسه. كان يركع على السرير، وأيضاً ينحني جاثماً بين ساقي المرأة المنفرجتين، أمام بابها الذي بقي مفتوحاً جزئياً بعد شهوانية كبيرة، ويطبع قبلة هناك. في الواقع لم تكن قبلة بالمعنى الصحيح للكلمة إذ أن كل امرأة كانت تستجيب لها بصرخة ألم. وكان بييترو، باحتراف فني كبير، ينتزع بأسنانه خصلة من شعر العانة. كانت المرأة المنهكة تعتقد أن هذه هي نزوة أيروتيكية خفية. غير أن الأمر كان مختلفاً.

كان بييترو وكأنه يضع ختماً مقدساً ليثبت الفدية التي كان يدفعها. وكان يحتفظ بخصلات الشعر في ورقة يلفها بعناية ويكتب عليها إسم المرأة، وإسم عائلتها التاريخ وتعليقاً صغيراً كمثل «ممتاز» (وكانت هذه الصفة تليها علامة (+) يشير عددها إلى مدى تميزها). «لقد أخبرتني. أنت الوحيد. لم أشعر بشيء مماثل من قبل». وكانت الورقات الملفوفة تزداد وتتكدس بمرور السنوات. ومن وقت لآخر، كان بييترو يعود إليها، يتفحصها ثم يرفع نظره إلى فوق، حيث هي مافالدا التي كانت توفيت منذ فترة طويلة، ومازالت تراقبه من سمائها ويروح يردد هامساً: «هل رأيت يا أمي؟ هل أنت مسرورة مني؟» ثم أتى الوقت الذي يأتينا جميعاً. عندما يقترب انحدارنا، وعندما تبدأ قوانا البشرية تذوي، وحين تروح أصابعنا نفسها تخذل المواهب التي أتينا بها إلى الموسيقى. يمكن أن يحدث هذا لفنان عظيم حتى، حين يكبر في السن فيغرق شيئاً فشيئاً في الإرتباك والوهن. أدرك بييترو ما يتوجب عليه فعله.

أن يفض كل هذه الورقات، كان كمثل إعادة إحياء كل

مراحل حياته السعيدة؛ كل إسم امرأة وكل تاريخ كان يوجه طعنة إلى قلبه. رأى مجدداً وجوهاً منسية وتذكر بجلاء كامل، أوضاعاً وظروفاً وراح يعيشها مجدداً. جمع خصلات الشعر العاني. وجعلها تدفىء جوف يده، كما لو كانت ريشات ناعمة احتوت يوماً كل غبطة طير.

خرج إلى الشرفة بيديه المليئتين بهذه الذخائر. هو الذي عرف كيف يعزف على كل آلات الأوركسترا، بدا اليوم وكأنه يقود إحداها. مد ذراعيه إلى الأمام وانحنى، فاتحاً أصابعه ومغلقاً عينيه حتى لا يرى. ظل على هذه الحال إلى أن شعر بيديه فارغتين. عندها فقط فتح عينيه لينظر.

خصلات الشعر التي كانت يوماً ملكاً لنساء أطلقهن بعنف إلى ذروة لحظات المتعة، تناثرت في الهواء ولفتها الشمس في إشعاع من النور ثم رفعتها نسمة هواء وبددتها عالياً.

هكذا لم يعد باب أمه المزخرف، الذي ينظر إليه بييترو نظرة الوداع، لم يعد عيناً بلا رحمة، أصبح أخيراً شيئاً لطيفاً متسامحاً وتماثل بييترو في اتحاد جسدين جسد الأم وجسد الإبن، ورأى في جسده، جمال الأيل الذي فيما يتنقل، يدرك أن الصياد يترقبه ومعه قدر لا مفر منه، يدرك الأيل أن خطواته تلك هي الأخيرة ولكنه يخطوها بمشية ملوكية سامية.

سمع بييترو صوت أمه مافالدا بوردي الذي شرع ينحل هو الآخر في كثافة الكون غير المحسوسة وكان صوتها يدعوه بمحبة: «الآن بإمكانك العودة إلى داخلي يا بني. أجل، الآن، وأخيراً قد أصبح الباب الرائع ذهبياً حقاً، وعبور حدوده لن يخيب بعد اليوم آمال أحد... بعد اليوم لم تعد بحاجة لإثبات أي شيء».

حدث هذا لبييترو بوردي وقد كتب حوله باحثو علم النفس وعلم الإجتماع تقارير عديدة:

«... المهنة: رجل واحد يكون فرقة. مهووس جنسي، فتيشي بعوارض انحلالية واضحة. حالة فريدة من العفو المتناقض الذي يعاني المريض بسببه من عصاب مهووس ونزعة لا تقاوم إلى إثارة تناسلية متكررة.

من الضروري إبقاء المريض تحت مراقبة دقيقة... بعين أمية ربما».

*

تعريف:

«**الزويراستيا**»: لفظة جديدة ابتكرها كرافت ـ إيبينغ لتمييز بعض الحالات عن البهيمية وتكون لهذه الحالات، حيث يمارس الجنس مع الحيوان، جذور باتولوجية وبالتالي فهي ناشئة عن خلل وراثي وبنيوية عصابية تتمظهر في الإندفاع لممارسة فعل معاكس للطبيعة وهذه الحالات عموماً تشير إلى خلل خطير في ما يحيط بمسألة الممارسة الجنسية العادية.

*

لغاية سنوات عديدة مضت وفي متحف لومباردي في بارما ـ الذي خصص لذكرى ماريا لويزا دوقة هامسبورغ وكانت استلمت الحكم في مدينتنا في ١٩ نيسان/ أبريل ١٨١٦، في ذلك المتحف حيث ترقد رفات الدوقة كذلك، كان يمكن للزائر أن يرى أربع حلقات ذهبية علقت بشيء من التحفظ على أحد الجدران الخفية. هذه الحلقات اختفت تماماً منذ أن كتبت عنها مستعيداً حكاياتها. وهنا قصة عنها تثير الإرتباك والإزعاج وهي علاقة ماريا لويزا مع الحصان الكسندر.

قام رئيس العلاقات الداخلية آنذاك بشجب ما ورد في بعض التقارير السياسية، مؤكداً بأنه تضليل وإفتراء القصد منه تشويه سمعة الدوقة، ومع ذلك فإن لا شيء يثبت صحة ما جاء في هذه التقارير ومنها تقرير سري وجهه السكرتير العام في قسم العدل والقضاء إلى الكونت أدام فون نيبرغ:

«... عند الساعة السابعة مساء وصلت إلى معرض الوحوش كما أمرت، وشاهدت: نفذت المهمة العاقة وراقبت ما كان يتوجب مراقبته، بكلمات تمنيت لو لم تكن كلماتي أصف مشهداً تتجمد له مطلق أي روح مسيحية وإني لأشعر بحزن عميق إذ يتوجب علي أن أذكر إسم أوغوست سوفيرين ملكتنا، التي أسمح لنفسي ههنا بأن أشير إليها بإسمها فقط من دون أي ألقاب...

... الفعل البهيمي بينها، «هي»، وبين الحيوان الوسخ، أنقله أنا بذهول شديد يستولي على قلبي. وهذا الفعل قد حصل أمام عيني اللتين تمنيت لو كانا ضريرين.

وسخ ربما، إنما الحصان الكسندر كان أنموذجاً رائع الجمال في جنسه. أغنية شعبية من تلك المرحلة كتبت بلغة محلية مكثفة شبيهة بوصف القبور، وهنا فصل يمكن أن ينقل تفاصيلها:

«...جاءت الدوقة إلى الغابة، بعدما أصدر المشرف على الغابات ومعرض الوحوش لدى جلالتها أمراً صارماً بإبعاد كل الصيادين والدخلاء. في معرض جلسي للوحوش كان ثمة ضوء في اسطبل الكسندر وكان الحارس قد أفسح الطريق.

«دخلت الدوقة إلى الأسطبل وأغلقت الباب وراءها. كانت تهوى رؤية آثار حياة فلاح عتيق على الجدران. وكانت منعت العمال من انتزاع صورة المسيح، وقد رسم فيها بشيء من

التجديف الموقر وظهر فيها تعيساً بائساً مشلول القوى. غير أن الصورة أزيحت إلى ما وراء أحد الأعمدة حتى تمنع الرؤية عن العينين تحت إكليل الشوك. رحب بها ألكسندر ضارباً الأرض بحافره. كان في الأسطبل قش نضر فرش بترتيب ظاهر، خلعت حذاءها كي تشعر أكثر بحرارة الأرض القرميدية ونعومتها. راحة عارمة كانت تجتاحها منسلّة من قدميها العاريتين. أجمل اللحظات كانت في هذه الخطوات: كان الإثنان يقتربان من بعضهما البعض مثل فتاة تلتقي صديقها في شارع مقفر ويساورها شعور بالإرتباك الممزوج باللذة والغبطة. كانت عينا الكسندر تتسعان أكثر فأكثر، وتنجلي نظراتهما. كانت تلك الطريقة الوحيدة التي يملك لينقل إليها شيئاً يشبه الفرح. كانا يتبادلان إشاراتهما الخاصة. ما إن يغلق باب الأسطبل حتى تصبح الكلمات باطلة كما لو أنها لم تكن يوماً لتميز الإنسان عن المخلوقات الأخرى التي يتقاسم معها الأرض.

وهكذا فإن حتى الكلمات مثل جنون أو فضيحة تصبح بلا معنى، ويحل محلها إدراك حسي غامض كما الوقت.

وفيما يصل إلى مسمعها نباح الكلاب في الخارج وصوت الغابات تهزها الرياح، راحت الدوقة تمرر يدها على وجه الحصان وهي تقرأ رسائل كانت دائماً جديدة وغامضة: «يا للجرم»، كانت تردد لنفسها، «أن يعمل الرجال بسعر بغية امتلاك المنطق غير أني لست منطقية بالنسبة إليه ولا هو بالنسبة إلي. لذلك ليس بمقدور أحد أذيتنا».

«حيث كانت تطوقه بذراعيها، كان ألكسندر يحاول أن يجمع، غير أنه لم يتمكن من ذلك، لأن الحارس كان قد قيّد

قوائمه بأربع حلقات ذهبية، بيعت بعد موته في مزاد علني سري ثم احتفظ بها كذخائر تجديفية. كانت الدوقة تصارع لفتحها من دون جدوى حتى تتكسر أظافرها. استسلمت وجثمت على ركبتيها وراحت تداعب حوافره وأجزاءها الأمامية المندبة بأشواك العليق، وتقبل خدوشه من دون أن تشعر بأي اشمئزاز، وكان الحصان يستجيب لها ويحني رأسه نحوها.

... عضلاته القوية تسيطر عليها وكذلك رؤية صفنه. رائحة جلده تشعرها بدوار خفيف ، كانت تحس بتفوق القوى الطبيعية على العقل والمنطق، وكانت ترى إليه كما جبل ينتظر أن يتم اكتساحه بمواجهة خطر مميت. «من مخبئهما، كان المسؤول عن معرض الوحوش ومعه الحارس ينصتان إلى الصمت المحيط بالإسطبل وبعد قليل يتهيأ لهما، وقد يكون ذلك بسبب من إيحاء ذاتي، سماع صراخ امرأة تتألم، وأنين يتحول من الرقة إلى الغضب؛ في سمعهما شرع الشرك البهيمي يلف الليل بقوة إعصار جامحة قد تكون تكونت فيه أشكال وأصوات من وحي حدسهما الخاص.

«لم يحرك أي منهما ساكناً، استمرا في مراقبة المصباح الذي يتمايل في الهواء ويرسل ومضات متقطعة فيمارس عليهما تنويماً مغنيطيسياً ويطلق رؤى مختلفة: ومن ثم تحولت النافذة إلى ستارة ارتفعت على مشهد راحت فيه الدوقة تحرك يديها كما الساحرة، وبدا عضو الحيوان الهائل مبللاً بالدماء، وبدا قذف المني كأنما بلا نهاية.

«ما إن خرجت الدوقة من الأسطبل حتى إرتدى وجهها إلى وقاراً ملكياً، مبتسماً في الظلام: هادئاً كوجه نمرة بعد وجبة دسمة، فكر الإثنان؛ أسرع الحارس ليقبل يدها؛ كان على يقين أنها كانت

مبللة وملطخة بالدماء. وهذا اليقين، الذي لم يكن إلا من وحي ذاته، جعله يسرع إلى الأسطبل كما يسرع الجنرال إلى ساحة معركة مقفرة؛ شرع يفك الحلقات، وهناك بين القوائم التي تحررت أخيراً راح كالمسعور يمسح الأرض بخرقة ربما لم تكن موجودة بالفعل، ليجعل الأرض القرميدية تلمع كالمرآة.

كانت هذه الحقيقة أو ربما... ماذا لو أن القصة الحقيقية قد رواها أولئك الذين يصرّون على أن ماريا هابسبرغ كانت تذهب إلى معرض الوحوش، وتنفرد بالكسندر لتتحدى الإشاعات التي تطلقها قلوب أعدائها، ليس إلا؟ فقط من أجل أن تداعب عرف حصان لم يخنها أبداً، ولم يحاول أن ينهكها وشاركها في سباقات سعيدة سامية في الغابات؟ من أجل مداعبة...

ايروس يمكن أن يكون مداعبة أو رسالة...

رسالة قاسية، حول مداعبة، لحبيبة كان لها عشاق كثيرون:
«... شعرت بك في رؤوس أصابعي، امرأة لم تعد وحيدة، لم تعد تائهة في عالم أنانية الرجال وسخافتهم، هم الذين حاولت إسعادهم: شعرت وأنا ألمسك، بالتواطؤ الأيروتيكي الذي لطالما بحثت عنه في أسرّة عديدة أخرى. في الأصابع التي كانت تتلمس ملامحك، كان أيضاً إحساس بالزمن الرائع الذي نمضيه معاً، ساعات لا مثيل لها في أجمل أوقات الأصيل التي بقيت في ذاكرتي لجمالاتها غير المحسوسة كمثل مداعبتي.

أيروس يمكن أن يكون هذا أيضاً: شيء تافه، بسيط. مداعبتي التي بدت لي ممتلئة بنور الصيف العائد، عبرت إليك كما إلى أعماق الروح، حين تحدقين من النوافذ إلى شجرات الحور اللمباردية وتسرّحين شعرك يساورك قلق وتراودك أفكار من يدري ما هي داخل صمتك.

قد تبدو مداعبتي شبيهة بأي مداعبة أخرى غير أنها تحمل ضوء

حركة أصيلة، اكتشافاً غرامياً جديداً ذلك الذي نبتكره معاً كمثل لعبة مسلية. فكري فقط بأني كنت الأمسك بشعور أزلي.

خلفنا كان السرير المخرب، وسادتك لا تزال متشحة بعرقك اللذيذ، يا حبيبتي... لم تكن مجرد مسألة حب، لكن أن نكون معاً كما في حيلة معقدة تنحل بنفسها في المداعبة كما في الغيمة الصغيرة حول الشمس هنالك فوق، فيما طيور السنونو تطلق صيحات حادة وهي تحلق على علو منخفض. في أصيل مشرق كهذا، حين ننظر إلى الجبال ونرتعش عندما نفكر بالخالق. وهذه الفكرة عبرت أيضاً من خلال مداعبتي.

مكثت هناك بسبب من حاجاتنا معاً إلى تبادل الأسرار، تماماً كما الكلمة المرغوب فيها حتى درجة الجنون ولكنها تتسمر على طرف لسان أبكم. كنت أقيس حاجتي إليك في هذه المداعبة. كان الأمر كمثل حين كانت قطتي جينا تتكور عليّ بتوقها الكبير لأن تصبح هي دقات قلبي الذي تذوب في قلبها.

كنت أحب أن أتمدد إلى جانبك في سكون، في ظل شجرات الحور الممتدة على حافة النهر المفروشة بالحصى، من دون أن أشعر بأي ندم، وبهذه الفرضيات المظلمة عن رجال كثيرين حصلوا عليك قبلي. كان ثمة صمت كوني صغير، هل لاحظت ذلك؟ في رؤوس أصابعي.

كم كان الموت بعيداً في هذه اللحظة... في حركتي، إستمعت إلى نقائك الذي استمر في العيش بالرغم من كل شيء. موسيقى الكلمات التي كانت هناك قبل الكلمات نفسها. مداعبتي كانت تجعلنا كاملين معاً. وأنت كنت على يقين بأن الطريقة التي عشت

بها من قبل، وبعض عاداتك الأساسية، كانت لتختفي إلى الأبد حين كانت أصابعي تنحدر من عينيك نزولاً إلى حلقك، كمثل يد طفل بالكاد تلامس مفاتيح البيانو، وهو يجهل كيف ينتزع منه النغمات إلا من خلال ذكرى لحن سبق له أن استمع إلى روعته.

*

مداعبة هي نفسها كانت تصاب بالذهول من سحرها. اليد التي تكتب لك هذه الرسالة هي نفسها التي داعبتك ذلك اليوم. بعد فترة وجيزة سوف تلقي القلم، وسوف تبقى مثبتة على الطاولة.

كنت أفكر فيما أنا أداعبك: ذات يوم سوف نكون بعيداً، سوف نكون فكرة واحدة مشتركة، كما حين يعصرنا الندم فيما نمشي في الشارع ذات صباح مشرق ويكون الواحد منا ذكرى الآخر التي ووريت الثرى. كانت مداعبة وداع.

لم تفهمي. لم يكن بمقدورك أن تفهمي.

أعطيت من نفسي كل ما كان بوسعي أن أهبه لك، حتى لتشعري في المستقبل، بالإمتنان لا غير، حين ترغبين في ذلك، إذا ما كنت ترغبين في ذلك.

ماذا أخبرك بعد؟ لا تشرعي في وهب نفسك مجدداً، مع رجل واحد، ثم آخر، لمجرد أن تمنحيهم الفرصة لكي يطردوا ضعفهم ويرضوا للحظة واحدة شهواتهم الجنسية.

مازلت أحتفظ بحرارتك في يدي.

أشعر برغبة تسبب لي التعاسة والتدمير الذاتي. علي أن أقول لك: إخدعيني الآن، وبسرعة، وافعلي هذا لتتناقله الألسن ويصل

إلى مسمعي. بهذه الطريقة يخبو توقي إليك ويكف عن افتراسي.

سوف أتذكرك دائماً. وحين أمر بقرب نوافذ منزلك، سوف يراودني باستمرار شعور حزين كلما أرفع نظري إلى فوق.

النساء اللواتي أحببني واللواتي قد تخليت عنهن... في وقت ما، يشعر الواحد منا بأن أسفه أمسى ندماً.

وحدة تدفع قلبي إلى الخفقان بسرعة حين أعود أحياناً إلى أمكنة كنت فيها سعيداً في وقت من الأوقات، ثمة من يفهمني ومن يرعاني. في المطاعم، في الحفلات، في الأمكنة العامة، ويحدث أن ألتقي بهن برفقة شركاء جدد. في تلك اللحظات، يتمنى أيروس في أعماقي أن يعود ذلك الطفل الأسطوري المعصوب العينين.

كنا في الغالب نتحاشى تبادل الكلمات.

أنظر إلى هؤلاء النساء والبلادة بادية عليهن برفقة هؤلاء الرجال المحرومين من ذكاء أيروس المعرفي ومواهبه المسلية التي كنت أنا أتبادلها مع حبيباتي المفقودات، وقد كان ذكاء أيروس في وقت من الأوقات، سبباً لحياتهن ولحبهن.

فأردد لنفسي قائلاً: «كما لو أنهن قد أحببني بأظافرهن» وأنظر مجدداً إلى الرجال الذين أخذوا مكاني. إحساس بالفراغ يجتاحني وأقول لنفسي: «حين يكونون في السرير لا شك أنهم يستمتعون بالإبتكارات الغرامية التي ابتكرتها أنا مع هؤلاء النساء. حين أحببتهن خلال مئات الليالي وكرست نفسي لأن أحوّل الخيال إلى حقيقة.

أشعر وكأن أحداً سلبني: استولوا على شيء يخصني

ويستمتعون بما كان ملكي المقدس، الفن في فهمي لأيروس، وكيفية نقشي له في حميمية كل امرأة تماماً كما أكتب قصيدة.

*

وهكذا أرى إليهم ليس كجهلة للفن الرفيع فحسب، وبكم وصم حيال نعماته، إنما أيضاً غير جديرين بما يحملونه بين أيديهم من كنوز صغيرة خبأتها أنا في عشيقاتهم الحاليات.

إنه ذنبي أنا. أنا الذي جعلته يحدث.

بالأمس حين كنت أراجع كتابات إحتفظت بها، أعدت قراءة رسالة من امرأة كانت تمتلك إحساساً مرهفاً رغم أنها كانت تائهة في البحث عن نفسها. كانت تعرف كيف تعبر عن نفسها في شكل رائع على الورق. وقد قدمت لها نصائح حول هذا الأمر أيضاً. علاقة أخرى خلفتها ورائي. أسائل نفسي وأبحث عن جواب. ربما لأن حواسي لا تشبع أبداً. وقد يكون هذا نتيجة رغبتي الجامحة بألا تكون حياتي حياة واحدة إنما آلاف الحيوات في حياة واحدة. ولعله ربما الخوف من الموت سبباً أضلل نفسي من خلاله وأوهمها بأن حيوات أخرى بانتظاري، تفوق روعة وجمالاً تلك التي كنت أعيشها.

*

وهنا مقطع من رسالتها:

كنت أفكر فيك طوال الأسابيع الثلاثة الماضية، وأيضاً بتلك الظلال الباهتة المجهولة الجذور، التي تمر فوق علاقة وتغير نورها وهيئتها من دون أي تبرير أو تفسير، يتغيّر المشهد وتتساقط قصتنا، الهائلة أو التافهة، أشلاء وتخلفنا منفصلين، غريبين عن بعضنا مرة

أخرى. أعرف أني أشتاق لشيء ما وأنا حزينة. أعرف أيضاً أني أصبحت في مكان فارغ في ذاكرتك، وأن فضولك بدأ يدفعك إلى مكان آخر. يا للخسارة أن نفقد بعضنا البعض بدون أسف أو شوق، من دون هذه الكلمات العاطفية التي تنقذ الناس من التقلص والتلاشي. لم يبق شيء، كل شيء بات هادئاً، غير أن ثمة صوراً متبقية، صوراً مشتعلة يصعب علي إخمادها: بالواقع إنها، في هذه اللحظة بالذات، تضيء هذه الغرفة الظليلة حيث، بين دخان السيكار، تقوم ذراعاك بتحديد الرغبات.

تذكّر نوفولا

عناوين كبيرة في الصحيفة: «الجنس بالفم: أهو اغتصاب؟» «لا. فالمحكمة أصدرت حكمها ببراءة الزوج؛ والحكم يعتبر سابقة خطيرة».

الجنس بواسطة الفم يعتبر خطأ، عملاً تافهاً عادياً وتمهيداً لما يليه. بالعكس فإن الجنس بالفم، هو من بين أكثر العلاقات الجنسية احتواء لليقين الأيروتيكي. لذلك فإذا ما فرض على المرأة، فهو يكون بمثابة إكراه عنيف مسبب للإذلال أكثر من الإيلاج المغتصب. ويجب الأخذ بعين الإعتبار الجماع بالفم الذي يمارسه الرجال على النساء وهؤلاء بالغالب يفضلنه. قليلون هم الرجال الذين لا يشعرون باشمئزاز إزاء هذا العمل وهم حين يمارسونه يكونون عموماً، غير بارعين، متعجلين وجاهلين لأسرار الطبيعة الأنثوية.

ج.س. كانت ممثلة رائعة: سنوات قليلة من الشهرة وسيرة فنية انتهت بالإدمان على المخدرات. تمكنت من الإنقطاع عن المخدرات، غير أن المنتجين لم ينهوا مقاطعتهم لها. كانت واحدة

من صديقاتي اللواتي أكن لهن محبة وإعجاباً كبيرين، وكنت أستمع إليها بصبر مجاني وهي تعظني وتخبرني عن شبقها، وعن عذاباتها الناتجة عن تعقيداتها المهووسة.

كانت ج.س. تمجد مزايا الممارسات الفمّية على الأعضاء التناسلية الأنثوية، وذلك ليس إلا لتعبّر عن احتقارها لفظاظة عشاقها وترددهم. إن حياءهم من لعق البظر كانت تعتبره ج.س. إنكاراً ذكورياً غامضاً وخصياً: رفض مواجهة عضو المرأة ورفض استنشاقه والغوص في عمق المياه الأمية، بحر الحياة الأولى. كانت تتكلم على الرعب اللاواعي الذي تثيره فيهم هذه الرائحة البحرية، هذا الشق المفتوح كما الصَدَفة، هذه الإلتماعة من عمق اللاتكون، القادرة على الإغواء التحمائي الذي يوجه إليهم تحذيراً، ويجعلهم يدركون أنهم كانوا وسوف يظلون أبداً، أطفالاً معذبين.

كانت ج.س. تبالغ نوعاً ما، غير أنه كان ثمة جزء من الحقيقة في ما كانت تقوله.

في وقت لاحق، كان بياض الثلج المنساب من النوافذ، والأضواء المنبعثة من الشارع، تحدد خطوط جسد ج.س، بهالة مربكة كما لو أن وجوهاً تائهة في الزمن قد محته. كانت تنزلق نزولاً على جسدي. هلالاً ثدييها، وقطرات دمع حلمتيها الداكنتين كانت تختفي بين ساقي. كان جفناها وجبهتها تنحنيان وكأنما أمام طبق لها وحدها. رغبت في إشعال النور، في وضع حد لهذه الطقوس بومضة مفاجئة فأهدىء الأشباح التي تندفع من رأسها وتتحرك على أسفل بطني، حيث تحكم سيطرتها. خيل إلي وكأنها رأس معبود أحكم سيطرته على ضحاياه وتذكرت بعد ذلك، فتاة أيلاردي، نوفولا، أول امرأة علمتني الجماع بالفم حين كنت صبياً صغيراً.

حصل ذلك ذات يوم كنت فيه مصاباً بحمى شديدة. قالت لي نوفولا، كما لو كانت تخبرني قصة خرافية، إن الحرارة يجب أن نؤاسيها تماماً كما الحزن ثم ركعت بين ساقي كما لو كانت تود الصلاة من أجلي،كما لو كانت تود عبادتي. مررت بأصابعها على كتفي برقة، وعلى صدري وهي تخبرني أنه إذا لم يكن صبي ما علم بأشياء معينة فإن رأسه معرض لأن تملأه العناكب والأحلام المريضة والأفكار التي تنزلق مثل جراد البحر، وهو معرض لأن يصاب بالجنون. أخيراً انحنت فوقي وراحت تقبلني، على معدتي أولاً، وتذهب بشفتيها صوب عانتي حيث ظهرت أولى الشعيرات الناعمة.

كانت تغني بعذوبة فائقة: أغنية، قالت لي مبتسمة، من بو الفينيسي حيث كان المراكبيون يعودون بفخر القادة الأتراك، من رحلات طويلة، لتؤاسيهم زوجاتهم. ثم يسود الصمت وتموت الأغنية في حلقها وكان عضوي هو الذي جعلها تموت هناك.

رحت أنصت إلى أنفاسها. كان فمها وهو يتحرك، خفيفاً كما أنفاسها. أمسكت يدي ووضعتها على رأسها. من شعرها الناعم انبعثت حرارة كبيرة فيما كنت أشعر بنفسي وأنا أكبر في فمها، أكبر بكليتي بما فيها كل أفكاري وأحلامي. كانت أول مرة أقرأ فيها جسدي جنسياً: «أعني العلامات، النقط والفواصل وغيرها، الكتابات الغامضة الخفية، تلك التي نجهل أننا نحملها معنا غير أن أحداً قد قام بنقشها علينا: اكتشفت الكتابات وقرأتها برفقة نوفولا، وأنا أشاركها دهشتها.

*

فكرت بالنباتات والأزهار التي تتفتح بصورة مفاجئة، في يوم

من أيام الفصول، تنمو وتكبر لأن الربيع يغلّفها وتزيّن نفسها بالبراعم التي تتساقط من السماء بطيرانها اللولبي. نوفولا كانت ربيعي. وأنا، أي نبتة وأي زهرة كنت؟ لم ترجع نوفولا في اليوم التالي ولا بعده. رحت أتجوّل هنا وهناك باحثاً عنها وكأنها ذكرى جسد حين يشعر بها من بترت ساقه ولا يزال على يقين وهمي بأنها لا تزال تلازمه. وكأن عضوي قد بتره فم نوفولا.

ثم رأيتها ذات أصيل، وشاهدت ساقيها الرائعتين من تحت تنورتها القصيرة؛ ساقان فاحشتان ونقيتان في آن، وفي تنقلاتهما تجسيد لمفهوم الحرية.

كانت تغني أغنية من بو الفينيسي وهي تمشي برفقة رجل يطوق خصرها. توارى الإثنان خلف سياج من الشجيرات. اقتربت منهما وأنا أشعر بانقباض في قلبي. تسلقت السياج واختبأت بين الأشجار كي لا يراني أحد. كل ما كان بوسعي رؤيته كان حذاء الرجل المستلقي على العشب. حين توقفت نوفولا عن الغناء، شعرت برغبة في البكاء. بفضلها تعلمت هذا أيضاً: «إن امرأة قد شاركتها نفسك، بمقدورها أن تهب خدماتها الأكثر حميمية لرجل آخر وتنسى الأول من غير أن تعرف أنه هناك، يعرف ويشاهد. تعلمت أن ما من شيء أفظع من هذه المعرفة، هذا التخيّل، هذا السماع. إنها وحشية قد تقتل كل نقاوة في العقل وكل براءة في القلب.

إلتباسات شهيرة وسرية

المنزل الذي ولدت فيه، في بيازا إينزاني في بارما، كان أشبه بقفص عصافير تلغو وتثرثر فيه عماتي. كان لجدتي أميليا خمسة عشر إبناً وإبنة.

من الأبناء الخمسة مات واحد وسجن إثنان آخران لأسباب

سياسية وفرّ إثنان إلى الخارج بعد أن إتهما بنيات تخريبية مختلفة. في بعض الصباحات، كانت عماتي العشر يخرجن جميعهن إلى الشرفة، ويبدأن بالصياح في مرح واهتياج وفساتين فضفاضة. كانت أيديهن تصفق اهتياجاً فتذكرني بحمامات تسوي ريشها بمنقارها.

كنت أزور المطير فاتسلل إلى غرفهن مستكشفاً. كنت أدخل غرفة عمتي ماريا التي كانت تمضي وقتها جالسة إلى طاولة صغيرة تقرأ طالعها في الورق، أو إلى غرفة عمتي غيليا التي كانت تصلي باستمرار في محاولة لتغيير قدرها الذي لا يبشر بالخير. وفيما كنت أمشي طوال الرواق، كنت ألصق أذني ببابها فأسمع صلواتها الصامتة وكان يهيأ إليّ أنها لا تتوقف ولو للحظة. غرفة عمتي أديل كانت الأكثر إغراء بكراسيها الخشبية وأريكتيها المحشوتين بالريش وسريرها النحاسي الكبير. في غرفة كانت عمتي أديل تطلي وجهها بمختلف أنواع الكريمات التجميلية وتجرب فساتينها باستمرار. كانت مزيجاً من الجاذبية والفظاظة: عينان خضراوان مكحلتان بكثافة، وجنتان ارستقراطيتان، وفم مرسوم بحمرة كثيفة، ذراعان دقيقان، ساقان مكتنزتان وقدمان صغيرتان. كانت أخواتها توبخنها باستمرار ما يدفعها إلى استفزازهن أكثر فأكثر. كانت مغنطيساً تجتذب الفضائح. أنفقت كل ما كانت تجنيه لشراء المجوهرات المستعملة وخصوصاً الخواتم والأساور. كانت تتجول عارية أو شبه عارية في أنحاء المطير مرتدية الأثواب الفضفاضة الشفافة، وتخالجها بغبطة كبيرة إذا ما نجحت في إغاظة شقيقاتها. كانت تختلج بسعادة إذا ما وصفت بالعابثة المخزية، وتتفاخر بعدم قدرتها على إحصاء عدد عشاقها: من كل منهم كانت احتفظت بتذكار ـ صور وأشياء مختلفة ومبتذلة في معظم الأحيان ـ تذكارات

عشاقها كانت تملأ الخزانة. خردوات ملكة الحب، كانت تضحك.

وعندما حان الوقت لأن ترحل بعيداً إلى أرض سعيدة، تدبرت أمر نقل الخزانة معها. كنت التقي صدفة برجال لا أعرفهم، كانوا تركوا دراجاتهم النارية في الفناء.

قبل أن يوصدوا وراءهم باب غرفة العمة، كانوا يربّتون على كتفي بشيء من الحيرة والذهول.

غير أن الغرفة التي كانت تجتذبني أكثر من غيرها، كانت غرفة عمتي كارمن. على عكس أختها أديل، كانت كارمن تحتقر جمال جسدها الذي كان الكمال بحد ذاته: ملامح إسبانية ورثتها عن والدها، وجه بيضاوي الشكل يلفه الغموض بهالة سحرية تظهر تقاسيمه النابضة بالحياة والكبرياء. وفي هذا التناقض كان ثمة رقة واهنة وأحساس بعمق روحي كبير. النظر إليه كان يدفعني للتفكير بالآثار التي تتركها الطبيعة على الإنسان بغموض وبلا سبب ظاهر، تماماً كما تفعل بالنبتة أو بالزهرة.

كانت عمتي كارمن تحاول أن تفهم مظهرها هذا، وتفتش عنه في المرآة بتصميم تحول إلى هوس، وسرعان ما انتابها حالة نفسية متضاربة لا مخرج منها. في أوقات معينة كانت تشعر بالإحتقار إزاء ذاتها، وفي أوقات أخرى، كانت تشعر بالغطرسة والتعجرف. وإذا ما كان الإحتقار يشعرها بأنها جديرة بجمالها فإن الغطرسة كانت تعوقها من مشاركته مع الآخرين. أي رجل كان يستحق السمو إلى مفاتنها حتى ولو كان ذلك في علاقة زائلة، وهذا من دون ذكر العلاقات الأكثر شغفاً والتي كانت تعتبرها، على أية حال، سوقية ومبتذلة؟ تسبب لها كل هذا بكرب كبير انعكس في الفوضى التي كانت تعم غرفتها وهذا ما كان يزيد من عذابات

كارمن التي خلصت إلى الإقتناع بأن الجمال الخارجي هو نوع من الجريمة التي تدمر السلام الداخلي وتحول الإنسان إلى مخلوق مقصي عن العالم. وعلى عكس العمة أديل، كانت عمتي كارمن تترقب مرور السنوات لكي تصير عجوزاً، وتأمل أن تقرأ يوماً آثار الخراب على وجهها كما لو أن امرأة عجوزاً تتحرر قيودها فيتسنى لها التحرر من نفسها.

كان الرجال الذين كانوا يأتون في الليل لزيارة العمة أديل يرون أحياناً كارمن واقفة من دون حراك في آخر الرواق وكأنها تنتظرهم في الظل، ولكن ما إن يقوموا بخطوة واحدة نحوها حتى كانت تتوارى على الفور. كنت أتساءل مذهولاً لماذا كانت العمة كارمن تعلق على جدران غرفتها باستمرار صور ممثلين وممثلات شهيرين، رودولف فالنتينو، غريتا غاربو، مارلين ديتريش... ألم تكن هذه العبادة الظاهرية لتتناقض ورفضها لتأليه جسدها؟ فهمت لاحقاً حين اكتشفت بين الأغراض المكدسة في غرفتها، مجموعة من الكتابات الغريبة: سير حياة، مذكرات يومية، اعترافات حقيقية ومنشورات نادرة أيضاً.

وللمرة الأولى وجدت نفسي أقرأ صفحات مستوحاة من التباسات جنسية.

تأثرت، على وجه خاص، بيوميات رودولف فالنتينو السرية، الإله القاتم، معبود ملايين النساء. قد لقبه بعض الظرفاء اللاذعين بـ «المذررة الوردية اللون» وكتبت صحيفة شيكاغو تريبيون ما يلي: «لكان أفضل بكثير لو أن هذا الشيء الزغِب الوردي اللون الذي لا يخطو خطوة واحدة من دون ماكياج، هذا الفتي الجميل إبن البستاني السيد غوغلييمي، المعروف بفالنتينو، لكان أفضل لو أن

أحداً أغرقه في بركة قبل أن يُنقل إلى الولايات المتحدة». تزوج فالنتينو من سحاقيتين شهيرتين: جين أكير، وناتاشا رامبوفا.

في هذه اليوميات السرية والرهيبة إلى حد ما ، يوميات ممثل احتل مكانة عالية في التاريخ الشعبي بوصفه أنموذج غاوي النساء الأول، سطرت العمة كارمن مقطعين:

«٢٧ حزيران/ يونيو. لم أعد قادراً على تحمل المزيد. غداً سوف أركب السفينة. حين أفكر بأن ناتاشا في باريس، حين أفكر بذراعي تلك المرأة... كم هي بغيضة الغيرة».

«٥ تموز/ يوليو. ليل باريس عمل على تفريقنا أكثر من ذي قبل. رفضتني مجدداً... في الرابعة صباحاً تسللت إلى خارج الفندق. رحت أطوف شوارع هذه المدينة الرومنسية الساحرة».

«لا أدري إلى أين يمكنني الذهاب لأتنفس مجدداً».

«... وكأن لهيباً يفترسني، أتحرق رغبة لممارسة الحب، وناتاشا لا تريدني. تبعني صبي جميل طوال ربع ساعة وأخيراً تكلم إليّ خارج الأوبرا...».

«عدنا إلى منزله وأثناء صعودنا الدرج كان قد انقض علي وراح يقبلني وشعرت بأني تحررت من قيودي... مارسنا الحب كنمرين حتى طلوع الفجر».

في غرفة عمتي كارمن قرأت أيضاً اعترافات مرسيديس دي أكوستا، شاعرة وكاتبة سيناريو هوليوودية في الثلاثينات والأربعينات. مرسيديس، غاوية الشهيرات، غاوية المغنيات الكبيرات فوق كل الشكوك، والنجمات المتعذر الوصول إليهن. كانت غريتا غاربو مولعة بالغاوية العظيمة. وقد انتهت فصول حبهما التي شهدها كوخ في سييرا نيفادا، حين روت مرسيديس

تفاصيل العلاقة في سيرتها الذاتية:«ايام من الكمال المطلق والانسجام التام مع الطبيعة من حولنا». وكان ثمة صور فوتوغرافية تشهد على روعة تلك الايام: صور امرأتين عاريتين بجانب البحيرة. ايزادورا دانكن كتبت قصيدة اباحية لمرسيديس دي أكوستا: «قبلاتي تشبه النحلات الذهبية ـ تلسعك بإبرها ـ بين ركبتيك...» مارلين ديتريش كانت تتودد إلى مرسيديس بباقات ضخمة من أزهار التوليب، غير أن مرسيديس أعادتها إليها وعبرت لها عن امتعاضها لأن منظر الأزهار كان قضيبياً أكثر من اللزوم. وراحت مارلين، تكفيراً عن فعلتها، ترسل لها باقات من الورد الزهري اللون مرتين في اليوم الواحد وترفقها بالرسالة نفسها: «حبنا سوف يكون أزلياً». وكانت دي أكوستا بفخر وتبجح: «بإمكاني أن أبعد أي امرأة عن أي رجل». وحين إنتقدها ترومان كابوت بكلمات قاسية ردت عليه بحدة: «إسألوا زوجي، حتى أني اصطحبت صديقة لي في أثناء شهر العسل». كانت مرسيديس تحتفظ بصورة دائمة بكتابات من ديتريش وفيها أقرت «الملاك الأزرق» بعقيدتها الخاصة: «أمارس الحب مع كل من يعجبني ولا يهمني إذا ما كان رجلاً أو امرأة».

*

ثنائية الجنس الأنثوية، حين تتمظهر في علاقات مع نساء أخريات، ينظر إليها في الغالب كانحراف مثلي واضح ناشىء عن شذوذ ما. في معظم الحالات، ليس الأمر مرضياً بالمعنى الحقيقي إنما هو أشبه بنبتة تنمو من برعم الأيروتيكية الذاتية. ومن يؤكد، على أهمية النرجسية في هذا الإطار هو محق: قد تبحث امرأة، خصوصاً في عمر المراهقة أو مراحل الشباب الأولى، عن

جنسانيتها الخاصة عبر جنسانية إحدى صديقاتها. إنها الطاقة الأيروتيكية الكامنة التي تبحث عن شكل لها. واكتشاف بعض القدرات في جسد مماثل، هذه القدرات تعجز المرأة عن السيطرة عليها بطريقة واعية، في وقت من الأوقات، وهذا بمثابة إضرام «للفساد الشفاف» الذي ليس ظاهري التناقض، وهو يتمظهر على شكل تعبير غير سهل للفضول.

إقرأ: «بعيداً عن التباس العوامل التي تحدد الذكورية والأنثوية، فإن كل شخص، أياً كان جنسه، يمتلك وبنسب متفاوتة عوامل من الإثنين، وعلينا أن ندرك أن النساء ثنائيات الجنس أكثر من الرجال.

ثمة مقطع كتبه روبرتو لونغي تتوافق فيه نظريته مع هذا التحليل حتى لو أنها تبدو عرضية وغير جوهرية. يقول لونغي إن مايكل أنجلو كان ممكناً أن يصرخ قائلاً وكما ردد بيكاسو إلى براك ساخراً: «كوريجيو هو امرأتي». داخل إحساس كل امرأة، حلم أيروس، مرسوماً داخل رأسها بيد فنان مبدع. ثمة مايكل أنجلو، أو كوريجيو. واستشهد بعبارات لونغي: «هناك تعيش قوة تحديد الحساسية المنطوية، وذا ثانية الميل العميق إلى المظهر الجنسي، والإذعان السقوبي أمام عدائية مايكل أنجلو الرجولية... هذه الطاقة الثائرة، هذه الطنانية المحدبة الممزوجة مع الصور الخبيثة ونعمات كوريجيو المقعرة. استمعت لإعترافات كثيرة أدلت بها نساء ونساء أخريات أحببنهن. ما كان يحركهن لم يكن التباس شغفهن، بقدر ما كان شغفهن بالإلتباس. وبعبارة أخرى كن يشعرن بالصفاء والسكون إزاء بعض التجارب وكن كذلك قادرات على إحكام السيطرة على هذه التجارب بوصفها أفعالاً عرضية يضيئها إحساس باللعب في مجرى توازنهن النفسي. وفي كل مرة يشعرن بالخوف

من العدائية الذكورية وأسطورة الإغتصاب المرعبة، كان الإدراك الأول للتبادلية الجنسية يتمظهر من خلال هذه المداعبات وهذه القبلات...

أدلت صديقتي أ.ب. باعترافها لي:

«أجل. يحدث أحياناً أن أتماثل مع أمرأة، في توق متبادل لحب مستحيل لما أني مع الرجال قد أصبت بخيبات أمل عديدة وتسببت أيضاً بخيبات أمل. أيروس بوصفه المؤاساة المتبادلة، أيروس بوصفه علاقة صداقة كذلك: صداقة مع إمرأة ليس بمقدور رجل أن يفهمها.

«كنت في السادسة عشر وقد حصل ذلك خلال الليل. كنت وصديقتي نائمتين في سرير واحد بجانب والدتها. بدأنا نتلامس ونتبادل القبلات تجتاحنا إثارة كبيرة أيضاً بسبب خوفنا من أن تستيقظ الوالدة. في البداية قمنا بذلك بلذة، جمال الشعور بقلبنا في حلقنا، ثم وبنوع من الفرح المختلس وسعادة أن نعيش شيئاً سرياً، ممنوعاً بجانب شخص بالغ وصارم ينام على جنبه... فعلت ذلك مرات أخرى، مع نساء أخريات. كنت أحب، تحديداً، أن أكون فوق أجسادهن وأتصور نفسي كما لو أني أقوم بما يقوم به الرجل... هذه الإثارة كانت تبدأ دوماً بشعور بالإرتباك والكآبة، لعدم وجود رجل إلى جانبنا، رجل جدير بأن يحظى بإحساسنا وبنشاطنا الجنسي... أو ربما بسبب عدم الرضى من الرجال، أولئك العشاق البائسين الذين لايعرفون ماذا يفعلون بأعضائهم أو بأرواحهم. احتفظ بذكريات عن بعض الألعاب الغرامية.

حين تبدأ امرأتان بالتعبير عن نفسيهما أمامي، بدون حاجة للكلمات، بتواصل صامت من خلال لمساتهما.

قبالة نور النافذة، كانت صديقة تلقي برأسها على كتف صديقتها وتضمها بين ذراعيها. كانت رؤية ظهريهما العاريين المتلاصقين فيما كانت الرياح خارج النوافذ تنتزع الأوراق وتلقيها على الأرض بدوران لولبي، تستحضر صوراً من معابد شرقية.

ومشهد امرأتين تتعريان والواحدة منهما تراقب الأخرى من على جانب السرير يحمل شيئاً قدسياً أيضاً؛ حتى في أكثر الحالات قذارة يحتفظ هذا التمهيد بنقاوته. تحدق الواحدة بالأخرى بحنين إلى نفسها يتمظهر شيئاً فشيئاً فيما تقوم بتعرية جسدها وكلما ازداد الإلتباس والفساد ازدادت قوة الحنين لحميمية كانت منذ وقت طويل، غير ملوثة.

سخرية، سخرية...

I

في البورتيكو دوتافيو كان الرجال من عالم الإجرام الروماني يلعبون لعبة البالامورو. هذه المساحات السفلية السرية، البعيدة عن كل تصور، كان يستخدمها الرجال أروقة للرمي وكانت ثقوب الرصاصات تتضاعف فيما أنت تنظر إليها. في ذلك المكان تمّ أخيراً اكتشاف جثتين مقتولتين. هنا كانت الفسحات الحمراء والسوداء هي السائدة وكانت كأنها من رسم شيبيو. كانت رائحة مياه التيبر القارصة تتسرب وتركد تحت النوافذ وثقوب الأبواب، وبين المساحات والجسور البعيدة. غالباً ما كنت أذهب إلى هناك. فبعض اللقاءات لم تكن لتحدث إلا هناك. وأنا إذا ما كنت لا أزال أسكن في روما فهذا لأن المدينة لا تزال تحتفظ بطاقتها المنحرفة هذه: إنها تخلق ومن ثم تحل سريعاً التقاطعات المدهشة في الوجود، الأمر كان مشابهاً مع دوناتا.

تجدر بي الأشارة إلى أن لعبة البالامورو تختلف عن لعبتي كرة اليد والبلوتة. إنها لعبة من دون ماض وبالتأكيد من دون مستقبل.

وهي قد لا تكون معروفة إلا في بورتيكو دوتافيا. يقذف اللاعب الطابة بواسطة قفاز جلدي ضخم شبيه بالزعنفة السوداء. والهدف الذي يتم تحريكه ميكانيكياً تكون سرعة تحركه فائقة. وعليك أن تصيب النقاط الثلاث الحمر. إنه رمز الصراع ضد الوقت. الكرات ترسم مسارات فارغة لا معنى لها ويرافقها صراخ ولعنات وشتائم.

تتلقى يد الرجل ضربة الكرة العنيفة، ثم يعيد رميها بالطريقة نفسها ولكن إلى مسافة أبعد بقليل.

أليس الوقت هو العنف بحد ذاته، نهاية بحد ذاتها، ينطلق ليعود مجدداً؟

كانت دوناتا ـ وقد أدركت هذا على الفور ـ مغرورة وعنيفة بطبيعة إزدواجية؛ جزء منها طابة والجزء الآخر قفاز.

مفترسة قوية وعبثية عديمة الجدوى كمثل الرجال الذين يلعبون البالامورو. كانت مستلقية على الكرسي الحديدي بجانب مقعدي على طرف الغرفة السفلية: كانت الطابات تصفر فيما تعبر بجانبنا كمثل رصاصات ليلية يطلقها رجال العصابات الرومانية باتجاه ضحايا تمّ التصويب عليها.

الناظر إليها كان يتحسس فيها نشاطاً جنسياً لا يقل سواداً وخطراً عن هذا المكان: بالكاد بلغت الثمانية عشر، رائحة أنثوية كمثل رائحة التيبر، ثديان ضخمان رائعان، تساءلت ما عساها تفعل هناك. ما كانت علاقتها باللاعبين القتلة على الأرجح، المتدثرين بمآزرهم الجلدية التي تلمع من العرق المتصبب على أكتافهم وأذرعهم العارية؛ وأيضاً بالرجال الآخرين المتكئين إلى الجدار وهم يزعقون رهاناتهم بصوتهم الأجش؛ ثمة إثارة جنسية

دفعت دوناتا للقيام بحركة بدت غير مقصودة غير أنها كانت في الحقيقة في منتهى الفحش. انزلقت أصابع يدها اليمنى بأظافرها الطويلة المطلية بالأحمر، إلى ما بين فخذيها فوق جينزها الضيق وراحت تضغط على عانتها بحركات سريعة نزقة. أدرت وجهي لأحدق فيها. لم تتوقف ولم تكترث للطابات المرتدة التي كان بإمكانها إصابة جمجمتها في أية لحظة. أخيراً ابتسمت لي فتراءت لي أسنانها شبيهة بأسنان آكلي لحوم البشر. لم تقم بأي حركة قبل أن يتوقف اللاعبون. لم يبق أحد في هذه الفسحة السفلية المظلمة التي بدت وكأنها ساحة السوق بعد انتهائه: أضواء قليلة خافتة، مآزر معلقة، قفازات جلدية كالزعانف تتدلى من على الرفوف المسننة وهي لا تزال تحتفظ بشكل قبضات الأيدي الغاصبة التي ارتدتها، طابات مبعثرة على الأرض، طيور الليل على النوافذ وعلى الحائط قبالتنا حرف «أ» ضخم. «لنذهب إلى منزلي» قالت.

الفراغ كان كل ما نقلته دوناتا إلي. كان جسدها يتحرك بارتجاج لا متناغم وشهوانية خسيسة قذرة. ما الذي جرّني إذاً وراء مشيتها السريعة في العتمة، ما كان يشير إلى أنها تعرف جيداً كل تعرّجات المدينة الضيقة؟ القرف؟ ونيتها الواضحة باستغلال سذاجتي المفترضة؟

كانت عبثيتها هي التي تحفزني. ليس بالمعنى الميتافيزيقي إنما لأنها أقصى درجات العبثية قادرة على التسلسل بين جمالات الحياة وقساواتها وأن تمد، في طريقها خطوط اتصال بينها. كانت دوناتا تمارس إغواءها عليّ بافتقار كامل إلى الجاذبية، وفي الوقت نفسه لا يمكن مقاومتها.

في هذا المعنى، كانت ليلة رائعة ومشبعة.

غرفة وحيدة، سرير مخرب إلى جانب الحائط، وعليه غطاء جلد فهد زائف، طبول حرب أفريقية فوق اللوحة الرأسية. رمح صومالي. على الأرض أكداس جرائد يغطيها الغبار. تظاهرت أني لم أر عناوين عن جرائم مختلفة. أحذية في كل مكان، ومعظمها أحذية رجالية. كانت رؤوس الأحذية الملونة تطل وكأنها أنوف مهرجين. غير أن الذين اعتادوا التسلل إلى هذه الغرفة وهم على الأرجح لاعبو البالامورو نفسه، كانوا ينشرون ذخائر أخرى هنا وهناك: سراويل وقمصان تحتية، أحزمة. كان باب غرفة الحمام مفتوحاً وفيه لمبة لازوردية كانت تضيء الوحدة. النوافذ التي كانت تسرب القليل من الهواء، كانت بمستوى الرصيف في الخارج (كنا في الطابق السفلي) من أحد الأبنية في سان جيوفاني.

أطفأت دوناتا النور. أغلقت الستائر بحذر. سألتها لم تقوم بذلك؟

«حتى لا يعرفوا أني هنا». أجابت «حتى لا يعرفو أني أحيا». «ولكن من هم هؤلاء؟».

«الرجال» أجابت بفظاظة.

«أي رجال؟»

نظرة متجمدة.

«إنهم من أنواع مختلفة» قلت مضيفاً «منهم المثقفون على سبيل المثال أو رجال شرطة. من هم الذين تخافين منهم؟ رجال البالامورو؟»

«الرجال جميعهم. أود لو أراهم كلهم معلقين من أرجلهم في بيازال لوريتو». لم تضف كلمة واحدة.

رغبت بأن أذكرها بأني أنا أيضاً أنتمي إلى السلالة التي كانت تحتقرها. غير أن تصرفي هذا لكان خطأً. كان واضحاً أن في أثناء هروبها من الحقيقة الذكورية كانت تغويها التفاهة الذكورية مثلما كانت تغويني أنا التفاهة الأنثوية في تلك الليلة. هكذا كنت أنا في عينيها. كنا لا شيئين يتجاذبان كالمغنيطيس. شربت عدم دوناتا الشهواني حتى التفل. سعيت وراءه داخل تركيبتها البنيوية كما لو كنت أعبر ممرات المتاهة. تتبّعث خصلات شعرها المفكوكة، خط خصرها بشره ووساخة. المولود الجديد الذي يمتص الغذاء من حلمتي والدته ممزوجاً بالعدم الجيني. استخدمت ثديي هذه الفتاة الضخمين. استكشفت بطنها، عانتها الشبيهة بالأعشاب الضارة، المطبوعة عليها كما الحرف «أ» على حائط ملعب البالامورو.

من جهتها، استكشفتني دوناتا وراحت تتلمس طرقها بكامل العمى الذي في روحها. ومعروف لدى الجميع أن العميان هم أسياد الظلام.

مرات عديدة خشيت أن أذوب في ذلك البطن. وفهمت حكمة الكتب المقدسة القديمة. كانت دوناتا تجسد الثلاثية الشيطانية في المعتقدات الكلدانية ـ الأشورية القديمة: ليلو، الحضون ـ الشيطانة؛ ليليتو، السقوبة الشيطانة، وأردات ليلي، خادمة ليلو وليليتو التي كانت تختار لهما العشاق لتفترسم.

كانت تجسد كذلك بالطبع القضيب الذكوري وكل الأدوات الذكورية الأخرى. لمعت في ذهني صور أشياء نحاسية مختلفة وبينها كان ثمة شيء فضي على شكل قلب مسنن ينتصب بين الباقي؛ لم يكن سراباً إنما سيفاً حقيقياً: الرمح الصومالي! بإمكاني الإستعانة بها لو اضطررت.

حين فتحت شقاً في النافذة، انساب شعاع الشمس على دوناتا لاهثة تتصبب عرقا مثلي أنا.

جلّ ما فعلته كان أن وضعت رجلاً على رجل وابتسمت لي ابتسامة وكأنما تتوقع فيها أن أبادلها الضيافة.

«كيف هو منزلك؟» سألتني.

«واسع» أجبت وأنا أنقّل نظري في أنحاء الغرفة الخانقة.

«إنها تطل على منظر طبيعي».

«هل تعيش مع أحد؟»

«كنت أعيش مع زوجتي. حالياً أعيش بمفردي».

«هيا بنا. لنذهب» قالت.

كنت قد غزوت العدم في فضائها.وقد عزمت هي على غزو العدم في فضائي. لم تعطني الوقت لأعترض. خرجت وهي تحمل حقيبة واحدة وشبكة وضعت فيها طبولها الحربية. أيا يكن، فكرت، أن العدم لا يكترث لا للماضي ولا للمستقبل، إنه بحاجة إلى نفسه وإلى موسيقاه المفترسة ليس إلا. ركبنا السيارة. وجعلتني على الفور أدور دورات عديدة في الطرقات الفرعية في أنحاء سان جيوفاني وفي الشوارع المتسخة بين المنازل المهيبة.

«توقف» قالت لي بلهجة آمرة.

طلبت مني أن انتظرها. ثم عادت ودلفت من باب مدخل وهي تؤرجح قفصاً تزقزق فيه عصافير صغيرة متنوعة. من منزلين آخرين - وفي أغلب الظن للأصدقاء وجوه - خرجت حاملة أكياساً بلاستيكية ممتلئة بالثياب وكان الأصدقاء بوجوه لاعبي البالامورو المجرمة، يساعدونها على تحميل الفساتين وعلب الكرتون وآلات

التسجيل والملصقات الملفوفة، من دون أن يتنازلوا ويوجهوا إلي ولو بإيماءة صغيرة.

وهكذا كانت دوناتا وكأنها تنبعث ثانية من بين الرماد. حساباتها الغادرة معي تحولت إلى فرح عارم. تابعنا توقفنا هنا وهناك، وكانت بين الفينة والأخرى تصرخ فجأة لتأمرني بالتوقف. كانت تشير إلى نوافذ وأبواب وتعود مهرولة إلى السيارة وهي تحمل تحت ذراعها حيوانات مختلفة: كلاب وقطط انضمت إلى العصافير، أغراض تتكدس فوق بعضها البعض، وكانت تتمظهر أمامي خلفية وجودية لم أكن لأتصورها أبداً عند دوناتا؛ خلفية تتجسد مزخرفة في غرض ما، في حيوان، في علبة سرية، أو رزمة صغيرة.

رجال آخرون، بلحاهم المهملة ومعهم صديقاتهم بأجسادهن التي تحمل آثار رضوض، ووالداتهم قوادات بناتهن. حمّالون رسمت على وجوههم معالم الفساد، يتبعون دوناتا ويقدمون لها العون. كانت السيارة تفيض بالأغراض. وكان بوسعي أن أتصور شقتي. حين كنت أجتاح ملجأ دوناتا وأتذوق طعم الإلغاء وكأنما تصورت مسبقاً أنها سوف تمتلكني في ما هو أكثر من استقرار دائم، أي فوز الإستقرار الزوجي.

«لحظة يا حبيبتي» قلت لها.

أوقفت السيارة تحت نصب عمودي في بيازا ديل بوبولو.

«لحظة واحدة».

تركتها هناك تدخن بشراهة وقد مدت مرفقها من الشباك. ها هي بادية الضراوة والرصانة وكأنها أسد تمّ ترويضه، بين عصافير تزقزق، وكلاب تضرب بكفها زجاج السيارة الخلفي وعلب تقع

على علب أخرى، وفساتين تطير في الهواء. كانت السيارة كمثل سيرك صغير، وقد بدأ رجال الشرطة يطوفون حولها مشتبهين بأمرها. دخلت إلى مقهى كانوفا وخرجت على الفور مختبئاً وراء أحد المارة. في بعض الظروف لمن الرائع أن يكون الواحد شريراً. فررت باتجاه بينشيو. لم أكن قد ركضت مفعماً بهكذا إبتهاج منذ سنوات عديدة، وتفاجأت ليس فقط بقدرتي على الركض بهذه السرعة إنما أيضاً بقدرتي على التظاهر برباطة الجأش.

لم أعرف قط ماذا حصل لدوناتا أو لسيارتي (تقدمت بتقرير إلى الشرطة أبلغ فيه عن سرقتها) لم أرجع قط إلى بورتيكو دوتافيا لمشاهدة قطاع الطرق يلعبون البالامورو.

قرأت في الصحف أن جثة أخرى وجدت في أحد الممرات التحأرضية. أكانت تلك جثة دوناتا؟ الضحية أظافرها طويلة مطلية بالأحمر. إن العدم يفضي إلى العدم، وفي هذه الحالة يصبح عدماً ميتافيزيقياً أبدياً. ثمة بالنهاية عدل في كل شيء.

II

كانت نوافذ منزل سيبيل وينرز تطل على أيزولا تيبيرينا. في غرفة الجلوس الشبيهة بمحترف فنان، كانت المصابيح الكهربائية تضيء زخرفات «موهن» فيزداد توهجها، وكذلك صور إيفون شيل المكبرة وأعمال فناني غابونز. من بين القوى التي تمتلكها روما ثمة هذه أيضاً: قدرتها على خلق واحات تضم أذواق وأناقة الناس الآخرين. هذا المنزل هو ملجئي الليلي المفضل.

وبما أن سيبيل هي سيدة الحيل، أدعوها سراً «سيدة الألف ليلة وليلة». لا تزال ترحب بي في أية ساعة وبكل سرور. إنها تحترمني

تحبني على طريقتها. ولكننا كنا قررنا أن نبقى في حالة «الماقبل» ـ وصديقتي تبدي صراحة شديدة حيال هذا الموضوع ـ لهو مسل للغاية أن نبتكر مقدمات هي على الأرجح، الجزء الأهم في العلاقة.

«أوليس الفجر هو أكثر أجزاء النهار إثارة للذكريات والعواطف؟» تردد على مسمعي. والعطش قبل أن تشرب من ماء نبع بارد في أعالي الجبال، أوليس تعذيباً لذيذاً، شيئاً ثميناً؟». أحياناً تنجح في إقناعي. في ما يتعلق «بالماقبل» ـ الأشياء قبل أن تحدث لهي أجمل بكثير، أوافق ممازحاً: إن الحياة قبل أن يطرأ الموت، لهي أجمل بكثير، ومن دون شك، من الموت نفسه. علينا التواصل باستمرار مع الأشياء.

تشعر سيبيل بالعطش. جسدها يذكر بالمرأة التي تظهر في «السمكة الذهبية» لكليمت، وتعرض ردفيها أمام المشاهد بكل فخر وزهو. وحين نكون بانتظار طلوع الفجر، وحدنا، ومن ثم تتوجه هي إلى السرير لتتعرى أمامي، يخطر على بالي أن كليمت قد تقصد نيات معينة لعنونة رسمة بعبارة «الماقبل».

«هل ترى كم هو رائع «الماقبل؟» الرغبة في ذروتها، إنك تشعر برغبة لا تقاوم بمد يدك لتلمسني ولو قليلاً... غير أن ما تلمسه هو رسم وهمي». وكانت تحثني «هيا ألمسني». أطيع لكني أعجز عن إقناع نفسي بأن ردفيها هما وهم أو أخدوعة. واعترف لها بهذا فتجيب: «هذا لأنك لا تعرف كيف تحرر نفسك من ماضيك». ثم يروق لها أن تتلاعب على الكلمات:

«أنت لم تمارس الحب أبداً مع «الماقبل» قبل أن تلتقي بي».

«أبداً» أجبت موافقاً.

«هذه رذيلة يجب أن تتخلص منها. أنت لمستهلك عنيد للمابعد. أنت مثل المدخن المستعبد. يتوجب عليك أن تبدأ. المهم أن ترمي السيكارة الأولى التي تلتصق بفمك بطريقة أوتوماتيكية. هيا جرب هذا».

وقالت لي ما العمل:

«سوف تتعرى أنت أيضاً. وتأوي معي إلى السرير.

سوف ننام إلى جانب بعضنا البعض وهذا كل ما في الأمر.

سوف نشعر بحرارة جسدينا ليس إلا وفي دفئنا المتبادل.

سوف يكون جماعاً وهزة جماع. أغمض عينيك، استرخ وسوف ترى أني محقة».

أغلق عيني وأبقي على يدي بالكاد تلامس فخذها، من دون أن أتحرك. وتشرع تخبرني عن التوق الذي يسهل إشباعه من دون أن يتم إشباع الجمال الذي فيه.

«هل أنت مسترخ؟ هل تشعر بالنعاس؟»

«لا يا سيبيل. أنا آسف. لكن لا تقلقي. أخلدي أنت للنوم. ودعي لي «الماقبل»، سوف أسهر عليه...

قبل الخلق حين لم يكن هناك أي قلق أو وحدة أو أي إغراءات مستحيلة.

«ألم أكن على حق؟»

«بلى ، حقاً. ومن ثم جاءت الفيات لوكس... أخلدي إلى النوم يا سيبيل. قريباً سوف يطلع الفجر على أية حال. سوف يصير

الضوء... ضوءاً». وبإمكاني أن أنهض وأرحل بعيداً وأدعك تعانقين «الماقبل» خاصتنا، الذي هو عاشق رائع. سيبيل تحب شونبورغ بالتأكيد. وراحت تحثني مجدداً:

«عد طفلاً. وتماماً كما كنت تعد الخراف، فكر ببيارو. آه. لقد كذب «القداس الأحمر» حين صعد بيارو إلى المذبح وعرض على المؤمنين القربان الأحمر الملطخ بالدماء. إنه قلبه! إنه يمسكه بين أصابعه ويقدمه لهم محذراً إياهم ألا يبذروا نفسهم في تفاهات الحب، في نار الواقع التي تحول بلحظة كل شيء إلى رماد.

أحاول. الآن أنا أكره بيارو بقدر ما أكره شونبرغ.

ما باليد حيلة يا سيبيل أنا أحب فردي وروسيني.

«فن تجاري».

تجاوزت حدودي. لمستها. ولكن بإسم شعر مثالي ونغمات لم يستطع أحد أن يطفئها في قلبي. ليس لهذا أي علاقة بالشهوانية. وقد بقي الماقبل سليماً.

«دموع كثيرة» رددت بإزدراء وانقلبت على جانبها متخذة وضع السمكة الذهبية. فعلت مثلها واتخذت الوضع الأبسط لشخص يدير ظهره. «شغف فائض باستمرار» أضافت.

*

... غير أنه في تلك الليلة كانت دموع الشغف الفائضة هي دموع سيبيل نفسها. أعتقد أن واحداً من عشاقها ـ الذي لم تشاركه قط الماقبل ـ قد تركها من دون إنذار وعاملها بوحشية. أنا وحدي منّت علي سيبيل بامتياز «الماقبل» هذا وهي قد اعتبرت أن الآخرين غير جديرين به وهم كثر؛ إنها تبكي، جميعهم جديرون

باحتقارها. يجدر بي أن أعتبر نفسي محظوظاً. لا يحظى المرء كل يوم بامرأة رائعة. إمرأة تحفظ شونبرغ عن ظهر قلب.

III

حصلت هذه القصة حين وجدت نفسي بين تقاطع مرحلتين من حياتي الأولى، حين كنت طفلاً بريئاً بالقرب من عري البيناسافي على الحصى في مجرى النهر الجاف، والثانية حين مارست الحب للمرة الأولى مع أدا فيتالي في غيار، قرية المناجل. كنت أشاهد فضول الرجال للنساء ينمو من حولي. وقمت باكتشافين دفعة واحدة: إكتشفت أن إكتشاف فضولهم جعلني سعيداً. كنت صبياً صغيراً يطوف بمفرده ضواحي بارما. وكنت أتوقف أحياناً أمام الكوخ حيث تعيش فابريزيا أورلاندي المعروفة بإسم «الحفلة غير المقنعة».

*

كان المنزل يبدو مكتئباً إلى جانب مبنى كبير قيد الإنشاء وقد بوشر بإنشائه قبل سنوات: كان من المتوقع أن يكون مدرسة غير أن مراحل بنائه كانت تتقطع باستمرار وبغموض من دون أن تعرف الأسباب الكامنة وراء هذا. وبقي المبنى واقفاً هناك بطبقاته الخمس المشرعة على الفراغ، من دون جدران، أشبه بسقالة أسمنتية ضخمة، يوحي بغطرسة غامضة مثل تلك التي توحيها المباني غير المنجزة.

لم يكن في هذه المنطقة من الضاحية سوى الكوخ، ذلك الشيء الظريف والمبنى، ذلك الملك السخيف.

كنت أختبىء لأتفرج على العارضات المتحركة وسياج القصب

تاج الملك المسحوق. إن صبياً صغيراً لهو أشبه بتحرٍ حاذق لما أنه لا يحتاجٍ لأن يحل لغز الحياة فيشرع في البحث، وغالباً ما يجد حلولاً لظواهر تعتبر هامشية بصورة خاطئة. وهكذا لاحظت المسرحية الإيمائية التي كان الرجال يحضرون لها بصورة دائمة وهدفهم واحد: رؤية ما وراء نوافذ فابريزيا. وأدركت لاحقاً كذلك، أنها كانت المرأة الإفتضاحية الأكثر جرأة، والأكثر إغراء في مدينتنا.

«إنهم سوف يشاهدون جسد الله نفسه في الفتاة أورلانديني». صرخ أحدهم قائلاً فيما كان يتسلق المبنى. «إنهم يحجزون أماكنهم «للحفلة غير المقنعة».

كان المتسولون من نماذج مختلفة. بناءون لم يكونوا بنائين فعلاً؛ مهندسون ومراقبون غير مؤهلين على الإطلاق.

قبل أن يبدأوا مغامرتهم صعداً، كانوا يخلعون ستراتهم ويعتمرون قبعات العمال المصنوعة من أوراق الجرائد الملفوفة ويرفعون أكمام قمصانهم. كانوا في الواقع محامين، أطباء، معلمين غير أنهم يتحولون للمناسبة إلى بهلوانيين خرق. بعد أن يستولوا على أمكنة المراقبة، كانت تنتابهم الحيرة حين يحملون حجارة القرميد وكأنهم لا يعرفون أين يجب وضعها، وذلك من دون أن يدعوا النافذة في الأسفل تغيب عن نظرهم ولو للحظة واحدة. مدققون مزيفون في تسجيل العقارات، مفتشو بلديات عينوا أنفسهم بأنفسهم، يتدثرون بمعاطف، بياقات من الفرو، كانوا يصلون إلى القمة هم أيضاً.

بخطوات ثابتة في الممرات الضيقة المهتزة، كانوا يصدرون

أوامرهم، بأصوات صارمة عالية، إلى موظفين خفيين لأنهم لم يكونوا موجودين أصلاً. ولم يكن من الصعب عليّ الإستنتاج وأنا في مخبئي من أن أحداً لم يكن بمقدوره سماع تقريعهم وخطاباتهم المسهبة العنيفة حول مفاسد تجارة الأبنية في بارما، باستثناء بعض القطط التائهة، والفئران الخائفة، وسياج القصب الذي يعلوه الغبار.

ومن ثم كان الشعراء يتسلقون.

كانوا يتظاهرون بأنهم يقومون بقطف الأزهار التي لم تتفتح يوماً هناك بين الأخشاب المعلقة على السقالات.

كانوا يتسلقون إلى الشرفة وينظرون إلى الأسفل، إلى شباك فابريزيا وهم يميلون إلى الأمام وإلى الوراء متأرجحين بين هناءة أحاسيسهم وموهبة إستثنائية في مزاج القصيدة المغناة والإنتحار الكوني، أو خطر السقوط إلى تحت. رأيت أن واحداً منهم جلب معه فعلاً باقة ورود. وفيما هو ينظر إلى النافذة كان يرفعها إلى كتفه مستعرضاً. وحين غادر رماها على القصب فبعثرتها الرياح وانتزعت تويجياتها ونثرتها في الهواء.

وأخيراً صعد الشرفاء. وأعني أولئك الذين لا يشعرون بحاجة للتنكر بقبعات الورق ومخططات الرسوم المعمارية الملفوفة المزيفة، بغية التجسس على الكوخ. لم يرتجلوا أي حوارات مع القطط والطيور، غير أنهم سلموا بإغراء التجديف النظري وراحوا يحدقون إلى الأسفل بتلهف وصدق كما لو كانوا من حراس البحور. كانت المسرحية الإيمائية مفعمة بالحياة ولم تكن خالية البتة من سوء التفاهم. أثناء خروجهم إلى السطيحة.

كان البناءون المزيفون يتصادمون بأحدهم وهو يتمشى على

الحافة حاملاً بيده باقة من الورود، أو كان مراقبو البناء المزيفون يحاولون إقناع طائر المداخن أن سير الأحداث يصعب شرحه أو تصحيحه، تماماً مثل هذا المبنى بحالته الدائمة غير المكتملة. غير أن البهجة في انتهاكهم المشترك والتشابه بينهم قد خلقا تواطؤاً رجولياً قادراً على تجاوز كل الإضطرابات وكان بعض الرجال الدمثين ينظرون معاً إلى الأسفل، ويتبادلون الإبتسامات ويشعلون سكائر بعضهم الآخر.

... كان ثمة للكوخ نافذة استثنائية. كانت الستائر مرفوعة بحبال حريرية حمراء اللون وكان كل ما في الداخل يبدو واضحاً، تتخبط به بعض الظلال وتصدح منه موسيقى منبعثة من الفونوغراف. كلب صغير كان يستلقي بخجل على كرسي بذراعين. الأشياء في الغرفة كانت تبدو في حالة تأهب لتقديم التحية لتلك التي ينتظرها الجميع. ثم ها هي تصل، بكل انسجام جمالها وروعته. غير أن فابريزيا هذه اللحظة كانت تتظاهر بأنها تتكلم إلى كلبها الصغير أو تسترق النظر إلى الرواق لتثرثر إلى أشخاص خفيين (خدام وأفراد عائلة غير موجودين) وهي لا تحاول أن تراهم ولكن أن تُرى. وليتمكنوا من رؤيتها بشكل أفضل، كانت تسترسل في ارتجالات تؤكد على أنها هي أيضاً كانت ممثلة على خشبة مسرح مزدوجة. من الذي كان يؤدي المسرحية الإيمائية في الواقع: المرأة أو الرجال الذين يراقبونها؟

كان عري الفتاة أورلانديني يتحرك باستمرار قبالة النافذة، من الضوء إلى الظل وشكله يتغير مع كل انعكاس ضوء أو ظل، ومع كل منظور مزيف. حيناً كان جسدها يبدو طويلاً وملكياً وحيناً آخر أقصر ونهداها أكبر. كانت تتحادث بحماسة مع الأشباح

الساكنين معها مثلما كان مشاهدوها يتحادثون مع أشباحهم، أو أنها كانت تضحك لدعابات لم يروها لها أحد. وكل ما كانت تفعله كان يزيدها بهاء. قد يتغير مزاجها كما لو كان حولها زحمة من الناس فتبدو أحياناً حزينة وأحياناً أخرى سعيدة، فتقوم بحركات حزينة أو تتكاسل بهبات عدائية شهوانية. كانت تنحني متظاهرة أنها تلتقط أشياء من على الأرض لتظهر ردفيها. كانت تتظاهر بالعياء المفاجىء فتتمدد على الكرسي أو تستلقي على كرسي بذراعين ثم تبسط ساقها على ذراع الكرسي فيتسلط الضوء على عانتها.

وكانت افتضاحيتها تصل إلى ذروتها حين تركع وتقرّب أذنها من أنف كلبها الذي يشرع في العواء مؤدياً دوره في التمثيلية. كانت الدوائر الرائعة في ظهرها وفخذيها تقدم للمشاهدين مشهداً باروكياً مذهلاً. كانت فابريزيا تختفي، وكان مجرد التفكير بأنهم لن يروها ثانية يجعل قلوب المشاهدين تقطر أسى وشعوراً بالخيبة. غير أن الفرحة سرعان ما عادت لأن المرآة، وكما بفعل سحر، كانت تعكس داخل إطارها الفتاة وهي تضع حمرة الشفاه بأصابعها الدقيقة. كان واضحاً أنها كانت قد خططت حتى لهذه اللمسات الصغيرة. وكان من السهل التكهن بذلك من الوقت الطويل الذي تستغرقه لوضع حمرة الشفاه كما لو أن شفتيها كانتا مساحة شاسعة لا نهاية لها.

وفيما هي في هذا الوضع، واقفة على رؤوس أصابعها وحوضها يميل إلى الوراء، كانت تستحق بالفعل تحية تصفيق كبيرة.

وفيما كانت فابريزيا أورلانديني تستعرض مفاتنها، كان المشاهدون المتسلقون على أعلى المبنى بأعينهم المحدقة إلى النافذة،

يشرعون في إطلاق ملاحظات مختلفة بغية تبرير وجودهم في ذلك المكان، غير أن هذه الملاحظات كانت تبدو مثيرة للشفقة: «إنهم لن ينهوا أبداً هذه المدرسة، أنها فضيحة!» أكّد أمير من قاعة المحكمة كان يرفع أكمام قميصه.

«أجل، بالفعل، لقد أتيت إلى هنا لأتحقق من الأضرار الحاصلة» أجابَ أحد المحررين في الصحيفة المحلية.

«سوف يتوجب علي كتابة مقالة قاسية اللهجة».

«أنا أفكر بأولادنا. هل تفهم؟ سوف ينتهي بهم الأمر إلى تلقي تعاليمهم وثقافتهم على حافة النهر، أو في الحقول أو على أدراج الكاتدرائية!»

«يجب على الحكومة أن تتدخل».

«آه، نحن نتدخل بالفعل!» أكّد مستشار التعليم العام.

*

وارتأى أحدهم أن المبنى سوف يبقى على وضعه الحالي وذلك لسبب واحد هو أنه فيما لو تم إنهاءه فإن جسد فابريزيا أورلانديتا سوف يحرم من عرض مفاتنه ما قد يؤثر سلباً على (التربية الجنسية أكثر منها المدرسية).

شاعر يصوب وروده إلى النافذة ردد ساخراً:

«إن الحكومة زمرة من اللصوص. من غيرنا قد ملأ جيوبهم بالمال لكي ينهوا هذه المدرسة؟».

وصرخ المستشار قائلاً: «هذا كلام جاهل. بل الأسوأ من هذا أنه كلام فاشي».

وحتى هذه المداخلات اليسارية لم تقص أحداً عن التحديق بالكوخ.

«قريباً، قريباً جداً، يا صديقي العزيز سوف يعود اليمين إلى السلطة!» أعلن عضو حكومي سابق، غير أن حدة الخلاف خفت فجأة وقد تخلى الرجل عن فكرة الإستمرار في استفزاز المستشار ذلك أن فابريزيا كانت تستعد لتقديم المشهد النهائي الكبير. نسي المستشار فكرة الدفاع عن الشيوعيين وانتقل إلى حلم: يوماً ما سوف يذهب إلى منزل أورلانديني، مصدراً بحذائه صريراً ومرتدياً وشاحه، حتى يختصر المسافة البصرية بينه وبين فابريزيا: «سوف نعود، يا صديقي. تماماً كما سوف تعود هي». وعندما بدا يتخلّى عن كل تحفظ. أشار إلى النافذة: «دعونا ننظر إليها بدون اعتراضات تافهة وإدعاءات كاذبة: إنها جزء منا، إنها أعجوبة، كل واحد منا يحمل في قلبه فتاة أورلانديني!»

بالفعل، فحين كانت فابريزيا تداعب جسدها... فإن يدها كانت تصير يد رجل خفي، مختبىء وراء كرسيها، يستكشف فخذيها بشهوة جنسية بالغة الرقة (في لعبة الضوء والظل كان يبدو بالفعل أن اليد لم تكن يدها) يا له من تناغم دقيق ومنحرف! وحين كانت تلامس ثدييها، بطنها، صدغيها... وحين ينتهي العرض، كانت ترفع نظرها إلى الأعلى، باتجاه سطيحة المبنى غير المكتمل، وهي تبتسم ابتسامة البطلة التي تشكر الجمهور لدى انتهاء المسرحية. كانت تنحني للتحية ومن ثم تغادر الغرفة. شعر أحد المشاهدين أنه قد فقد برحيلها، شيئاً يتعذر استرداده، هو الذي استهل التصفيق قائلاً: «سوف نعود لأننا، على عكسك، نمتلك الشجاعة ليس لنفرض الواقع على أعيننا، إنما لنفرض أعيننا على الواقع بأقدام رجولي جريء».

تعالى التصفيق الحاد وطال الغيوم.

منزل أورلانديني والمدرسة التي لن يتم انجازها قط، كانا وعلى طريقتهما، إيطاليا التي لا تتغير.

جعجعة أيروس

حين بدأت أعود إلى روما، كانت مورا فيورا، بين الفينة والأخرى، ترسل لي فتيات صديقات لها، كن بمثابة رسائل في قناني، وكانت من خلالهن تنجح في إبقائي مسجوناً في غرفة الفندق سعيداً بنسج خيوط حياتي، وأحياناً كانت تترك لي رسائل صغيرة تحثني فيها، بتهكم حنون، على إمضاء أطيب الأوقات، والمحافظة على هدوئي، مضيفة: «لدي الكثير لأخبرك إياه». وكانت بالفعل تخبرني الكثير، من خلال صديقاتها؛ نساء شابات ينتمين جميعاً إلى عائلات قديمة في بارميجيانو وهن يعرفن اللغة المحلية والألفاظ والتعابير العامية القاسية، واحتفالات الحواس خاصتنا وحدنا. بهذه الطريقة، فكرت مورا بأن تعيد إلي نكهة مدينتي التي ابتعدت عنها طويلاً؛ إضافة إلى أنها كانت تحاول إقصائي عن إنهاء زياراتي بسرعة، وأن تقيد رغبتي في الرحيل مجدداً فتروح تهدئني في انتظار ممتع لشيء لم أره من قبل.

مع هؤلاء الفتيات، كنت قادراً على التكلم بلغة بلدي مجدداً. وأدركت بأني فقدت جزءاً كبيراً من لغتي المحلية تماماً كما يفقد المرء براعته بسبب عدم الممارسة. كانت الكلمات وطريقة التعبير عن بعض الأمور، بالنسبة لزائراتي اللطيفات أشبه برسومات بيانية تحمل رموزاً شفرية لعوبة، ولكنها كانت بالنسبة إلي ملح حياتي. هذا ما كان يجذبني إليهن أكثر منه ألاعيبهن الغرامية، وكانت هذه

أيضاً تعيد إلي بعض الطقوس الأيروتيكية التي كنت نسيتها، طقوس تعود إلى زمن أقرت فيه الأخلاق الريفية قوانين خاصة بها: على سبيل المثال، حين كانت النساء يدرسن الحنطة، وخلال استراحتهن القصيرة وراء سياج الشجيرات، كن يعمدن إلى تحرير شركائهم الرجال من منيهم المرهق، ليس بدافع تقديم اللذة إنما عن إقتناع منهن ـ وحسب ما يقوله أحد الأمثال الريفية ـ إن الخصى الممتلئة تشوش الرأس وتلهي عن العمل.

شرعت اللغة المحلية، اللغة العامية تندفع بقوة فيها البساطة والبهجة. أكثر من عشاق، كنا طيوراً سعيدة تغني لبعضها البعض وهي تسوي ريشها على غصن شجرة. كنت وكأنني اكتشف لغة هيروغليفية نقشت على الظهور الوردية اللون والأرداف المكتنزة وعلى طول السيقان المنفرجة الدائمة الجمال.

ثم تغادر الفتيات الغرفة وأفتح أنا النافذة لأتنشق هواء الفجر. كانت بارما مبقعة بالثلج، ومقابل السماء المثلجة كانت قمة ديومو والقمر الصغير كما ملاك مضاء فوق، في السماء.

*

أدركت أني لم أعد أعرف في أي يوم نحن. الحفلة الموسيقية التي كانت تنظمها عصافير الدوري يرافقها صفير الشحارير، كانت تتماثل مع اللغة التي من خلالها كنا، أنا وصديقات مورا فيوري، نمتلك بعضنا البعض: كانت وكأنها تطوف في الفضاء، كما الروائح الجسدية المفعمة بالحياة التي غادرت الغرفة للتو.

*

في بو حيث ترعرعت، كان إسم عضو الذكر يتغير نسبة إلى

مهنة صاحبه. لذا فإن سائقي عربات النقل في أرجينوتو يدعونه مثلاً وبرقة شديدة:

«الشجرة الجميلة»، أو «الدهني»؛ أما المراكبيون في بارباماكو فإنهم يتكلمون مازحين على «مجذافهم المخادع»، أو على قيدومهم»؛ مهربو البضائع في ميرازول يفضلون، من جهتهم عبارة «الرامي الماهر» أو «الطالب اللاهوتي الأحمر» أو «مسدس ٩١» إن اللهجات المحلية والألفاظ العامية كانت تبرز بشكل واضح حذاقة الظرفاء ودهائهم.

ثمة تعبير شعبي ملطّف للدلالة على الفرج وهو رائج في إيطاليا والأرياف الغربية اللاتينية: كلمة فيغا أي ثمرة التين.

ويبدو أن ثماراً عديدة قد أعارت أسماءها للعضو التناسلي الأنثوي، وقد يكون ذلك بسبب التشابه الأيقوني بينها وبين الأعضاء التناسلية الأنثوية، أو لصلات أعمق تتعلق باللاوعي: في المناطق الشمالية ثمرة الخوخ، وفي مصطلحات مختلفة في الشمال والجنوب ثمرة المشمس هي الغالبة.

كذلك عبارة القطة والفأر التي تذكر في الغالب للدلالة على الأعضاء التناسلية. في ريجو إيميليا، الفرج هو مصيدة الفأر وجحر القط في آن. تعابير مزاجية حيوانية أخرى منها الفراشة (في المناطق القريبة من نورسيتو) والدوري الصغير أو الشنقب. أما عبارة الشوارب النموذجية إضافة إلى كلمات أخرى متصلة بالشعر فهي رائجة في كل أنحاء أيطاليا؛ «الوادي الشَعِر» «ووالدة القديسين» عبارتان رائجتان في بيلي والمناطق الشمالية. أسماء الآلات الموسيقية رائجة أيضاً في اللغة الأيروتيكية العامية وأكثرها شيوعاً آلة الغيتار وهي رائجة في توسكاني أيضاً. عبارات عديدة، من جهة

ثانية، مشتقة من أسماء العلم: «بيرتا» (ألماني الأصل) «بارناردا» (وهو شكل من أشكال إسم برناردا) رائج في فينيتو، لومباردي، وريجيو إيميليا، «فيليبا» في فريولي وفينيتو، «وإنياس». إن الفونيمة الحنكية نجدها غالباً في الأسماء المخصصة للدلالة على الفرج. هذه الفونيمة محملة بقيم رمزية متصلة بفكرة النواح أو بشيء طري ومقزز ونجدها في مناطق توسكاني، إيميليا وفينيتو.

عبارة «الأخت جيجي» النموذجية رائجة في إيميليا كما في مناطق أخرى، إضافة إلى عبارة «لوي الكبير» للإشارة إلى العضو الذكوري، وهذا اللقب يبدو أنه المفضل لدى الجميع ولا أحد يعرف السبب. في بلدتي بإمكانك أن تسمع رجلاً عجوزاً يدمدم عند مرور فتاة ترتدي تنورة قصيرة قائلاً: «إنها تريك رقم منزلها».

إن العبارات المجازية النموذجية التي تلمح إلى عضو الذكر، تستخدم في الغالب الصورة التي يتحول إليها العضو في الأحلام بدءاً من العبارة الأكثر شيوعاً: «العصفور» وهي تعبير ملطف حولته الحشمة إلى لفظة محرمة ما أفقدها براءتها البدائية ومعناها الخيالي الساحر.

في كتب الأقوال الشعبية نقرأ: «أنف عظيم، خرطوم عظيم»، إشارة إلى العضو الذكوري ومنها قد تكون اشتقت كلمة النقانق وأخذت معناها الرائج وخصوصاً في فينيتو.

إن التعابير الملطفة الشعبية، تلك المستعملة للدلالة إلى العضو والتي تعتبر الأكثر رمزية والأكثر إثارة للضحك، تكون في الغالب عبارات وصفية طويلة كمثل «يكبر في اليد» أو «اللحمة المطاطة» أو «المخادع» من كتاب الأقوال الشعبية في فال بادانا أقرأ:

«أوقفهم في الصف وسوف يتحلقون في دائرة حول القمر».

وهذه العبارة استخدمت لوصف أفعال امرأة لعوب، وفيها ما يشير إلى الإستخدام الرائج لضمير الغائب. أما إسم الإشارة «هذا» الذي يشير إلى عضو الذكر فغالباً ما ترافق لفظه إشارة بليغة من يد المتكلم.

*

إن لائحة المصطلحات المستخدمة للإشارة إلى الفعل الجنسي لهي لائحة طويلة يصعب حصرها. أحب فكرة المحادثة ـ التي يهمس بها في ليلة صيف خلف حائط وتكون معطرة برائحة الزيزفون ـ بين امرأة من أولئك اللواتي يطلق عليهن إسم طيور النور لأنهن اخترن التحليق بحرية، ورجل يتفاخر لأنه يمتلك اللغة المحلية المحكية.

هي تسأله «مالذي تريد فعله معي؟»

«قبلة مع كثير من المص» أجاب اللغوي البارع.

«وماذا تريدينني أنا أن أفعل؟»

أن تقوم أناملها باستمنائه، بتلك البراعة التي يتوصل بواسطتها محطّم الخزائن الحديدية إلى اكتشاف الأرقام التوافقية لسرداب أحد المصارف، والمعروفة بإسم «كيس الحيل».

«وماذا بعد؟»

«قدمي لي ملء كأس من النجوم». لعق القضيب كما صوره كأس من الشراب النادر، رمزاً للوعاء ومحتواه أيضاً. نفذت المرأة بإتقان كبير جعل الرجل يسقط إلى الوراء وراح يحدّق إلى النجوم منتشياً وقد امتلأت رأسه بشرارات لامعة من دمه ومن السماء.

«... لنختتم بالجمال مع عبارة «كولوفيغاتو» وهي، كما أشرت

إليه في مناسبات أخرى، بمثابة تحية استحسان شعبية لمصدر الحياة الجبار حين تكون المرأة في وضع تنحني فيه بعبودية على السرير كمثل قديس شرقي يصلي، وما من انفصال بين ردفيها وعضوها.

بالنسبة إلينا، في بو، لم يبد كل هذا سوقياً قط. لطالما كان له معنى العربدة الفرحة في الحب الجسدي، واحدة من الإختراقات التي تفضي إلى الرضا والتواصل مع الخلق لكي تصبح الحياة جديرة بالعناء.

خيانة

العدّة الشيطانية التي تدفع المرأة للإستمرار في خيانة كل من في حياتها وبكل ما أمكنها من وسائل، يطلق عليها في بلدتي إسم «مينتي بالينا» أي «الدماغ المهبلي»، الملطّخ بهوسه بالعلاقات الجسدية الشهوانية. إنه رذيلة لا تغفر، كما يقال ولا تغتفر أيضاً.

كانت «سيرينا» نقيض إسمها تماماً. لسنوات طوال راحت تخون زوجها فيديريكو ومن دون حتى أي إحساس بالخجل، إلى حد الإشهار بخداعها هذا فلا تتوانى عن تمضية الليالي في أسرّة عشاقها، الواحد منهم بعد الآخر، لتعود إلى البيت مع طلوع الفجر. فيديريكو الذي أحبها بعمق، عرف منذ البداية، وعانى من هذا الأمر منذ البداية. أدرك أن ما من كثير يمكن أن يقوم به إزاء «الدماغ المهبلي» باستثناء الوقوف في وجهه بصبر الحب الخفي والأمل الذي مزقه الألم، الأمل بأن معجزة ما يمكن أن تحصل في يوم من الأيام.

عند كل طلوع فجر، كان تاجر السروج يستعيد الحركات نفسها؛ غير أنه وفي كل يوم كان يتهيأ له أنه يقوم بها للمرة الأولى. نور لا يزال خفياً، متأهباً للإنبلاج من خلف تلال دونادا،

أيقظه مثل الجرس، شعاع الشمس على شكل جرس، فرفع رأسه من بين ذراعيه اللتين كان طواهما على طاولة العمل حين داهمه النعاس.

على السروج، شاهد خطوطاً حمراء بلون الدم أنبأته بأن الوقت قد حان. حتى رائحة الجلد كانت تلازمه كما المخدرات، تندفع إلى رأسه فتنظفه وتحيله سريعاً وصافياً. تنفس عميقاً ثم انصت. مر وقت قصير. كان قد اعتاد على الأصوات المختلسة التي كانت تصدرها سيرينا حين تعود من ليال امضتها الله وحده يعلم أين ومع من؛ وفي كل مرة كان يشعر بانقباض في معدته كما لو أنه يكتشف للمرة الأولى أنها تخونه مع كل رجل تلتقيه.

انتظر زوجته لتصعد إلى الغرفة في نهاية رواق الطابق العلوي حيث كانت تنام بمفردها، وكان ينتظرها لتغسل وجهها وتمسح عنه كل آثار الحب الذي مارسته مع رجال آخرين. ثم كان يغادر السرّاجة ويصعد إلى فوق. لم يكن قد عوّد نفسه بعد على الأحاسيس التي كانت تنتابه حين يقف متردداً أمام مقبض الباب. ثم يديره وقلبه يكاد يتوقف، مدركاً أنه سوف يجدها في السرير وقد أدارت ظهرها لتحدق في الحائط. كان يقف إلى جانب السرير وينتظر سيرينا بصبر، كي تدير رأسها وتحاول النظر إلى وجهه.

إبتسم لها. حاولت أن تبتسم هي أيضاً لكنها عجزت عن ذلك. جلس فيديريكو على حافة السرير وراح يمسد بيده غطاءه. منذ زمن طويل لم يسألها: «دعيني أستلقي إلى جانبك؟» ولكن أن يتخلى عن هذا السؤال ويطرده من روحه جعله يشعر بالفراغ نفسه الذي شعر به ذلك الصباح. منذ زمن بعيد، حين شعر بالكلمات

تموت على شفتيه. جلّ ما فعله هو أن رفع ذقن زوجته قائلاً: «دعيني أنظر إلى عينيك».

أطاعت سيرينا وقدمت له نظراتها المحدقة ليتفحصها جيداً. شرع فيديريكو يبحث في عمق نظراتها التائهة؛ أراد أن يرى ما إذا كان لا يزال يلمع ولو ضوء خافت من المنطق والعقل، في عينيها المائلتين من الزرقة إلى الإخضرار، أو أن الدماغ المهبلي قد قضى عليه كلياً. وكان يحاول باستمرار، وبرهبة المرة الأولى، أن يسرب إلى داخل جفونها المرتعشة قوة عشقه وتفهمه؛ وأيضاً بغبطة المرة الأولى حين رأى أن الضوء لا يزال صامداً مهما كان بعيداً، في زاوية مظلمة كمثل حيوان صغير جاثم في العتمة.

هذه الفرحة كانت تكفيه، قبّل سيرينا على جبينها وتمنى لها أحلاماً سعيدة ثم وقف مستعداً للرحيل. لم يخفف الوقت من قساوة اللحظة التالية حتى أنه جعلها أكثر ثقلاً فكادت لا تحتمل: هل ستلفظ سيرينا إسمه قبل أن يصل إلى الباب؟ أدار ظهره مبتعداً وهو يركّز كل قواه على لحظة إمساكه بقبضة الباب. أدرك أنها مسألة ثوان قليلة. في كل صباح كان قدره متعلقاً بمسألة دقائق قصيرة. لأن سيرينا كانت تصارع لكي تقول له:

«إستلق بجانبي. بإمكاننا ممارسة الحب. سوف ننسى كل شيء ونعود إلى البداية». وقت هائل، مرة أخرى كانا في أثنائه يقتربان جداً من الكلمات غير المحسوسة التي تتحرك على شفاهها هي. هيا، راح يحثها في سره، حاولي يا سيرينا، أنت على وشك أن تنطقي بها. هيا. عندها، وفي جزء من الثانية عاد «الدماغ المهبلي» ليستحوذ على رأسها مجدداً، ويجعلها تدير ظهرها وهي تتنهّد. ثم أغلق فيديريكو الباب وراءه.

عاد لينظر إلى الهضبة الصغيرة آملاً بأن تحرق الشمس الجديدة الصور التي انطبعت للتو في شبكة عينيه؛ بأن تصيبه بالعمى في رأسه وفي ذاكرته أيضاً فلا يعود يرى أي شيء في العالم، ولا يعود يفكر في أي شيء على الإطلاق.

إيروس والحلول الحنونة

إنها صورة فوتوغرافية تعود إلى الأربعينات وقد طبعت على بطاقة بريدية. على ظهر الصورة مساحة لرسالة صغيرة وعنوان. غير أن أحداً لم يرسلها قط. بقيت في أحد أدراج والدتي ثم انتقلت إلى طاولة العمل خاصتي وصارت من أغلى الأسرار وأحبها إلى قلبي.

في اللقطة الفوتوغرافية لعبة أضواء وأشكال رائعة تذكرني بمانيه، خصوصاً تلك الخلفية التي تميل إلى الإختفاء بين الأضواء والعتمات فتضيع ملامح المكان ويبدو وكأنه بلا حدود. غير أنه، ومن دون شك، كان في بارما وقد عرفت ذلك من دائرة الجدران القديمة وشجرات الدردار وكستناء الحصان. ونساء تثرثرن على المقاعد الخشبية. يبدو أن الصيف على الأبواب. إلى الجهة اليسرى تظهر شجرات الكرز بأزهارها المتفتحة البيضاء، ونباتات الوستارية تتدلى على واجهات المباني. تحت إحدى القناطر في سور المدينة، تتقدم فرقة عسكرية صغيرة بالكاد ظاهرة؛ إنه من دون شك أحد الأعياد الدينية لأن خربشات باللغة العامية كانت تقول: «مع

سترات وبناطيل مكوية بمكواة حديدية». كما يشار إليه عادة في المناسبات الإحتفالية.

الشخص الذي في مقدّم الصورة، هنالك في الضوء، هو أبي. وإلى جانبه أمي بكامل أناقتها وقد بدت عليها المفاجأة. كان يبدو واضحاً أنهما إلتقيا للتو، في نظراتهما ضحكة جميلة، وفي تموضعهما تحد في وجه من يلتقط لهما الصورة.

كانت البطاقة بأكملها تنضح بشفافية لقائهما وشفافية المدينة التي تحيط بهما. بتناغم لقائهما. إنها الصورة الوحيدة المتبقية لي من ماضي عائلة تبدو ومقارنة مع حياتي في هذه اللحظة بالذات، وكأنها تخص شخصاً غيري. وجدت البطاقة بين يدي، على نحو فجائي فيما كنت أراجع رزمة من رسائل البريد. ذهلت ليس لأن ثمة من أخرجها من مكتبي فحسب بل لأنه عرف أيضاً أني قد خبأتها هناك. ومع ذلك فقد حصل ما حصل.

أيا كان الذي أخذها مني قد أعادها إلي الآن بواسطة البريد من بلدة لا يمكن كشف إسمها من خلال ختم البريد. ولم أتمكن كذلك من معرفة إسم المرسل المخربش على ظهر الصورة. حاولت كثيراً أن أحزر وأخيراً فهمت من أرسلها.

فكرت بسيلفيا بامتنان كبير.

لحن من أغنية الحياة كان يرافق إيماءاتي فيما أنا أعيد الصورة إلى الدرج، إلى حيث تنتمي.

رحلات أيروس

عناوين مختلفة في عواميد الصحف:

«إيطاليون يمرحون في فيلات كاستيلي روماني، حَرَم الباحثين

عن الخطيئة. فيلات الرذائل: جنس جماعي، حجز إلزامي، معزولة بين أشجار عتيقة في حدائق الإنحراف، الطوابق العليا مكتظة بالأسرّة. «بيزنيس» جديد ملتهب، أنسوا أمر التجارة بالنبيذ وسيارات البوريشيتا. رن على جرس الباب الرئيسي. أعط كلمة السر وادخل لتمارس الخطيئة. الشرطة تحقق بشأن «النوادي الثقافية» المستخدمة كغطاء». مرة أخرى، إيطاليا الفساد.

في حال توقف الدماغ عن التواصل فإن هوساً قد يولد فيه بلا ريب. هذا ما يشير إليه إختصاصيو الأمراض العصبية النفسية في تفسيرهم لبعض الإضطرابات الذهانية. وهذا التحليل يمكن أن ينطبق أيضاً على المجتمع الحالي. إن دماغ هذا المجتمع صار يجد صعوبة أكثر من أي وقت مضى في تناقل مفاهيمه الأيديولوجية وشؤون الروح والثقافة. والنتيجة أن هذا المجتمع بات يحصد اهتمامه في التركيز على المظاهر الثانوية والمضطربة، بما فيها الممارسات الجنسية التي لا يتم اختبارها بوصفها إثماراً مفرحاً للغريزة والأيروتيكية إنما بوصفها محرمات يجب إنتهاكها للتحرز من الحالة النفسية.

إنها إيطاليا العواميد الصحافية الخاصة: «مهووس أيروتيكي يبحث عن مثله».

*

إجتذاب الجمهور بفضيحة جاهزة ومبتذلة، موضبة مسبقاً كمثل ذكريات شذوذ جنسي. في نوغاهايد أيروس هو بلاستيكي في معظم الأحيان. عذر مثير للشفقة لمجتمع يائس وهذا اليأس حقيقي صادق يستكين في قلب تعددية واسعة ومنذهلة.

يعاني الرجل من إرهاق تاريخي قد أعاده إلى الصيغة القديمة

المكررة، تلك التي تستوجب أن يشتهي ويمتلك مهبلاً من دون أي مهارة أو براعة. إنه لا يعرف كيف يتغلب على هذا الإرهاق ولا يفهم آليته ويعمل، بالغريزة، على إخفائه («تانجينتوبوليس» هو التجسيد المسرحي المثالي للأعياء الذكوري الفاسد). أما المرأة فتعاني هي من مرض مختلف: البحث عن شريك لا تجده قط. وحين لا تجده تقع ضحية تنبيث فكرة ما، وحينها فهي إما تهرب لتختبيء وتنغلق على ذاتها وتصير شائكة كما القنفذ فتقطع اتصالها بأي كان، أو إنها تميل إلى القطب الآخر أي الإنحطاط الذاتي وتبذير ذاتها جنسياً.

وتكمن المأساة في هذين المسارين المتضاربين: التطور النفسي المنحرف لدى الرجل من جهة، ومن جهة أخرى بحث المرأة المضلل. إن مفهوم الأمل هو اليوم إلى انحدار وهو لم يعد موضوع المستقبل ومحوره. كيف يمكنك الأمل في عالم لا أمل لديه. كل شيء مشوش. وفيما الأمل الجماعي ميت لا يبقى سوى الأمنية الفردية: كل إنسان يفكر بكيفية تأمين استمراريته في الحياة، وهذه الإستمرارية على الإنسان أن يتعلم كيف يديرها كما الممتلكات أو كما مزرعة صغيرة. وفي حال توصلنا إلى بناء شبكة عالمية من «المزارع الصغيرة»، حينها فقط قد يولد شيء ما من جديد.

*

ها هي، «فيلا الرذيلة»: نصف مختبئة بين الأشجار، خلف جدار حجري، أبواب خشبية عالية بمزاليج وقضبان ضخمة وشلالات من النباتات المعترشة وفي خلفية المكان نباتات الوستارية. ثمة مدخل آخر من الطريق الرئيسي أما المالك الأصلي للفيلا فهو يعمل مربي كلاب من نوع الراعي الألماني وقد عمد إلى تأجير

الفيلا لزوجين يهويان المغامرة. وقد كتب على اللافتة الكبيرة البيضاء: «كلاب. أحجز شهوات قلبك للعام ١٩٩٤...»

قرأت هذه القصة في «لاريبوبليكا»: «نظراً إلى لوحات القيادة على السيارات الفخمة التي كانت تملأ مساء السبت الفائت، حديقة «لاجيوكوندا» الفيلا التي انتحلت إسم ناد ثقافي في غروتافيراتا، ومعها خمسون إشارة حمراء لشخصيات مهمة أتت ليس من العاصمة فحسب بل من مناطق أبعد بكثير، قدموا جميعاً ليجتمعوا هنا. من فيرونا، من بولونيا، من رافينا أو أنكونا... موظفون إداريون كبار، مقاولون، محامون... سدوم وعموره في بلدة الفيلات الأميركية ومقر الكاثوليكيين. مساء السبت تمكن خمسة من رجال الشرطة من التسلل إلى المكان بصفتهم زبائن وزواراً: كانوا زوجين وفرداً واحداً. ثم تلت ذلك قصص خرافية عن رجال متأنقين ناضجين ضبطوا بأوضاع متلبسة مقيتة، زوجات وصديقات، تشابك أعضاء، عربدة جماعية في غرف تطل على مناظر خلابة بمعنى أن الأبواب قد أزيحت من مكانها وغطيت الجدران بالمرايا: شاشات تعرض الأفلام الإباحية بدون انقطاع، أسرّة مائية (الكثير من الرذائل)، مهاجع مكتظة، نساء مسنات من مقامات اجتماعية رفيعة عاريات على أرائك حمراء، موسيقى وأضواء، حفلات عري...» من «ملاحظاتي» حول المشاهد والفصول التي كنت سجلتها في الداخل: الرجل الذي ينتحب جالساً على الأريكة، والجميع يتجاهله. رجل عجوز مقيت يبكي لأن زوجته قد صعدت إلى الطابق العلوي برفقة شاب صغير لا تعرفه، وراح الرجل يخفي دموعه بحركة آلية من أصابعه ويمسح زجاجات نظارتيه المائلتين وقد غشاهما البخار. إنه يرغب في التخلص من حياته كما من النزوة التي تحولت إلى مصدر عذاب

وألم، غلطة مجنونة. لقد قادته الشهوة لأن يتواطأ مع أناس يشعرون بأنهم شيء زائد غير أنه اليوم يكره واقع وجوده بينهم.

*

تتحرك الفتاة بسرعة داخل الغرفة، فيما تغلق النوافذ وتشعل الأضواء. تريد أن تنبعث الحياة في المسرح، أن يخرج من الظلال ويظهر بحقيقته العارية؛ وتريد هذا لنفسها أيضاً: أن تحيا وتتعرى كلياً كما خشبة المسرح.

كان فرانسيسكو. ف. عاشقاً مشهوراً، والآن عليه الإعتماد على مهارات قديمة فاسقة: يمرر يديه الساحرتين على جسدها؛ في الحركات التي يرفع بها فستانها، وجد بصورة مفاجئة ما لم يكن ليتصوره أبداً: الحنين بمعناه العاطفي النقي، لسنواته الرائعة، خيبة أمل يائسة. إنه يدرك أن أناساً مثله هم بهلوانيون، إن رفيقاته العشيقات لم يعد يهمهن سيد الإحتفالات، إن الكياسة لم تعد مطلوبة، إن ما من شيء قادر على أحداث صدمة في أخلاقية هذا الزمن الجديد، والفتاة هنا للبرهان على ذلك: اليوم لم تتبق أي أخلاقية حتى نهينها ونصدمها، لقد ارتدت الفضيحة ملابس مكررة حتى الإبتذال، ليس للحاضر طعم المرحلة حتى.

جسد الفتاة الذي تعرّى، هو صنم يجذبه وفي الوقت نفسه يهزأ منه. بلا رحمة يعكس فشله وسقوطه كممثل في دور البطولة. قام الرجل بحركة كما لو أنه يريد دفعها إلى السرير ولكن في الحقيقة كان يريد دفع نفسه بغية قهرها، فيما هو ينظر بلهفة وقلق إلى عضوه، ذلك الذي كان منذ زمن بعيد يتمتع بشهرة واسعة بين النساء. استخدمه، أغرزه مثل مسدس؛ ليس لديه خيار آخر.

وحشية الفعل، يبدو أنها لا تسبب إزعاجاً لشريكته. كان مازال في داخلها، حين استلت ساعة يده ووضعتها بتأن على الطاولة بجانب السرير.

كلما كان يغوص بغضب أكبر، كان فرانسيسكو. ف. يشعر أنه منبوذ ووحيد إلى حد لا يطاق. استمر يهتاج في عنف شديد إلى أن امتصت حركات الفتاة تلك التفاصيل الصغيرة، كل قوة خيباته. عندما سقط إلى جانبها، راح يحدق بعرقه الذي يبلل الشراشف وينزلق على وجهه فيما وجه الفتاة مشدود جاف، وهي تلوي قسماته كردة فعل على هذا العرق وهذا المني الذي يلطخ جسدها.

*

كانت مارينا.ك. جاءت بصحبة صديقها أورلاندو، إنها تحاول تحديد هوية الناس الميحطين بها، رجال ونساء ناضجون وأزواج أصغر سناً، فتيات، مدراء وعشيقاتهم، طلاب، بائعات في متجر؟ متبطلون من الطبقة الوسطى، ممثلات حقيرات، عارضات أزياء؟ أغمضت عينيها وحين فتحتهما مجدداً، رأت شاباً بدا لها أنه مختلف عن غيره وخمنت أنه أجنبي: إنه يجلس وحيداً من دون أن يشارك ويبدو على قدر كبير من الوسامة. ثمة بيانو كانت مارينا من وقت لآخر تمد يدها وتضغط على أحد مفاتيحه. ومع كل نوطة ينبعث لحن صغير وكئيب.

في خلفية المكان راح أورلاندو يقبّل ثديي... غير أن ماريا نفسها تبدو الآن معرضة لهجوم. تحلّق الجميع حولها وراحوا يلكزونها كالعقارب فيما هي تضغط أكثر فأكثر على مفتاح البيانو، حتى رحلوا عنها ودخلوا إلى الغرفة الواسعة التي كانت أشبه

بحوض من المومسات والضحكات المكبوتة وهزات الجماع المترهلة وبعض الزعقات: أصيبت إحدى السيدات بالهستيريا فارتدت ثيابها بسرعة وغادرت الغرفة وأقفلت الباب بعنف. ركعت النساء متدافعات بين ساقي مارينا منهمكات بتنفيذ حركات ميكانيكية رقمية دقيقة تثبت افتقارهن للخيال؛ شعرت بين ركبتيها بدقات قلوبهن المتسارعة وراحت بدقة مماثلة تضرب مجدداً بأصبعها على المفاتيح.

*

اقترب أورلاندو منها وتوجه لها موبخاً:

«أرجوك لا تقومي بأدائك المعتاد، ذلك المفسد للبهجة». أغلق غطاء البيانو بعنف فأحدث صوتاً مكتوماً. ثم فتحته ثانية هي، راحت مفاتيح البيانو تلمع تحت ضوء اللمبات القليلة التي لا تزال مضاءة.

توقف رجل بالقرب منها. وجهه يتصبب عرقاً وخطيبته إلى جانبه وراح يتأمل يدها على المفاتيح، مسحوراً بارتعاشة هذا الجمال. ابتسم مذهولاً ورضياً ليس إلا من سبابة مارينا التي تبحث عن نوطة بعد الأخرى. ثم تذكر نادماً سبب وجودهما هناك وهو فوقها. حين طال الأمر جلست الخطيبة على الأرض على بعد مسافة منهما وراحت تنظر إلى عيني مارينا التي بدورها تبادلها النظرات. لم يشأ أي من الثلاثة أن يكون الأول في إشاحة نظره. أمسك صبي بذراع الخطيبة وجرّها إلى آخر الغرفة.

فيما كانت مارينا تتبعهما بنظرها شاهدت من بعيد أورلاندو متمدداً بين امرأتين منحنيتين على جسده. إنه ينظر إلى السقف. ربما يكون هو أيضاً قد وجد نقطة كما مفتاح ضائع في البيانو:

نقطة ـ باعتقادها ـ تحتوي أخيلة شهوانية مستحيلة. بين كل الذين يستعرضون نشاطهم ومهاراتهم الإرتجالية، بقي الشاب الوسيم اللطيف جالساً بصمت ويداه مطويتان حول ركبتيه حيث ألقى ذقنه وراح ينظر إلى مارينا. إنه يرمقها بنظراته الحادية لا ليرى ما تفعله فهو يتجاهل هذا بشفافية عينيه الهانئتين. كان يهمه أن يرى وجهها ليس إلا، كما لو أن ما من شيء كان يحصل لجسدها، انطلاقاً من كتفيها وما تحتهما. لاحظ أورلاندو ذلك وابتسم بخبث.

... أدركت مارينا أن معظم الحاضرين ينصرفون. سمعت سيارات تنطلق، ونوافذ تفتح ليخرج منها الدخان الذي يصنع هالات من الغيم حول المصابيح الكهربائية. يدخل نسيم الفجر ليبدأ معركته العنيفة ضد غيوم الدخان والهالات. يلجها أورلاندو، هناك ولج آخرون، في السرير حيث كان غيره وقد خلفوا وراءهم عناصرهم الضائعة وقشورهم الميتة.

يركز الشاب على هذه الخيالات وفي الواقع هي الخيالات التي يمتلكها وليس الفتاة. هذه الخيالات تثيره وتشعره باهتياج يعوّض عن شيء ما، شيء غامض لا يمكنه تحديده: بعض الفراغ، ربما، أو القلق أو الغيرة المنحرفة. حين دخلت مارينا إلى غرفة الحمام لاحظت أن الشاب الذي بدا لطيفاً قد ترك لها ميدالية مقدسة لفها في ورقة كتب عليها إسمه الأجنبي الذي يصعب فك رموزه. عادت إلى الغرفة وأرتها لأورلاندو وهي تحملها بين يديها. «لماذا يشعرك هذا بالسعادة؟» سألها بلهجة مؤنبة. أخبرته السبب: سكبت كل شغفها وذكائها لتشرح له ماذا تعني هذه الحركة الرائعة بكل صدق وحساسية. أخذ أورلاندو الميدالية ووضعها في قبضة

يده. لم تكن ردة فعله كما خشيت مارينا أن تكون. تردد قليلاً قبل أن يحني رأسه قائلاً: «ساعديني...».

لو لم تتذكر عبارة لطالما رددها على مسامعها بلهجة لا تخلو من العنف («أنا فخور بالقول أني لم أبكِ مرة واحدة في حياتي) لصدقت إنه يبكي فعلاً: على مهل، من دون أن يدع أحداً يراه، إلى أن انطلق تفجعه في صراخ ثم طار، مع الفراغ ومع القلق والغيرة المنحرفة. النحيب قد أطلق سراحه. بقيا هناك جنباً إلى جنب.

ملاحظات على الهامش

حوار بين صديقتين

حول سوء تفسير بعض الرجال لأيروس.

جلست أيليونورا.م. ولورا.ت. يحيط بهما غياب الشمس البنفسجي، تحت سحر لون الضوء الذي يوحي بتوق للإشراق، لطيران سعيد.

نظرت أليونورا إلى عيني لورا: فيهما إشراقة لا يمكن وصفها، كمثل من يرغب في الطيران في الفضاء ليخلف وراءه كل اتصال بواقعه الخاص. وهذا ما دفعها إلى تحرير نفسها وإطلاق كل أسرارها. تكلمت على التناقضات التي كانت مصدر عذاب لوريس، عشيقها وبالتالي عذابها هي أيضاً. كيف أنه قد جرها إلى أوضاع شهوانية بحت، حين دفعها لأن تكون مع رجال آخرين ونساء أخريات. تكلمت أيضاً على الألعاب التي لم تكن نتيجة عواطف صادقة وكان هو من يقوم بابتكارها ورغم ذلك فهي لم تكن تؤمن له أي لذة جنسية.

حواجز الظلال هذه قد أفسدت علاقة كان يمكن أن تكون رائعة للغاية، وجعلتها غير قادرة على أن تحبه حقاً. قالت أليونورا: «أنا أحسدك يا لورا فأنت وحبيبك تملكان معاً نوعاً من الوضوح حتى في أسوأ الحالات».

«أعتقد أن هذا صحيح» قالت لورا. «للأمر تعلّق بالخيال. فإن كنت تمتلكينه ولا تستخدمينه إلا بهدف اللذة فبوسعه أن يهبك أحاسيس، وبإمكانه أن يجعل كلاً منكما قادراً على إدراك أنه شريك الآخر. ولكن إن كنت لا تمتلكينه بل الأسوأ من هذا، إذا كنت لا تعمدين إلى استخدامه سوى حين تشعرين بحاجة إلى دفع نفسك للقيام بأعمال منحرفة وفاسدة، عندها تفقدين الحماسة لأن تكوني شريكة، ومن ثم بالطبع يصبح كل شيء تافهاً».

«ماذا عن لوريس؟»

«يمكن أن يحول الحب بيننا وبين من نحب، تماماً كجدار؛ ومن ثم نروح نجرب أشياء، ونبتكر أوضاعاً بغية إحياء بعض الإثارة حتى ولو كانت مزيفة، كي لا نلاحظ وجود الحائط».

«ولكن كيف يمكن أن تفسري غيرته؟ إن الرجل الغيور لا يرضى بمشاركة امرأته مع آخرين».

«يتبع الرجال في بعض الأحيان نوعاً من المنطق المجنون في تصرفهم الأيروتيكي. قد يحبون امرأة إلى حد كبير ويرددون: حين يخطر في بالي أنها قد تكون غير مخلصة وأنا أجهل الأمر، أكاد أصاب بالجنون. أخاف من خداعها من دون معرفتي. أشعر بهذه الخيانات التي سرعان ما تهرب مني كما لو كانت تسخر مني. ولعلي أنا المسؤول عنها وأنا الذي جلبتها إليّ...»

علّقت أليونورا بشيء من السخرية والمرارة: «وأنا التي اعتقدت أنه كان شاعراً حالماً».

«ومن ذا يقول إنه ليس كذلك؟ إن الرجل يحلم باستمرار بالتحليق عالياً وبغير ذلك لا يشعر برجولته. لكن حين يدرك أنه عاجز عن أن يكون عظيماً كما حلم بأن يكون... ويلزمه القليل بعد ليصل إلى هناك، وبحاجة لأن يحلّق أعلى بقليل لكنه غير قادر على ذلك...»

*

قاطعتها أليونورا قائلة: «في الواقع كاد أن يكون الرجل المثالي في حياتي، وهذا ما يثير غضبي!»

تابعت الأخرى وأردفت: «هذه الثغرة الصغيرة غير المجسّرة التي تفصله عن السعادة، وتغرقه الكآبة وتدفعه إلى إذلال نفسه وإذلالك أنت أيضاً؛ رغبته في تحطيم الآخرين وتحطيم نفسه، ويتخبط في حفرة مليئة بالسماد. وتذكري: في روح الرجل ثمة خلفية قائمة من الحقد على المرأة، حتى تلك التي يحبها...»

«إن الحب مسألة معقدة بالفعل. أليس كذلك؟»

«يمكنني أن أقول ذلك. وكذلك هو أيروس».

لربما ارتكبت غلطة. لم يكن علي القيام بكل ما أراده. لم يكن يتوجب عليّ ذلك.

فاجأتها لورا وهي تشرح لها: «لكنك لم تنفذي طلباته لإرضائه. أنت تقومين بذلك لأنك تعتقدين أنها طريقة لشكرانه».

شعرت أليونورا بالذهول لكنها أطرقت.

«أنت ممتنة له وللسعادة التي كانت بين يديك حين كنتما معاً كما تتمنين».

«هذا صحيح. وإنها لسعادة غريبة. تغمرني فعلاً حين أكون معه. هذا صحيح لأنه حينذاك يكون مفعماً بالرقة والشغف ولكن يتهيأ لي أن ذلك ليس صادراً عنه... لربما أنا مجنونة. أو لربما أدفع ثمن أخطائي، كما حين كنت أرتمي على مجموعة من الأوغاد وأنت ـ تذكرين هذا ـ حذرتني مراراً وقلت لي إنك تبددين الكثير من الغضب على الرجال، وعلى العالم وكثيراً... من الحقد على نفسك أيضاً... كنت على حق وينتهي بك الأمر بالإستسلام وأنت ضائعة ضعيفة، فقط لكي تحظي ببعض الهدوء، حتى ولو توجب أن تدفعي ثمن هذا لاحقاً».

«لا يا أليونورا، بالطبع أنت لست مجنونة. هيا أبقي معه لكن لا تغمضي عينيك على حقيقته، وأعتقد أن هذا يغيب عنك حالياً».

«طمئنيه، ساعديه، يجب أن تكوني صبورة كمثل، لا أدري، كمثل أمه ربما حتى يتمكن من أن يحلّق عالياً ويكبر ويصير بالغاً ... إن الرجال هم هكذا».

«وفي معظم الأحيان الذنب ليس ذنبهم. إنهم أطفال ويدركون هذا ويتألمون بسببه بعمق، من حولهم عدد كبير من النساء يجسّدن والداتهم، نساء وهبن أنفسهن لعدد كبير من الرجال، للذة الرجال، لآباء عديدين وهذا ما يجعلهم يشعرون وكأنهم يتامى إلى حد ما».

«وهم، أو لم يعاشروا مئات النساء؟ ولايزالون؟»

«بالطبع. ولكن الطبيعة تعفي الأولاد من العقاب وتسامحهم على جشعهم وخبثهم لأنهم لا يعرفون شيئاً عن الحياة. وهكذا

فإنهم يعتقدون أن أرواحهم ليست متورطة، وهذا قد يكون صحيحاً فطفوليتهم في الحب تجعلهم يفلتون من العقاب. وعلينا نحن أن نفهمهم لأن ثمة في قلوبنا دوماً قلقاً لا يهدأ وهم جاهلون لهذا الأمر.

ومن هنا فإنه من غير المجدي أن نقول: إذا أنت فعلت هذا فسوف أفعله أنا أيضاً. قدرنا، رغم أنه عاق وغير عادل، أن نكون أرفع مقاماً منهم في شؤون الحب.

ثمة أيروس للوداع، للنهايات

حين تنتهي قصة ما، تفكر بالتفاصيل وبالأحداث الصغيرة. ويتفتح هذا كما البراعم مما كان في يوم من الأيام عادياً، ويبدو اليوم من أروع الأشياء وأجملها. هي التفاصيل أكثر منها سياقها: الحركات، العبارات، العناقات تحت أضواء الشارع، ويتمظهر كل من التفاصيل المتذكرة في وضوح كامل: ذلك الضوء، لحظة الإتصال الإنساني حين كان يبدو أن ما من شيء، أو ما من أحد سوف يحطم هذا الكمال.

جرح قد انفتح. وعلى الوقت إعادة خياطة طرفيه. وفكرة تتواتر: «لماذا يجب أن تنتهي الأمور على هذا الشكل؟» تفاصيل أيروس هذه تندفع مجدداً بقوة عارمة، وتغير عليك بشوق مؤلم.

ثمة أوقات تصبح فيها فكرة كونها تتمتع بالملذات مع رجل آخر، فكرة لا يمكن تحملها. الشوك في الأحاسيس يخز الخيال: كما لو أن طاقة أيروتيكية هائلة استحوذت عليها، وكنت أنت تستخف بها في الماضي. والآن يتهيأ لك وكأنها آخر بهجة تمنحها هي إلى رجال لا تعرفهم وأنت مقصي عنهم إلى الأبد. في ذلك ـ وكما رددت سابقاً ـ تلك «التعاليم» التي لقنتها لها. متى سيندمل

الجرح؟ متى ستنتهي هذه الغيرة وهذا العذاب المختلفان عن كل ما يشبههما؟

سوف ينتهي الندم، ذلك الأسف على أيروس الذي كان ملكاً لك ويبدو أنه قد طار بعيداً إلى امتلاك الدخلاء وعالمهم. لكنك سوف تلاحظ أن حياتك قد استنفدت جزءاً من الوقت الذي خصصه لها القدر. وكل ما تبقى مجرد ثغرة، هوة لربما أنت قادر على ملئها ولكنك، برغم ذلك، تشعر بأنك على مسافة قريبة جداً من الموت. في هذه الأثناء، تشعر بحاجة ملحة لامتلاك كل التفاصيل ولإعادة آلة الزمن إلى الوراء!

... تشاهد مجدداً صوراً معينة: كما حين كانت ترتدي ملابسها بالقرب من السرير. الغرفة كانت مظلمة، لكن النافذة جعلت شعاعاً من الضوء الأبيض ينساب من بين الستائر المعلقة ويرتاح على الحائط، نور فجر صيفي يعلن اشراقة نهار مشمس.

كنت تحب هذه اللحظة، قبل أن تغادر منزلك، حين تتمظهر قسمات وجهها والأشكال والتعابير في هالة من الظلال كما لو أنها تولد من خلفية اللاوجود الماصحة، كمثل الفكرة التي تتركها لك، والرغبة في أن تقولها لك على صفحة مكتوبة. تجلس أمام الصفحة البيضاء وتضطر لأن تسبغ على تلك الفكرة قسمات أشكال وتعابير وذلك في عملية تقدم مشرقة كما الفجر.

قبل أن تبدأ بارتداء ثيابها، تروح تمرر يديها على جسدها كما لو أنها تود امتلاكه للمرة الأخيرة، وتحضرّه لمعارك النهار القادم التي نسيتها خلال ليلة الحب. إنها تتراءى أمامك كمثل محارب يتحضّر، تقدر قواها، ولبرهة تبدو هناك، بجواربها نصف المرفوعة، متموضعة كما في لوحة، تلقي أناملها فوق ركبتيها ورجلاها

ممدوتان على كرسي، جسدها العاري منحنٍ إلى الأمام، وفي وجهها حيرة تتحول لتصير معلقة في الوقت.

طوال الليل ضمتك بين ذراعيها، بعيداً عن عالم الآخرين...

*

عد وأقرأ الرسائل التي كتبتها لك.

يروي أحد الرومينسيين لصديقه كيف أنه اعتاد كتابة رسائل إلى امرأة أحبها، وكان يرسلها إليها من غرفة إلى أخرى في جناح الفندق حيث كانا في استراحة قصيرة من العالم.

«من غرفة إلى أخرى؟»

«بالطبع. كانت رسائل غرامية والحب لا يعترف بالمسافات حتى حين تكون هذه موجودة. لذا فالفكرة كانت تقتضي بأن أرسلها إليها من مسافة قريبة. كنت أستيقظ عند الفجر، وأسجن نفسي داخل غرفة الجلوس مع ورقتي وقلمي، ثم أدسّ المغلف تحت باب غرفة النوم لتجده حين تستيقظ». وكانت لتقرأ: «أحب أن أتلذذ بنكهة باريس برفقتك. من بين كل اللحظات الثمينة، سوف أتذكر دائماً تنزهي برفقتك على الجادات؛ ثمة مقاعد هنا وهنالك وأنت تجلسين على إحداها وقد شعرت ببعض التعب. أجلس أنا إلى جانبك وأضع يدي حول كتفيك، أشاركك تعبك السعيد، والشمس الغاربة تدفىء ظهرك... باريس مدينة نرتديها كمثل فستان العرس. وبعدها هل من المهم حقاً أن تتزوجي أو تكتشفي أن الزواج كان لعبة؟»

«وأيضاً:

«الليلة الفائتة، في ذلك النادي الليلي، استمعنا إلى أغنية قديمة

لشارل ترينيه «هنالك بهجة»... أجل البهجة موجودة. أدرك هذا الآن وأنا معك».

رسالة أخرى كتبت على متن باخرة مبحرة إلى أميركا:

«حين استدرت ورأيت أننا نخلّف وراءنا أوروبا، شعرت بالسعادة لأني قرأت في عينيك اللذة التي كانت تجتاحك... كما لو أنك تشيحين بنظرك عن حقيقة لحظة ماضية، وترين أن ضوء البحر يبدّل كل شيء... ثم تنفجرين في ضحكة مبتهجة لأن البحر يقطع أنفاسك بمساحته الواسعة، ولأنك أيضاً تستطيعين رؤية غيمة صغيرة فوق رأسك كتلك التي كانت تحييك كل صباح، حين كنت طفلة، وهي تطوف فوق المنزل حيث ولدت. كان جميع الركاب منجذبين إليك كما المغنطيس، وبفضلك أنت شعرت أن أشياء كثيرة هي ملك لي: الباخرة المبحرة بنشوة النصر. جسدك، ذاكرتك، قناعة من أمر تافه، البحر...»

رسائل أخرى، وأسفار أخرى.

سهول آسيا الشاسعة، ورود النيل الأرجوانية، حدائق اليابان الضخمة، العناق الجريء الذي نسرقه من أمام بوذا النائم (أم أنه كان يتظاهر بذلك)، عرض البحر حيث المستكشفون الخرافيون والجريئون، حيث مارسنا الحب على متن زوارق صغيرة في الأمكنة نفسها التي شهدت حوادث استثنائية، تلك التي قرأناها بشغف في الكتب حين كنا أطفالاً نحلم بالمغامرة...»

جاء في إحدى الرسائل الأخيرة:

«أيروس هو وجودك أنت، نايي السحري الذي يبعث موسيقى يعجز عن عزفها أي فنان آخر. في الناي السحري لموزار أيضاً، كان ثمة عناصر هائلة: مشاهد كوميدية، مقاطع درامية، طقوس خرافية

عن التلقين، وأيضاً عن الترحال اللانهائي، سحر، نشوة. بالنسبة إلي هذه ذروة كل الموسيقيين العباقرة... وأنت، يا أيروس خاصتي، يا نايي المسحور، يجب أن أقبلك وأبقيك ملتصقة بشفتي، وأداعبك بكل أخلاص أناملي العالمة، وأحملك بين يدي لبعض من الوقت، ثم أضعك في علبتك التي هي الذكرى الشبيهة بالمخمل المتوهج... ثم أدوّن هذا وشفتاك تحتفظان بالأنغام كما تحتفظ «الفلوت» بنغمات شفتي العازف المنفرد».

«هكذا نحن، أنت وأنا».

*

ويسأل الصديق: «والآن؟»

«الآن ليس لدي أدنى فكرة. لا أدري ماذا حلّ بها!»

*

بعض النساء يمنعهن أيروس الذي في داخلهن، من التوقف عن الكلام، وهؤلاء كان شعراء الصين القدامى ليغنوا لكل منهن: «تعالي من القمر الغائم مع سحر يتلاشى في السماء الفارغة...»

تعلمت أنه علي أن أحقد عليهن، أن أتحاشاهن. لمن المهم جداً أن أتعرف عليهن من النظرة الأولى، بواسطة حاسة سادسة لا يمتلكها الرجال عادة.

إنهن لقادرات على قطع العلاقة بين لحظة وأخرى. حتى بعد أجمل ليلة حب على الإطلاق. إنهن يشعرن بالإثارة تحديداً من الوحشية الحاذقة التي بها يسدلن الستائر بضجة مدوية بالتلويح بالسيف. وضحاياهم مكرسون لتلقي أشد العذابات من حوارات نهائية لا سبب لها كما التالي:

«وكأنك أصبحت غريباً بالنسبة إلي».

أما هو فيشعر بحميميتها أكثر من أي وقت مضى.

«قل شيئاً. قم بردة فعل».

إنه عاجز عن ذلك. ماذا يمكنه أن يقول؟ يشعر أن قلبه مسحوق ويبدو له إنه قد سمع للتو كلاماً لا معنى له.

«حين حاولت أن أتخيل هذه اللحظة، تتابع قائلة، أعتقدت بأنها ستؤلمني كثيراً. لماذا لا أشعر بشيء؟» نظرتها فارغة مع أي شيء من الحذر: «كما لو أن الوقت الذي أمضيناه معاً لم يكن أبداً. هل من الممكن أن تمحى حقيقة كهذه بلحظة ومن دون أن تترك أي أثر؟»

لا يزال غير قادر على تصديق هذا. تمسك بذراعه وتضغط عليها:

«ساعدني كي أشعر بشيء على الأقل!... لو أنك لن تقول شيئاً فهذا يعني أنك مسرور، وفي أعماقك مسرور بأني أتنحى عن طريقك».

يعجز الرجل عن ربط أفكاره. يسائل نفسه بقلق هل أن اللذة التي تقاسماها كانت تعني شيئاً أو هل كانت موجودة أصلاً؟»

في هذه الأثناء سمع:

«كنت تعرف أن هذا سوف يحصل عاجلاً أم آجلاً».

«لا. لا لم أكن أعرف».

«بالطبع كنت تعرف فلا تحاول أن تتهمني بأني لم أكن عادلة».

«متى؟»

«لا تقل لي بأنك لم تكن مدركاً ولو حتى بتلميح صغير؟»

«لا. ومن ثم، هذه الليلة، حتى هذه الليلة، كنا بغاية...»

«أليس كذلك؟ ولكن الآن أود وضع حد لهذا. في هذه اللحظة بالذات. الناس يتغيرون. ولربما في يوم من الأيام سوف أكف عن التغير. ذات يوم، من يدري، قد أتزوج وأرزق أولاداً. سوف يكون الأمر رائعاً... إذا أتركك مع عاداتك، مع اهتمامك المرضي بنساء متشابهات».

تمرّ الأشهر ومن وقت لآخر كان يسمع أخباراً عن هذه المرأة التي أحب.

سمع أنها رزقت طفلاً من رجل آخر.

لهو أمر مروّع.

الوقت أمر مختلف بالنسبة إلى والدتي. بوسعي أن أصل إلى هناك في هذه اللحظة بالذات، إلى منزلنا في بو، وأرى الضوء مسلطاً على عشائي. سوف تقول: «إجلس إنه جاهز». كما لو أني قد خرجت للتو من المنزل.

جلست في إحدى المرات، بعد غيبة طويلة. تناولنا العشاء ثم قلت لها: «أود أن أعرف كل ما حصل ذلك النهار أو تلك الليلة حين حبلت بي. لطالما تساءلت عن هذا».

أجابت أمي ببساطة كبيرة:

«اصطحبني إلى المروج، هناك بالقرب من بوكا دي غاندا ثمة حقل بطيخ لذيذ المذاق، بإمكاننا أن نأكل البطيخ». اصطحبتها إلى مروج بوكا دي غاندا.

خلف أضواء رؤوس البطيخ كانت تسترخي ظلمة كثيفة. كانت الكلاب تنبح. توقفنا عند واد صغير بكر كساه العشب. كان مكاناً مناسباً لعاشقين يودان الإختلاء وممارسة الحب على العشب بين الكلاب وأشجار الحور. وكان ثمة جسر في الوسع

عبوره على دراجة نارية. توغلت أمي في الوادي. وراحت تحرك رجلها اليمنى إلى الأمام وإلى الوراء فوق بقعة معينة.

شرحت لي ببساطة أن ذلك قد حصل ما إن هبط الظلام.

كانت أمطرت بغزارة طوال فترة ما بعد الظهر. لكن المطر توقف عند الساعة الخامسة وأشرقت شمس متقدة جففت العشب. راحت تنتظر هناك ثم وصل أبي على دراجته النارية للقائها على الموعد الذي كان اتفقا عليه. مسألة ساعات. لو أن المطر استمر في الهطول لبضع ساعات إضافية لما كنت أنا هنا الآن. لكنت نجوت من الحياة.

أيروس وأخوة كل المخلوقات

ثمة عزلة مشتركة بين كل المخلوقات.

أنا وحيد هذه الليلة. وهرّي وحيد؛ ولا يقل عطشاً للحب عني أنا. إنه ساكن، يحدق في نقطة ثابتة في عتمة الخارج، من خلال النافذة المفتوحة. من وقت لآخر، كان يقترب مني فجأة ويلحس يدي بلسانه تماماً، كما اعتاد أن يفعل حين يود طلب مساعدتي. إذا ما حاولت إشعال عود ثقاب كانت عيناه الصفراوان تغرقان في اللهب بشيء من الشره المشرق.

أُنصت بانتباه. يمزق الصمت نواح قطة في اهتياج جنسي. إنها تربض عند قدم شجرة في الشارع في الأسفل.

لا يسعني التفكير بشيء آخر: أعرف أنه عليّ أن أجعلها تصعد إلى هنا لتكون مع هرّي. ولن يكون صعباً علي الإمساك بها. لسنوات قليلة خلت، كنت قادراً على ملاطفة حيوانات أكثر منها شراسة وأستميلها وأداعبها وأحملها بين يدي. وكان هواة الصيد المحترفون يعجبون بمهاراتي. أعتقد أن كيساً سوف يفي بالغرض.

حملت واحداً ونزلت إلى الشارع؛ أعرف أنه بإمكاني اجتذابها إلى داخله لتقع هي في الورطة. دبت الأنثى بدون تردد على طول الحائط وكانت أصبحت في غرفة نومنا، راحت تهسهس وتظهر مخالبها الصغيرة. ذنبها المقطوع الصغير كان بشعاً للغاية وكان من الواضح أنها تلقت ضرباً مبرحاً من الكلاب. اقتربت من هري وفجأة ارتدّت إلى الوراء وتقوست. راح هري يترقب ثم قرر. أخذ يشتمها من على مسافة أولاً ثم اقترب أكثر وأخذ يشتم كل جسمها. وبعد لحظة انتصب كل منهما على قائمتيه الخلفيتين واستخدما القوائم الأخرى للتسلّق إلى الهواء. إنهما يغمغمان سوياً وقد التصق حلقاهما. تبدأ لعبتهما الغرامية وأنسحب أنا. أغلق الباب لأتركهما في هناءة اللعبة التي يتقنان ممارستها.

إيروس والكتابات السرية

كل من يكنّ لأيروس حباً شديداً وصادقاً لا بد أن يكتب عنه: يوميات عادية، مخبأة في معظم الأحيان، ملاحظات مشفّرة، وكأنها رموز سرية خاصة، خربشات في مفكرة ممزوجة بملاحظات تذكّر بما يتوجب فعله أثناء النهار. ويحصل هذا حين تمتزج معاني أيروس بعادات وسلوك حياة بأكملها.

شعراء أيروس الكبار، احتفظوا جميعاً بيومياتهم. صفحات من العذوبة الفائقة تليها مباشرة صفحات أخرى مروّعة.

أنا أيضاً وجدت نفسي أبحث عن أشياء كتبتها على ورقات مبعثرة، خبأتها هنا وهناك... ثمة أمثلة، وفصول صغيرة، واكتشافات كانت مذهلة بالنسبة إليّ. لم أخترع شيئاً، وفي أغلب الأوقات كنت أكتب في اللحظة ذاتها، حين كانت الإنفعالات لا تزال تستحوذ علي، وكنت أرغب في عيشها ثانية وعلى الفور وفقاً لواقع حدوثها، لأعود وأضعها في سياق قصة حياتي. أعتقد أني سوف أتمكن يوماً من إعادة قراءة حياتي، حين أصير هرماً، وهذه الفكرة تمنحني سعادة كبيرة، وتثيرني مدة أخرى وتعيد إليّ عطر

بشرة شخص غيري فوق بشرتي، وعيناي تتقدان بإشراقة عيني شخص غيري. لسوف يكون رائعاً أن أتلذذ بطعم الشغف مرة أخرى من خلال الذاكرة. الصور والكلمات وما يخترعه العشاق، الصمت، هزات الجماع، الحماقات الصغيرة تصير كلها خفقات قلب الكتابة نفسها.

إن سحر الأيروتيكية مشع ومشرق باستمرار ويجب ألا نسمح له بأن يخبو يوماً. لا تدع شيئاً يضيع من هذه الملكية الثمينة.

إن مراجعة أوراقي، تلك التي تمكنت من إيجادها وقد ضاع منها الكثير، تتيح لي رؤية نفسي مرة أخرى في أيام شبابي وأحداثه. أمحو السنوات باللذة نفسها التي تمتعت بها في حصتي من هذه السنوات. وهنا بيت القصيد: لذة قراءة اللذات التي وُهبت والتي أتممتها بانسجام مع الطبيعة التي تتوق أكثر منا لعدم الضجر. تنتابنا بعض الكآبة بالتأكيد. ولكن لم النظر إلى الذكريات بسلبية؟ أليس الإحساس هو ما يدفعنا إلى الشعر، إلى الخيال؟ ألتقي صدفة أسماء وتواريخ. «ذلك» اليوم... من بين كل قصص الحب البعيدة والقريبة، ألتقي صدفة مرة ثانية «الأكثر إثارة للدهشة» «من كل النساء» «نساء من أسفاري» «بطلات الأدوار الرئيسة» «النساء الغيورات»، «الأكثر ذكاء» «الغامضات» وهكذا.

إلى جانب البوح والإعترافات، أجد أيضاً تفاصيل السلوك. البهجة والإذلال. لحظات إبداع في فرقة موسيقية: لحن ثنائي، ثلاثي، التباسات متطرفة، إنحناءة تحية، معزوفات، نقر بالأصبع على الأوتار، إهتزاز آلات موسيقية، نغمات صامتة. الموسيقى... لائحة لا حصر لها. كما أيروس.

إن النوطات، على عكس الكلمات، تشتهينا كما نشتهيها نحن. إنها المرآة المزدوجة لشهواتنا.

يا قصص حبي العزيزة على صفحات أوراقي المبعثرة: أحياناً تبدو زائلة. كنا متلازمين على مدار الساعة حتى أننا لم نلاحظ كيف كنا نخدع أنفسنا. والآن يبدو أن شيئاً منا يجازف بالثبات عبر الزمن.

تستمر لقاءاتي مع أ.ب. في منزلها خارج روما، إلى جانب الآخر من مستنبت زجاجي للنباتات لم تغب عنه زهرة واحدة: من الزهور البسيطة في الحقول وحفافي الطرقات إلى كل أنواع الورود والسحلبيات. إعترفت لها: «لم أعر اهتمامي من قبل للكتاب الشهيرين المتحررين. إن عبادتهم لأنفسهم تبدو عادة فاسدة في ظل تساهلهم الكبير مع نفسهم. هم يستخدمون إرشادات أيروس المسرحية بغية استبعاد روح شهوانية لا يمتلكونها. في الواقع لا يمكن لأيروس أن ينخدع بالنشاط العقلاني أو الثقافي، والخطط التعليمية.

«ماذا تعني بالمتحررين؟»

«ما عنته مدام دو مينتينون حين إستخدمت العبارة للتعبير عن الإنغماس في الملذات، والسلوك الذي يتجاوز كل حدود ويشذ عن القواعد والأصول. ولكن انتبهي: إن المتحرر الزائف، في الأدب، لهو قادر على التنظيم والوقوف ضد الفوضى ولو بطريقة إرباكية. أما المتحرر الأصلي فلا يعرف شيئاً عن هذه الأشكال المنظمة ولاحتى حين يحمل قلماً».

«وهل تقلقك هذه الكتابات؟»

«لا تقلقي فحسب إنما تسلبني عقلي، تغمرني، تحملني بفوريتها وترعبني أحياناً ولكنها لا تلمح لي ولا حتى بإشارة عن الخداع والمكر... أتكلم هنا على أولئك الذين يمتلكون الشجاعة الكافية فيودعون أنفسهم إلى الصفحات السرية كما الرسائل في القناني التي يودعها الناجي من غرق سفينة إلى البحر، إلى الخط. وذلك من دون أن يلمّح لنفسه بأنها على الأرجح سوف تنتهي في حطام سفينة ما. وهذا تعبير مجازي آخر يتضمن العناصر نفسها: أحب الذين يكتبون عن أيروس ويستخدمون أوراقهم بدافع لا يقاوم ورغبة جامحة كمثل أولئك الذين يبنون سفناً مصغرة داخل قنينة، وهي رمز للسحر الشهواني الذي يرتبط به أصلنا، للإثارات البدائية والإنحراف البدائي في حين ترمز السفينة إلى الكاتب الذي سجن نفسه داخل هذا اللغز».

تحتفظ أ.ب. بيوميات سرية وأنا أعرف ذلك.

أتابع «أحب هذا الفسوق المزركش بلمسة صائغ. ناس متورطون في طقوس الجسد البهيجة أو، على العكس، في المآسي التي تملأ باستمرار العناوين الكبيرة في صفحات الجرائم. إنهم يجازفون بحياتهم، بحيوية رابليه أو يأس سيلين. إنهم ينغمسون في الملذات ليس بسبب الفسوق، ولكن لأنهم يخشون التواري خلف حاجاتهم المرعبة أو المغوية.

«أعطني بعض الأمثلة».

«يمكنني أن أخبرك عن المركيز كاساتي وبعض الذين يشبهونه، أو اليوميات التي تأتيني بها النساء ليس بغية نشرها، وإنما لأنهن يعتبرنني شريكهن المعلن، من يستطيع إنقاذهن من الغرق في ظلال عبودية الجنس، في خساستهن ووحشيتهن. في هذه الصفحات

نجد شيئاً ما... حتى أنها مصاغة بلغة روائية مشوقة. إلى أي حد يمكن أن يستخدم علماء النفس وعلماء النفس المرضي هذه الصفحات كشاشة يقرأون عليها دلالات أخرى عن الحياة في الزمن الحالي، دلالات أبعد من حيوات الجنس.

*

هذه القصة هي من المآسي الرهيبة التي شهدتها فترة ما بعد الحرب في روما، وعاشتها المدينة بقلق رغم أن هذه المدينة غالباً ما تظهر لا مبالاة إزاء الأحداث حتى الإجرامية منها. ١٩٧٠، فيا بوتشيني ٩. في ليل الثلاثين من شهر آب/ أغسطس تم إكتشاف الجثث الثلاث. انتحر المركيز كاميلو كاساتي ستامبا دي سونسينو بعد أن قتل كلاً من زوجته آنا فالارينو، في الواحدة والأربعين من عمرها وكانت لاتزال تتمتع بجمال أخاذ، وماسيمو مينوريتي في الرابعة والعشرين من عمره، وكان صاحب تاريخ سياسي مضطرب وعرف عنه نشاطه السياسي في حزب اليمين، إبن عائلة بورجوازية طيبة وكما كتب عنه في تقرير الشرطة: «مشهور بإنجذابه إلى النساء وإنجذاب النساء إليه».

أُغلق ملف القضية بسرعة كبيرة على أنها مأساة غير ثلاثية، تورط فيها أفراد أسرة أرستقراطية عريقة تبلغ ثروتها المالية أكثر من عدة بلايين، إضافة إلى قصور عديدة وجزيرة «زانون» في أرخبيل «بونزا»، وفيلا في أركور يملكها حالياً سيلفيو برلوسكوني، وتقاليد تاريخية وسياسية عريقة (كان كاساتي رئيس إحدى الحكومات المؤقتة).

المركيز بنفسه كان عرّف زوجته إلى ماسيمو الشاب، بعد أن وعده بخدماتها على شرط الإشراف على علاقتهما. إثر ذلك

نشأت علاقة ثلاثية متينة دامت لبعض الوقت. كان كاميلو كاساتي يروّج لألعاب أيروتيكية لزوجته مع كثيرين برغبة منه بالقيام على خدمتها على أفضل وجه: شخصيات عديدة من المجتمع الروماني الراقي والنبلاء كانوا يعبثون مع المركيزة.

وبدأت المأساة حين نشأت قصة حب بين آنا فالارينو وماسيمو مينورينتيٰ وعلم كاساتي أن زوجته وحبيبها كانا يتملصان من سيطرته، واكتشف أنهما كانا يلتقيان سراً وأنه قد أقصي عن علاقتهما الجنسية. طار صوابه وعجز عن تقبّل دوره الجديد كلاعب ثانوي بعد أن كان مديراً لما كان من المقرر أن يبقى كوميديا شهوانية. وشعر أخيراً أنه مخدوع.

تفجرت نزعته إلى القتل بغضب جامح. وقد وجدت رسالة صغيرة كتبها المركيز قبل إنتحاره «أنا أموت لأني أشعر بأني عاجز عن تحمّل حبك لرجل آخر». بكل الطرق المنحرفة والملتبسة كان أحب زوجته آنا، بصدق رغم أنه كان يعرّضها لألوان مختلفة من الإنحراف والشذوذ، وكان تعلقه بها عميقاً إلى درجة إنه حين تواجه مع «خيانتها» تحطّم المحروم كاساتي وتساقط أشلاء صغيرة بصورة أسرع حتى من الرجال الذين يكتشفون إساءات مماثلة بعد حياة بأكملها، أو بعد ما يسمى بالعلاقات الطبيعية. إنها قصة من تلك القصص التي تدفع المرء إلى التفكر ملياً في الروابط القائمة بين الجنس المرضي والحياة العاطفية. كان كاميلو كاساتي مهووساً بتدوين لحظات وأوضاع تواطئه الأيروتيكي مع آنا، وذلك بواسطة القلم والكاميرا.

كتب «اليوميات الخضراء» المفعمة بالفرح، ولم تستول الشرطة إلا على جزء منها. صفحات هذه اليوميات تحتوي على أسرار

وحواش تفسيرية حول مجتمع بأكمله. مجتمع محزّز بالفسوق. وبهذا المعنى تبدو بعض المقاطع جديرة بأن تذكر. من ناحية ثانية، فإن السلطات والصحافة وكل الذين تسنى لهم مراجعتها أبدوا ذهولهم بعد أن استثارهم خبير منفرد، وهذا برهان آخر على الذوق الدنيوي والمرضي عند الذين يدعون العناصر «غير الفاسدة».

«... هذه السنة في أيشيا، بعد ليلة من القبلات مع إحدى صديقاتنا، توسّع شفرا فرج آنا وانتفخا. وبعد أن فهمت أن آنا، رغم أنها لم تنبس بشيء، كانت تتحرق شوقاً لإستعراض جسدها، اصطحبتها إلى شاطىء مقفر حيث كان بإمكانها انتظار مرور بعض المارة وهي بكامل عريها. وفي لحظة ما، ظهر خمسة صبية (بين ١٨ و٢٢ عاماً) وهم اعتادوا التردد على المكان مدركين أنهم سيلتقون حتماً امرأة أجنبية عارية؛ تمددت آنا على الفراش الهوائي وساقاها منفرجتان؛ وبطبيعة الحال، توقف الصبية وتظاهروا بأنهم يمرون صدفة ثم راحوا يطوفون حولنا وحين أدركوا أننا لن نقوم بأي ردة فعل، اقتربوا أكثر وراحوا يحدقون. كان شفرا فرجها ضخمين بالفعل أكبر من حجمهما الطبيعي بضعفين تقريباً. بعد خمس دقائق طلبت منهم آنا عدم القيام بأي حركة وعدم لمسها، وسألتهم أن ينظروا إليها فقط لأن هذا جل ما تشتهيه، بدأت تلامس جسدها، بيد واحدة أولاً ومن ثم بالإثنتين معاً؛ وراحت تستمني بيدها لأكثر من ربع ساعة، وبلغت ذروة هيجانها فيما شرع الصبية الواقفون هناك بمداعبة بعضهم البعض وأدركوا الرعشة، جميعهم في الوقت نفسه تقريباً. لكنها لم تلمس أياً منهم، وأي منهم لم يلمسها.

«بالنسبة إلي ولجهة الأيروتيكية، أجد الأمر رائعاً...» أنا لست

مثلي الجنس غير أنه لا يسعني القول بأني ضد وجود رجل آخر».

*

تتضمن يوميات ن. فضيحة غريبة: كانت ممثلة صغيرة وطموحة، وحاولت أداء أدوار تمثيلية في أنواع فنية مختلفة: في الأفلام، في المسرح وفي التلفزيون وعلى الأخص في وحشيتها. كانت الصفحات التي كتبتها، ومعظمها عن علاقات مع مخرجين شهيرين، مغمورة بوحشية المبتذل التي تطوف بين الكلمات من دون أي استراحة أو أي ضوء:«... كان يعاملني وكأنني نجمة كبيرة، أو على الأقل هذا ما تراءى لي. كان يرسل سيارة لتقلني، وقد علّق صورتي على جدار مكتبه وقال إن وجهي بغاية البراءة ما يضطره لأن يكون جاداً ... ثم ذات يوم، في فترة ما بعد الظهر، مارسنا الحبّ قبلني ولامس ثدييّ فخلعت ثيابي. فعلت هذا لأنه كان عجوزاً. وفكرت بأني حتماً لن أجد رجلاً آخر بمثل سنه. امتلكني فضول لأرى كيف يمارس رجل مسن الحب!».

هذا شكل من الإمحاء، تخليف آثار الخساسة على الآخرين بصورة مستمرة ومن دون أي تبريرات وحجج جوهرية، وهذا ما يجعل الإعتراف الصادق اعترافاً مرعباً. أقرأ الكثير، الكثير من المذكرات المماثلة: أعدادها تتضاعف يوماً بعد يوم.

هنالك عدد كبير من الشخصيات التي تشبه المخرج الشهير والفتاة المتوحشة.

*

أتذكر صديقي بييرو بكثير من المحبة. كان أيروس قد جمعنا في عاطفة مشتركة، حتى في تلك الأوقات التي يدعوها ذوو الإرادات

المريضة انحرافاً في طريق الإثم، غير أني أعرف أنها تفسر نبلاً كبيراً في القلب.

غالباً ما أعيد قراءة صفحات يومياته: وهذه، على سبيل المثال، الأخيرة وهي تثير مشاعري باستمرار. فأرى انعكاس نفسي مجدداً في صديقي. إنه وداع بييرو للمرأة التي عاش معها وأحبها بالرغم من كل شيء.

«... تبدو لي حياتي وكأنها فراغ يستحيل العيش فيه، كما يفرغ المسرح من الممثلين والمشاهدين. كنت ترددين بلهجة مؤنبة: «أنت تريد أن تعيش كل شيء دفعة واحدة». هذا صحيح ولكن ليس بالمعنى الذي عنيته أنت. لم أنحط قط، لم أكن يوماً معاشر بغايا كما وصفتني. إذا ما كنت أدخل حيوات النساء - حتى قاسيات القلب لأنكن أنتن النساء لستن مدركات إلى أي حد تكرهن بعضكن البعض - فذلك محاولة مني لأفهم أساليب حياتهن وذلك وبالرغم من كل شيء باحترام كبير ولو كان ظاهري التناقض، كما حين أشعر بالفضول بشأن شجرة أو ضوء. افترضي أن ثمة ضوءاً على نافذة ما. أنظر إلى هذه النافذة وأرى أنها مختلفة عن غيرها، فأشعر برغبة لا تقاوم للإطلالة على الحياة التي تجري في داخل الغرفة المجهولة. وأشعر بالأسف (وهذا سخيف بالطبع) لأن ذلك اللغز سوف يفر من قبضة يدي. إنك لا تنفكين عن تأنيبي وأنت على حق، من وجهة نظرك بالطبع. لقد حاولت فعلاً. تخليت عن فضولي وسجنت نفسي في المنزل لأيام عدة غير أن هذا، في نهاية المطاف، كان يسبب الإختناق لكلينا. كنا نفقد متعة ثمينة: كلية الوجود. أجل. كنت بحاجة لأن أكون في كل مكان في آن واحد؛ تماماً كما كنت بحاجة لأتمتع بقوة ما تمكنني

من تحرير نفسي في حيوات أخرى مختلفة، على أن استمر بالعودة إليك، متلهفاً لنورك الشمسي.

«... لقد أدركت على الدوام بأني سوف أكون دنيئاً كاللص حين أكذب على امرأة وأقول لها «أحبك». لي أصدقاء كانوا يبدون مهارة فائقة في نطق هذه الكلمة. يكذبون كما يركبون دراجة نارية ويسيرون بها على دولاب واحد. وماذا عن النساء عندما يرددن «أحبك»؟ أمنحهن فقط بعض الرعشات وفوراً بعد صرخات اللذة سوف يقذفون بكلمة «أحبك».

بكل صدق لم أقل هذه الكلمة لأمرأة غيرك.

أريدك أن تعرفي هذا. وأنت تعرفين أن هذا صحيح. الرجال، بصورة عامة، يا صديقتي العزيزة، يكنون احتراماً للعجز الذي يفتعلونه. بالنسبة إليهم، النساء المثاليات هن النساء العاديات. لم يراودني قط أنك عادية. لم تكن لي قط علاقة مع امرأة عادية... والآن؟ ها أنت على وشك فقداني. كم من المخاطر سوف تنتج عن تشبثك برأيك في هذا العالم ـ المسلخ الذي يدمر مزايا كل الذين يشكل بهاؤهم إهانة لثوراتهم البائسة.

كم هي هائلة الديون التي وفيتها لك، لكي أحميك من العالم، وهي سوف تعود لتثقل عليك ولن أكون بجانبك لكي أحميك من العواصف.

«أرجو أن تسامحيني. لمن الأفضل أن أتنحّى عن طريقك: طريقك أي طريقي، سوف يمر بعض الوقت، ومن ثم ـ لكم أرتعش لهذه الفكرة ـ سوف تعودين وترتمين على رجل مختلف في كل ليلة، مثل أولئك الأوغاد الحقيرين الذين كنت على معرفة بهم في

الماضي. «كنت تعتقدين أن بمقدورك السيطرة عليهم وعلى كل ما يحصل بينكما. ولكن هم الذين كانوا يطردونك في اليوم التالي بعد أن يضعوك في خانة العاهرات. إن هذه الفكرة بالذات هي التي تدمرني. أنا لم أصنف يوماً امرأة في خانة العاهرات. لطالما كان شعور بالإمتنان يشع في داخلي.

«أنا مسرور لأن «زمن النساء» قد ولّى وإلى الأبد.

يا للتناقض الرهيب بين فعل «غودير» (من الأصل اللاتيني ويعني «إنجاز هزة الجماع») وكان في الماضي يشير إلى نوع من الإحتفالات المقدسة، وبين ما يعنيه من سوقية وإبتذال، وما يرافقه من خداع وعذابات كبيرة.

«أرجوك أن تعتني بقطتي. كانت جزءاً مني. وستظل هكذا في حياتك الجديدة...»

لم أسمع عن أخبار بييرو منذ وقت طويل. آخر مرة رأيته فيها كانت حين جاء إليّ ليترك لي مذكراته.

أنا مشتاق إليه.

*

كم هناك من الرجال الذين هم في الواقع نقيض بييرو. وأنا أكرههم بكل كياني. سأختار واحداً منهم عشوائياً، من بين كل الذين تمظهروا أمامي كرموز لكل ما يلطخ عالم العلاقات بين الرجال والنساء. تروي مذكرات ب. وهي في الثلاثين من عمرها، عن أنموذج أصلي يتمتع بشهرة تافهة ويعتبر ممثلاً هزلياً؛ من الروح الهزلية التي يجدر أن تكون أشبه بخاصة الملائكة التي يرسمها كوريجيو، مفعمة بالظرف الذي ينفخ في الجسد إشراقة من الفرح،

لم يمتلك هو سوى الهيكل العظمي الأسود، هيكل الملاك العظمي، وإيماءات وقحة كاذبة في إطار عمق حزين.

لم يمن عليه أيروس ولو حتى بإشراقة ضئيلة من النعمة. إنه من أولئك الرجال التافهين، العاديين حتى في تفاهتهم، الذين يستعملون المهابل ليفرغوا فيها كل عقد النقص. بين النساء أيضاً تراهم يفرجون عن الكرب الذي ينخر فيهم: لكنهم لن يصيروا قط مواهب إبداعية صادقة. هذا النوع من الرجال هو شبيه بالقردة في حديقة الحيوانات.

ومع هذا فالنساء يتدافعن إليهم. حتى النساء اللواتي لسن غبيات على نحو بيّن. تجدهنّ يختلقن الحجج والأعذار التي تفتقد أي منطق. «ضمان بالموافقة» يرددن مازحات ومع ذلك فإن الأمر يبقى مروعاً. لماذا إذاً؟ لماذا تسحرهن الشهرة السخيفة؟ من الصعب أن نفهم هذا ومن الصعب أكثر أن نشعر إزاءهن بالشفقة والتفهم. إن يوميات ب.س. تتميز على الأقل بالأمانة والصدق وأيضاً بالإشمئزاز الذي تعبّر عنه الكاتبة بقوة شديدة:

«... يشرب كأساً أخرى، ومن ثم ينقض عليّ. يخلع ثيابه وينتزع عني ثيابي. يحصل كل هذا في أقل من لحظة. ينظر إليّ ويقول: «لديك مؤخرة رائعة: «يجرني إلى غرفة النوم حاملاً معه قنينته. يشرب كأساً أخرى، ومن ثم يسكبها على جسدي ويشرع بلعقي كما كوز البوظة. يلجني ولا يسعني القول إن ثمة متعة في الأمر... يصطحبني إلى الحمام. يجعلني أقف إلى المغسلة قبالة المرآة. أستند أنا إلى المغسلة فيما يلجني هو بعضوه الوقح، سكير نتن: «أنظري إلى نفسك كم أنت جميلة».

لا أستمتع بعضوه، الشديد الوقاحة والشره. لكنه يقدم لي

صورة واضحة عن نفسي... أرافقه إلى روما. قبل أن يضاجعني يغني لي أغنيات ويعزف لي على الغيتار. أتقبّل وخزته المخللة بالكحول، ومن ثم حماسته لإرضائي بكل فخر وامتنان... تجذبني كلماته المبتذلة البلاستيكية وجل ما يريدني أن أشعر هو هذا... إنه يشرب، يدخن، يعجز عن المضاجعة إن لم يسرف في الشراب.

يخيفني كل هذا لأني مذعنة له.

أغادر وأنا أشعر بالإشمئزاز. أبكي بكاء مريراً، وأشعر بالصقيع يتضاعف في قلبي.

«أشعر برغبة جامحة لأن أتقيأ كل الأنثى التي في داخلي، وأقتلها. ليس لدي أدنى فكرة عن ماهية هزة الجماع الحقيقية. من بين كل الرجال الذين غرزوا أنفسهم في رحمي، لم يعرف أي منهم أن يقول لي كلمات إنسانية وقد نسوا كل ما هو أيروتيكي. لم أتذمر مرة، ولكني من وقت لآخر أصدر أنيناً خفيفاً واهناً، من المفترض أن يعني «شكراً هل أنتهى الأمر؟».

... شكراً لك، شكراً لعضوك المتدلي، الغبي العديم الفائدة، ذلك الذي بسببه من عذابات مملة على أمل أن أجد يوماً إيماءة حنونة تافهة».

إن يوميات ب.س. تستحق النشر والترويج لها على نطاق واسع: إنها شهادة حقيقية تكشف صورة غير عادية عن مواجهة الأنثى مع غباء الرجل. أمل أن لا تكون ب. خسرت نفسها، بلا أمل لها بالخلاص، في خيبات أملها والحيرة.

السعادة الكبيرة والصغيرة

... في أحلام اليقظة، أحلّق عالياً، عالياً جداً في الخيال: هناك

عدد من الفلكيين الذين يؤكدون اليوم أن ثمة من يتحابون في السماء.

حتى النجوم والأجساد السماوية تمارس الحب. آخر الإكتشافات الفلكية مصدره اليابان: هنالك «غرفة ولادة نجمية» معلقة بين الكواكب، وفيها تتكون وتولد النجمات الصغيرة. وقد بلغ عددها التسع في آخر ولادة. هذا المهد في «الستراتوسفير» ينزل ضيفاً، ويا لغرابة الأمر، عند كوكبة الثور. تتحدث لغة الكوزمولوجيا الحالية بحنان تشوبه السخرية، عن «المني النجمي» أو «الرعشة النجمية» إنه صدى بلا حدود.

... وها أنذا مغموراً بخريطة السماء المكتظة بالنجوم كما لو كنت جزءاً لا يتجزأ من الأنظمة الكونية اللامتناهية، كما لو كنت أتنفس بنفسها. أنصت بانتباه إلى صمت القبة السماوية لأن هذا الصمت الذي يتواصل ويتكلم ينبهنا إلى وجود لغة تعبّر عنا، فوق في الأعالي: هذه اللغة هي نحن... أندروميدا هي الحبيبة الأكثر رقة بين كل الكواكب... كما لو كنت ألصق أذني بباب سريّ، فيتهيأ لي سماع أصوات النجوم في كثافة جماعها. صيحة نجمة نجمة، صغيرة، بالكاد أكبر من ومضة ضوء، في كفاف نقي من الأنغام، وكأنها ابتهال امرأة تجتاحها اللذة.

*

في سريري، في غرفتي الصغيرة، مكبلاً تحت الغطاء، كنت في بعض الأحيان أسمع والديّ وهما يمارسان الحب في الغرفة المجاورة. تلك الهمسات، تلك الصيحات المخنوقة، كانت تحررني قبل كل شيء من خوفي من العتمة. كنت أنهض وأتوجه إلى الباب مرتعش القلب. كنت أستند إلى الخشب وأضغط برفق بيدي وجبيني.

وأصغي ليس بدافع فضول مرضي إنما بإحساس عميق يراودني ويدفعني إلى شكر الله...

لم يكن العالم أساء بعد إلي.

وكانت أمي من جهة ثانية، بدأت تعاني من انهيارها العصبي كان رأسها محشواً بالأفكار المريضة التي حطمت حياتها وحياتنا لسنوات عديدة.

أستمع إليها وهي تمارس الحب، وبإدراكي الحسي الطفولي البسيط، كانت السعادة تغمر قلبي من أجلها. هذه السعادة كانت من أجل أمي، من أجل لحظاتها القليلة السعيدة وكانت تحملني لأطوف في ليل المنزل. كنت أعرف أنها سوف تغرق في ذلك الصمت المتعب الذي يلف العشاق بعد الحب، كما يفعل بالأشجار عند الشفق في أيام الصيف المشرقة، وكان والدي يبدأ بالتدخين فتلفه هالة لازوردية فيما يحدق في السقف. هذه الهناءة كانت تدفعني لأن أفتح النافذة السرية، لأتأكد من أن النجمات كانت تشع فعلاً فوق رقاد أمي السعيدة المتعبة.

*

خلال تجوالي في الليلة الرومانية، أخبر صديقة لي عن التنزه في أنحاء بارما الصامتة كمثل صمت المرافىء في الليل، بين المراكب المرساة، وأتلذذ بهذا الصمت بغبطة دلفين لعوب، وأتحسس الممرات المظلمة التي تفضي إلى مراكب محطمة عوضاً عن الحدائق. كانت النوافذ تحدق بي كما كوات سفينة تغرق، والمصابيح الحديدية كانت كالمراسي العالقة في شباك الطحالب.

انتهى بي المطاف تحت شرفة تأسر ضوء القمر على واجهة الفندق حيث كنت أنزل حين أذهب لزيارة والدتي. كان هذا منزل

«باستاديلا»، أشرح لصديقتي وأخبرها عن ليوبولد موزار الذي بعث من بولونيا بإحدى الرسائل بتاريخ آذار/ مارس ١٧٧٠، جاء فيها:

«في بارما تعرفنا إلى مغنية وذهبنا للإستماع إليها في منزلها ووهبنا متعة خالصة. إنها «باستارديلا» الشهيرة تلك التي تملك صوتاً رائعاً كانت تغني في حضرتنا كل النوطات والمقاطع التي وضعتها في هذا المغلف».

وهكذا وفيما أنا واقف تحت الشرفة الصغيرة، وتغمرني سعادة الدلفين وتخرجني كما وثبة الحصان من سكوتي الرصين، رحت أتخيل ليوبولد الذي خرج إلى حشد صغير وأعلن بإسمه وبإسم إبنه أيضاً أنه بإمكان بارما من الآن وصاعداً أن تتفاخر، بما تعجز عنه أي مدينة أخرى، بمغنيتها الساحرة. ثم، خلف والده، ظهر المراهق موزار وأفسح الإثنان الطريق ليقدما «لاباستارديلا» التي شرعت بالغناء... ويحكى أن «لاباستارديلا» كانت موهوبة بالغناء كما في سخائها الكبير بالحب».

يسرني أن أتكهن انفعالات موزار الشهوانية الأولى.

*

عندما أشعر بالإحباط، أذهب لزيارة «موريزيو»، وهو من أصدقاء ورفقاء ملذات فترة شبابي ـ ويمكن للبعض أن يسمي ذلك وقاحة ولكننا كنا نحسن معاً السخرية من العالم. كان «موريزيو» نقيض بييرو: ظريف، بارع في ابتكار وتنفيذ الألاعيب والمزاح. يعشق روسيني إلى حد العبادة ويبرع في إضفاء الحماسة والإبداع في تجسيد أيروس كما في أوبرا كوميدية ضخمة.

تجاربه العاطفية وكأنها مستوحاة كلها من أعمال مؤلفه المفضل: بعد طلاقه من زوجة لاتطاق وفي ديونه لـ «عقد الزواج»؛

كان يتودد إلى النساء ويتسلق «الدرج الحريري» في أحلامهن؛ كانت عشيقاته تعرضنه باستمرار لـ «خيبة الأمل السعيدة» مع ذلك كان شاهداً على الكون الأنثوي حتى في أسوأ حالاته كما في «محك ذهب» الحياة؛ لم يترك أي فرصة تفوته من دون أن يشدد، بغرور روسيني، على أن «المناسبة تصنع السارق» ولم يهمل كذلك أي «ساندريلا». فقد عقله على «أيطاليات في الجزائر» و«تركيات في إيطاليا» وبكل حنان ورقة ترك نفسه ليسرقه «العقعق اللص».

يجد متعة كبيرة حين يروي لأصدقائه مغامراته المذهلة والشاذة، كما لو أنه لم يلتق يوماً امرأة تمت بأدنى صلة إلى الواقع. إنه يعشق هذه الأدوار. يا له من ممثل! كم من مرة راح «موريزيو» يستعرض نفسه أمامي متباهياً، وأعرف أنه لا يقوم بهذا إلاّ لينتزع مني ابتسامة، وتراني أصاب دائماً بالذهول حيال قصصه المفعمة بفرح طفولي وبصوره المشاكلية حيث يمتلك الجنس، حتى في أوجهه الأكثر عدائية، مزايا مسلية كما طفل يضخم العالم والحياة فيجعلها مردة وغيلاناً، لأن الخوف والندم قد يستوليان علينا في أي لحظة ويسلبانا كل ما نمتلكه.

موريزيو جامع فريد للكتب، ولايخفي افتتانه بكل ما يمكنه أن يكون شاهداً على تاريخ أيروس عبر القرون. حين أزوره في منزله يرحب بي بغمزة من طرق عينيه وباستشهاد من بيار ماسون: «بالنسبة لمعظم النساء، أن الثبات هو إسم البحيرة التي تغمر مياهها العذبة أربعة بلدان مختلفة». أما أنا فكنت اضطر لأن أغمض عيني، تماماً كما تفعل النساء حين تزرنه للمرة الأولى ويشعرن بالذهول. يعيش «موريزيو» وسط جدران مغطاة بأكملها بصور لنساء قليلات العفة: ملصقات فاحشة، صور فوتوغرافية عارية

وتعليقات مختلفة، رسومات أيروتيكية، تماثيل قديمة من حضارات مختلفة مطبوعات، رقعات كتب، طباعات حجرية، تماثيل إعلانية صغيرة وصور كاريكاتورية.

في منزله أيضاً بعض الكنوز الحقيقية مثل لفافات من ورق البردى الياباني وجواهر قديمة مختلفة. الجدران تعمي الناظر إليها بتفجر ألوانها الذي يشظي كل المساحات. عروض فاحشة، أوضاع مثيرة، وعود باللذة مبعوثة على شكل رسائل لذيذة ومبهمة. مثل أن يسترسل في النوم، يجوّل صديقي نظره على المكان ويغلق جفنيه على شبكة عينيه الحاملة ألوان العاريات المشرقة، المتناثرة في أنحاء منزله الذي هو واحد من ممالك أيروس. يتمطى بسعادة ويهمس قائلاً: «إلى الغد يا صديقاتي العزيزات. لو حصل مرة أن غفوت من دون أن أفكر بسعادة رؤيتكن في اليوم التالي، سوف يعثرون علي ميتاً في هذا السرير».

أعتقد أنه لا يفوت عليه أياً من التفاصيل الصغيرة في مطلق كتاب، أو أي بيان مصور.

الغرض الوحيد الناقص في مجموعته هو إصبع القديس توما وهذا يجعله في قلق دائم. يدفعني مراراً بعجلة لأن أدخل وإياه كنيسة سانتا كروس الرومانية غير وساليمي حيث يتحفظ في مزار القديسة هيلينا ذخيرة لا تقدر بثمن: أصبع القديس توما، الذي دسه الرسول المشكك، سيد المشككين بين ضلوع يسوع ليتأكد من أنه هو بالذات الذي قام من بين الأموات.

ومن ثم يدفعني «موريزيو» لأقترب من العلبة التي تلمع كالياقوت الأزرق، وفي وسطها ينتصب الأصبع الأسود الصغير اللامع. وحول الظفر خط بلون الصدأ قد يكون بقايا الدم المقدس.

«هل تراه؟ أشار إليّ. أنظر إليه. هذا هو الأصبع الذي أبكي فقدانه، بلا شك، مصافحات الجنة وأحدث تشوهاً في ثاني أحب القديسين إلى قلبي، بينما الأول هو بلا شك جيواشينو روسيني».

«وإذاً؟» قلت وأنا متشوق لأسمع شروحاته.

«وإذا تذكر: إن أصبع القديس توما وشكه الإلهي هو ما يتوجب عليك استخدامه مع كل أصناف النساء: الشابة، العجوز، الطويلة، القزمة، الشقراء، السمراء، الصهباء، الصلعاء. ما إن تلتقيها، ما إن تشعر بضعف تجاهها، يحين الوقت لتغرزه، تماماً كما فعل القديس. وإلا فسوف تجد إبهامك عالقاً في مكان آخر وأسأل الرسول أن يسامح مزاحي هذا، ولكنه لم يحترم يسوع كفاية حتى يبعد يده عنه، لماذا علي إذاً الإحتراس من هذا الأصبع؟»

أذكّره قائلاً: «حين كنت تغرق في حب مجنون لطالما كان ذلك مع امرأة تحطمك في نهاية المطاف». ألقى «موريزيو» نظرة أخيرة على الأصبح المفقود في مجموعته.

«هذا صحيح. ولكن كان هذا بمحض اختياري لطالما فهمت على الفور. ولكني كنت أحبهن حتى الجنون وفي كل مرة كنت أقول لنفسي: ما همني لو حطمتني؟ في جميع الأحوال كنت أعرف منذ البداية، وطالما كان يستمر أكون مغموراً بغبطة مجنونة. أنا آسف أوهل أثرت غضبك؟»

«لا. لا. على الإطلاق».

خرجنا من الكنيسة وعاد «موريزيو» إلى تكرار مفرداته التي يستهلها دائماً بـ «هل تذكر».

«كانت لنا أوقات رائعة أليس كذلك يا دارتانيان؟» لم أفهم أبداً لماذا كان يدعوني دارتانيان، ولم أسأله قط لكني كنت أحب هذا.

«... أتذكر حين...؟»

«أرجوك»، أحاول أن أقيم سداً لأوقف فيضان الـ «أتَذْكُر حين» التي لا تنتهي «بالطبع أذكر، أذكر كل شيء».

ولكن الوحي كان حلّ عليه ولم يعد يسمعني.

«أتذكر تلك الليالي في أوستيا؟... أو تذكر الأميرة والمؤخرة؟ فينوس والقضيب؟... وكارلينا التي كانت تفوقنا ظرفاً، تعلّمت كل ألاعيبنا ومارست معنا بعض ألاعيبها الخاصة. من يا ترى يعرف ماذا حلّ بكارلينا...؟ هل تذكر الدعابات التي كنا نقوم بها؟ كنا متحررين كلياً من العقد، كنا أسياد قلوبنا وأجسادنا، كنا أنقياء حتى أثناء قيامنا بأعمال غير لائقة لأنه حتى في أسوأ الأوقات، كان صوت جيواشينا يتردد في عقولنا: (أنظر إلى الضحكة السماوية). فهمنا الحياة إلى درجة أننا صرنا قادرين على اختراع مسرحية إيمائية، أو باروديا ساخرة من كل الإحتفالات المتوقعة، المليئة بالقلق والأوهام، تلك التي كانت برأيي جماعة كوغليوني، ضرورية لاجتذاب امرأة إلى السرير... من أجل أربع ضربات وفجوة، رجال وفجوة، لأنهم لا يرون ولا يشعرون بأي شيء آخر، يسترسلون في ابتهالات مناسبة لتابوت وشموع مضاءة... يا لها من مجموعة خصي مكتئبة فاسدة ومشؤومة...»

أفسح لموريزيو أن يسترسل في هذيانه، لأنه في أوقات مماثلة، يبسط يديه ويبدأ ترداد استشهادات من أبيات يفضلها في قصائدي:

لن يبقى منا سوى بالكاد خفقة قلب

المساء هادىء لأن الريح سكنت

أمارس معك الحب

كما نجّار يصفر ببراءة

وهو يسحج أخشابه.

آخر المقتنيات التي وفدت إلى منزل موريزيو، ملصق ضخم لماكينة سيبرسيكس: إنها آلة، يقول مخترعها، تتيح للمرء ممارسة الجنس مع من يحب من على مسافة ولو بعيدة. يشرح لي صديقي أنها عرضت في الأسبوع الماضي في الصالون الثالث للأيروتيكية في بولونيا: «أيروتيكا٩٤» وفي ذلك المكان الشيطاني الصاخب كان أحدهم يحاول إغواء فتاة صغيرة لتجربة إحدى الآلات تحت الضوء الأحمر، فيما رحت أنا أحدّق في الآلات المستقبلية المختلفة: جهاز الإحساس، جهاز الرعشة، الأسواط، الحبال.

راح الناس يصرخون: «مهرجون، مهرجون!» ولكن لوحظ فضول كبير لدى الجمهور، وشوهدت حشود ثائرة متوعدة. ووفقاً لما جاء في الصحف فإن مئات الأشخاص كانوا ينتظرون في صفوف طويلة وفي زحمة سير خانقة على طريق «تانجينزيال». إن صناعة الإباحية وبما فيها صناعة النساء الآليات تشهد ازدهاراً كبيراً: ينفق الإيطاليون سنوياً أكثر من ألف وخمسماية بليون لير على المنتجات الإباحية وألف بليون لير على أشرطة الفيديو الإباحية. التقط موريزيو إحدى الصحف وراح يقرأ بصوت عال: إن آلة «السيبر» هي عالم من الغموض تمتزج فيه السياسة والجنس والخيال. من الحقيقة التقديرية إلى التحولات الثقافية والأنتروبولوجية نحو عالم يفتح الطريق أمام الأنثوية الآلية. ما بعد الديموقراطية: إجماع جنسي وسياسي يتكره أعلام المستقبل».

يسألني: «أتعتقد أن إيطاليا ستتغير يوماً؟ إيطاليا هذه حيث يتحلل الوجود في الأحشاء الوسخة، بحسب ما قاله غادا... غادا،

كاتب أكن له إعجاباً كبيراً لا يقل عن إعجابي بروسيني تقريباً. يا له من نبي! لقد تكلم على أيطاليا بوصفها خبيصة من الطعام النت،ن أو قدر مليء بالمرق يغلي فيه الجميع ببطء - البيروقراطية، الطبقة الحاكمة، القضاة والمحاكمون، السياسيون وضحايا السياسة، الفاسدون والمُفسدون... إيطاليا، قال، المسحوقة بالكرب، أحشاء من الرؤوس المشوهة والأجساد الكسيحة. أغبياء يتضامنون حتى في الجنس المعدم القيود والأحاسيس، يتغرغرون به ويختنقون به... غرغرة جماعية. هل سيتبدل الأمر يوماً؟»

نخرج إلى الشرفة. للمرة الأولى أراها تخبو حيوية صديقي الروسينية، التقط جرائد أخرى ورماها في الهواء بعد أن قرأ عناوين مختلفة: «الوداع أيتها الحميمية. أصبح الجنس حدوثاً»، مطلوب نجوم لأفلام إباحية: «آلاف الرجال والنساء يجيبون على الإعلان». متلهفون جميعاً للظهور أمام الضوء الأحمر لتقديم التجربة الإدائية، ومستعدون للعمل من دون مقابل». نحدّق بالضباب الذي يلف روما. من غير المجدي أن نرفع صوت معزوفة روسيني.

«هل سنتحرر يوماً من الغباء الآلي الذي كتب عنه غادا؟»

علي أن أخبره الحقيقة.

من يوميات الأيام العابرة

أيام شهر حزيران/ يونيو، قرب النهر.

قدم صبي صغير لمقابلتي... وجدته عند باب منزلي في بو. نظر إلي محدّقاً كما لو كان يود نقل تفاصيل لقائنا إلى شخص آخر. كان خدّاه أحمرين وبدا لي لطيفاً للغاية. كان يحمل في يد باقة من الزهور ومغلفاً في اليد الأخرى. سلمني باقة الورد والمغلف وفر

هارباً بعد أن توقف لحظة قصيرة ليردد لي: «أنا غيليانو، إبن أخيها».

فتحت المغلف وقرأت فيه: «سوف أكون في انتظارك في البار الأزرق. هذه الليلة. كما في الأغنية التي تقول إن القمر روح تائهة».

بدون أي توقيع ولا حاجة له. عرفت من هي.

بدأت تجوالي في العتمة وكان القمر بدأ يشق طريقه مثل كآبة سوداوية يصعب تفسيرها بالتحديد. سلكت الطريق المؤدي إلى البار الأزرق. تذكرت حديقة الحيوانات الصغيرة على الجهة اليسرى من الطريق قبل السد. كانت لاتزال قائمة هناك. استسلم ضيوف الحديقة للنوم في صمت يشبه صمت النجوم: بضع ريشات تطير هنا وهناك بين الأقفاص: ريشات عصافير الجنة بدت كما كسرات الماس تحت الضوء القمري.

مشيت حتى ساعة متقدمة من الليل، حين تبدأ كراسي القش تتكدس أمام المقاهي، وتراها تتكدس وتزداد، الواحدة فوق الأخرى كما الأفكار في رأسك. يخفضون الأبواب الحديدية فترجع صدى قوياً يلمّح وكأنما إلى أن تلك الفكرة الهائلة أن كونها الحياة لربما لا تستحق إلا هبوط ستارة هائلة الدويّ.

كان القمر قد تعلّق في أعلى نقطة حين جلسنا متواجهين كنا لوحدنا بين كراسي القش متذوقين نكهة ما بدا لنا أكمل قمر رأيناه على الإطلاق.

تلامست أيادينا:

«الوداع يا آدا».

لم تقل شيئاً، أحنت رأسها وضغطت على يديّ كانت مرت سنوات عديدة لكنها بقيت على جمالها، آدا فيتالي التي قال ليغابو يوماً إن عضوها كان أجمل عضو على طول نهر البو، وأراد الإحتفال به فعمد إلى نقشه على جذع شجرة الحور ومن ثم جثم على ركبتيه وقام بعبادته كما لو لم يكن هو الذي أبدعه إنما الطبيعة نفسها هي التي قدمت له في تلك اللحظة الهدية الأجمل التي طالما رفضت أن تقدمها له المرأة الحقيقية.

آدا، أول امرأة أفسحت لي مكاناً إلى جانبها في السرير...

في قرية المناجل.

تركنا وقتاً طويلاً يمر، ولطالما كنا على وشك أن نتكلم إلى بعضنا ولكننا لا نتفوه بكلمة واحدة. أدركنا إنه لمن الرائع أن نبقي الأمور على حالها: كلمات على طرف لساننا، كلمات عديدة لا يتسع لها أي حديث. حين بدأ الفجر ينبلج شاهدنا على قمة التلة أحصنة المراكبين تتقدم على طول الأفق في صف طويل، وتسير بطاعة مهيبة وراء الحصان الموجه وكان الوحيد الممتطي.

ومن دون أن يلاحظ، ابتعدنا إلى عمق النهر حيث حلّقت أسراب طيور مالك الحزين الحمراء وراحت ترتفع مع طلوع الشمس مخلفة وراءها رمالاً مبهرة حولت السماء إلى قبة بلون الدم.

توقفنا عند مكان فيه أمواج البحر تتصارع مع تيار النهر فتجعّد وجهه، ويبدو وكأن الماء تتدفق إلى الوراء وتسير ضد التيار عوض أن تجري إلى مصب النهر، وحياة لكلينا كانت شبيهة بهذا بسبب ما كنا نشعر به في داخلنا. حينها، حينها فقط، سألتني آدا فيتالا:

«كنت جميلة يوماً، أليس كذلك؟»

ـــــــــ إيروس تلك التي لم تكن يوماً

أفكر في ميزيا.

كانت إحدى أكثر نساء هذا القرن سحراً وفتنة.

رغم أنها كانت تنتقل من عاشق إلى آخر، وبالرغم من زيجاتها التي أمنت لها الثراء والهيبة الإجتماعية، نجحت في الحفاظ على حريتها. كانت ملهمة الراقصين والمشاركة الوحيدة في مأساة دياغيليف، ولازمته لتندبه وتبكي عليه. كانت الوحيدة التي فهمت بطل «الباليه الروسي» التعيس، فاسلاف نيجينسكي.

أفكر بحياتي المفقودة. وكم كان في الوسع الا أخسر أجزاء كثيرة منها لو كان بجانبي امرأة مثل ميزيا.

أيروس الندم

مرة أخرى، صور من المناطق المجاورة، في الضواحي التي لا تبدو رومانية. واجهات المباني عمّرت أكثر من المباني نفسها. ساحات وصفوف قناطر تطوف في الفراغ، مداخل قرميدية توحي بغرف سرية وراءها الفراغ أيضاً. كل شيء بدا وكأنه ينهار أو ينشأ بالصدفة في قذارة الريف.

يسقط النور كما ضربة سيف من الغيوم الأرجوانية. كل مرة كنت أزور فيها منزل أليساندرا، كان يراودني شعور بأنها تسكن خرائب في جزيرة رُكبت تركيباً، بفعل سحر طبيعي، عند جذور العاصمة.

سوف أسمع عاجلاً موسيقى تنساب من نوافذها مشيرة إلى منزلها المختبىء وراء صف من الأشجار أدركتني الموسيقى وعرفتها.

كانت «كونسيرتو غروسو» لبوشيريني، إحدى المقطوعات الموسيقية المفضلة لديها.

«إن «الطول الموجي» عند بوشيريني يعبّر عني». كانت تقول لي بشغفها الكبير إلى التناظر الوظيفي.

رحت أفكر في الدروس التي كانت تلقتها في التاريخ والفيلولوجيا وحبها الكبير للأساطير الإغريقية، وهذا كان ليهبها شهرة أكاديمية واسعة، لو لم تقامر بنجاحها الشخصي في سبيل حبّها للعبة نفسها.

كانت تقول لي: «الأمثولة الأهم التي تقدمها لنا الحضارة الإغريقية هي أن الفن يزدهر وبغرابة، في الظروف كافة، في الرخاء وفي البؤس، في الحرية وفي العبودية».

كانت تعتبرني فناناً وبالفعل كنت أتدبّر أموري حتى في أحلك الظروف وأقساها.

لقد آمنت بي ودفعتني لأن أؤمن بنفسي. طباعها المرحة والغريبة كانت تثيرني، وتحرك طباعي البائدة والمتزمتة. توبيخ صغير منها كان ليسبب لي إزعاجاً كبيراً وشيئاً من المرارة وخصوصاً توبيخها لي حين استسلم لرذيلة الإصابة بالإحباط، ومن ثم الشعور بالعذاب لكوني استسلمت. غير أن أصحاب الرذائل لا يتبعون النصائح.

كانت اليساندرا تسحرني بحيويتها الذهنية والعاطفية. وهبتني بذور قصص وجعلتني أتورط في أوضاع مفاجئة، حتى في قصص الحب مع نساء كن صديقات لها. لم تعرف الغيرة قط وكانت تعرفني باستمرار إلى صديقاتها، وهي على قناعة بأن فضولي يجب أن يفترس كل شيء فأتحاشى الوقوع في الكآبة التي يمكن أن تفترسني بدورها.

«عليك أن ترى الأمور كما هي». كانت تقول لي بإصرار شديد. «كف عن تحويل كل شيء إلى أساطير». «أأنتِ من يقول هذا؟ أنتِ من جعلت من الأساطير العظيمة السبب الوحيد لحياتك؟» أجابت بوضوح: «أجل أنا أقول لك هذا لأن السفر الحقيقي الذي يجب أن يقوم به الإنسان هو من خلال أساطيره من أجل أن يتوصل إلى تحرير نفسه منها». لم تتوقف أليساندرا عن مهاتفتي حتى بعد قراري بقطع العلاقة مع كل من حاول مثلها أقصائي عن ملجأ إحباطي ووحدتي. ماعدت أرغب في الإستماع إليها. ولا حتى حين كلمتني في آخر اتصال لها وكان صوتها مختلفاً، وكأنها كانت ترغب في طلب مساعدتي. إعتقدت بأن ذلك ما هو إلا لعبة جديدة من ألاعيبها المعتادة. بدا لي سخيفاً للغاية أن أفكر بأن أليساندرا التي تقدم المساعدة لكل من يحتاجها، يمكن أن تشعر يوماً بحاجة لطلب المساعدة، وبتلك النبرة الكئيبة التي لم تستخدمها قط. ذات يوم وكنت في حالة نفسية كريهة أقفلت الخط في وجهها وفي نهاية المطاف، انقطع كل اتصال بيننا.

*

... دخلت إلى حديقتها، وخرجت أنجيل ب. للقائي. كانت أنجيل سكرتيرتها ورفيقتها. «كاتبتي المجتهدة» كانت تقول عنها

أليساندرا وتضيف: «لو بقي أي أثر مني فأنا مدينة لها بذلك. إنها تدوّن كل شيء حين أتكلم على الأساطير المتوسطية أو حين أرتجل مكائد خاصة. غير أنها تجهل أني أبحث في مذكراتها أنا أيضاً. سررت برؤية أنجيلا. مدّت إليّ يدها. ترددت قليلاً قبل أن تقول: «هل تريد حقاً رؤية أليساندرا؟

لم أفهم. أشارت إليّ بأن أتبعها. صعدنا الدرج الصخري وتوقفنا أمام باب مغلق. قرعت أنجيلا الجرس تكراراً. لم يجب أحد. أخيراً ظهرت يد أنجيلاً من بين دفتي الباب وبان على أصبعها مشعاً الخاتم الذي كنت قدمته لها. راحت تبسط أصابعها وتغلقها كجناح العصفور. وهذه الحركة كانت تعني «إرحل».

«هذا أنا»، قالت أنجيلا بنبرة تستخدم للكلام مع الأطفال.

أغلق الباب. أحنت أنجيلا رأسها وتنهدت: «سوف تفتح الآن، سترى».

وبالفعل فتح الباب. لكن أليساندرا لم تظهر. إصطحبتني أنجيلا إلى غرفة الجلوس بين أقفاص العصافير التي تتدلى من حولنا. عصافير من أجناس مختلفة. نظرت إلى مكتبها وقد غطي بقطعة قماش رثة وكان في العادة تتكدس عليه المخطوطات والكتب والجرائد. شعرت بوجود شخص ورائي فاستدرت ونظرت. كانت أليساندرا غارقة في كرسي بذراعين. من نظرتها عرفت أنها كانت تنتظر توضيحات من دخلاء غير مرئيين. تكلمت إليها أنجيلا:

«أعذرينا، لن نبقى طويلاً».

كما لو كانت تتكلم إلى الفراغ.

وكانت أليساندرا ترتدي ثوباً يتدلى مفتوحاً على جسدها.

لمحت عرياً لا يزال نضراً، شهوانياً. كان جسدها حافظ على كل سحره ليتناقض مع خطوط وجهها التي هرمت بصورة مفاجئة. توقفت الموسيقى. كانت أليساندرا تفتح فمها من وقت لآخر ساعية إلى قول شيء ما وفي وجهها تعابير ذهول.

اقتربت منها ولمستها. كانت ذراعها باردة. فجأة فتحت النافذة ودخلت منها دفعة ريح قذفت العصافير إلى قضبان أقفاصها. شعرت بدوار من الأحمر والبنفسجي والأصفر والأسود.

سألت أليساندرا: «متى؟»

حدجتني أنجيلا. سألت أليساندرا مجدداً: «من؟»

همست إليّ أنجيلا قائلة: «أحقاً لم تعرف بالأمر؟»

كنت مذهولاً. وخرج من فمي سؤال بصعوبة كبيرة: «منذ متى وهي على هذه الحال؟»

«منذ سنة. وقبل ستة أشهر ازدادت حالتها سوءاً. أصيبت بجلطة في الدماغ ولم يطرأ أي تحسن على حالتها».

بالقرب من رأسي كان عصفور صغير يمد إليّ منقاره من داخل قفصه وهو صامت من دون حراك وسط تغريد العصافير الأخرى ولغوها. تذكرت حين قالت لي أليساندرا يوماً «إنه عصفور الذعرة، لم يغن بعد وهذا يعني أنه مريض». كان العصفور الذكر متجهماً وراء الأنثى. وكل ما كان علي فعله هو مداعبة قضبان القفص برقة، كما كانت تفعل أليساندرا، حتى ينطلق العصفوران في أغنية ثنائية رائعة. كان الذكر يبدأ ببعض النغمات التي سرعان ما ترددها الأنثى.

كانا يتبادلان النغمات باتقان كبير، ولو لم يكن ضوء النهار

ساطعاً في تلك اللحظة لحسبنا أن الفجر ينبلج في هذه اللحظة بالذات، وربما داخل سجنهما فقط.

أغمضت عيني، وكأنها تعاودني أوقات الحب العديدة التي جمعتني بأليساندرا، وقد عهدتها دوماً مفعمة بالحياة إلى حد الإفراط. هكذا كنا نتوهج أنا وهي، كما ثنائية العصفورين. خلف الأفكار المشوشة، كان استيقظ، ولا شك، شيء ما في ذاكرة الصديقة التي أكملتها، حاولت أن أقرأ ذلك في نظراتها. مهما كانت رأسها ممتلئة بالصور المشوشة وبالفراغ، كان لابد أن تعيدها إلى الماضي. نظراتها المحدّقة بي في هذه اللحظة، كانت تمسها ابتسامة قصيرة تعود بنا إلى خطى وجودنا الأول، إلى حيث كنا نلجأ حين كانت الحياة خامدة، وهناك نجد المشاعر الطفولية التي لم تمس بسوء ولم تغادرنا قط.

«أنا هنا» قلت لها. «هل تعرّفت إليّ؟»

لم تجبني إلا تلك الإبتسامة في عينيها.

رددت إسمي على مسمعها. أجابتني ومضة في عينيها. ومن ثم على حدقتيها البعيدتين تشكلت دمعتان ثقيلتان تزامنتا مع الإبتسامة فبانت رغبة عميقة في الصمود تحاول بخفر وهشاشة، ألا تتجاوز حدود العينين الباكيتين.

كان خدها الأيسر مبللاً. أناالذي لطالما كنت أخاف من الجنون وكانت أليساندرا نفسها تحثني لكي أتحرر من هذا الرهاب بإسم السكينة الهانئة. وها هو جنونها يتمظهر الآن كما كان ممكناً أن يحصل لي أنا أيضاً: «كنت أراه وأتلمسه في ذلك الخط الذي يسيل بين تجاعيد وجهها وفي البقايا العضوية من ذهن فقد نفسه

بعد حيوية هائلة. اقتربت أنجيلا وبيدها مشط ومرآة. راحت تمشط شعرها برقة متناهية. نظرت أليساندرا إلى المرآة ولربما من دون أن ترى نفسها.

وبدا لي أنها قد لمحت لوهلة واحداً من لقاءاتنا العاطفية الماضية، لأن القبلة السريعة المفاجئة التي طبعتها على المرآة كانت بالتأكيد موجهة إليّ.

أغلقت أنجيلا النوافذ. عدنا إلى الحديقة بعد أن بذلت جهداً كبيراً لأبتعد عن أليساندرا. «كل ما تستطيع أليساندرا قوله هو «أين» أو «من»، أسئلة لا تعني شيئاً. كانت تصدر منها بعض النغمات الغريبة كما لو كانت تتكلم إلى العصافير. «يقول الأطباء إنه عليّ أن أسمعها باستمرار الموسيقى التي كانت تحبها. وأحياناً كانت النغمات تعيدها قليلاً إلى وعيها».

قبل أن أغادر قالت لي أنجيلا: «لقد حاولت أن تجدك حين كانت لا تزال قادرة على الكلام، آخر اتصال أجرته تلك الليلة كان اتصالها بك».

«أو تقولين لي إنه كان بمقدوري مساعدتها بطريقة ما». «كانت قلقة عليك. خافت أن تكون قد تواريت هكذا ببساطة. بأن أحداً ما أساء إليك، بأنك توقفت عن العمل. لقد آمنت بك اكثر من أي شخص آخر، ولم تكن لتريدك أن تتعذب لأي سبب من الأسباب.

نساء دورادوس

عابدات القضيب. حمل القضيب كان طقساً ديونيسوسيا: زياح بصورة زائفة للقضيب.

هذا الطقس لم يمت بالنسبة لبعض النساء. الزياح الأسطوري مستمر في رؤوسهن. يحكمن على الرجل إنطلاقاً من حجم عضوه. يثرثرن بشأنه مع صديقاتهن ولا يهدأن إلا بعد القبض عليه، وأنا أسمي هؤلاء باحتقار وإزدراء: «نساء دورادوس».

دورادوس هي غيمة ماجيلانيكية، المجرة الأقرب إلينا. وفيها نجمة «شاذة»، هائلة الحجم، أكبر من حجم شمسنا بثلاثة آلاف مرة. إنها أحد أبعد الكواكب في الكون، يحيط بها حقل مغناطيسي، ويصف علماء الفلك النجمات المنجذبات إليها بـ «المحبطة والمتنافرة».

تركت لنا العصور القديمة آثاراً لا تحصى عن عبادة القضيب: المسلات المصرية، آثار ديلوس، عضو سيروي الأنثوي، الأشكال القضيبية من التاميرا أو أيستوريتز، النقوش الضئيلة البروز من العصر المجدليني، صخور المنليت وغيرها من الحجارة المستطيلة الشكل المتصبة في الكوزكو أو المناطق الهندية، الإنشاءات البولينزية، القطع المعدنية المقدونية، القبور الأثرورية بالإضافة طبعاً إلى طقوس ديونيسوس العربيدة.

معتقدات خرافية: في إسبانيا كانت بعض النساء المسلمات الحوامل يطلبن حماية الشيطان عبر تقبيل الأعضاء التناسلية لرجل مجنون. طقوس وحشية: حتى المصريون القدامى كانوا يخصون أعداءهم ويجمعون الأعضاء المبتورة حتى يتمكنوا من إحصاء عدد ضحايا انتصاراتهم الحربية باعتبار أن رجلاً من غير عضو هو رجل ميت. على ضفاف البو، ولغاية بضع سنوات خلت، كان يتم إخصاء ثور لمنع الفيضانات. كانت النساء تبتهلن إلى بيو، الإله القضيبي، حتى يندفع مني الحيوان بأكبر كمية ممكنة ومن ثم

يعمدن إلى رشه على ضفاف النهر وهذا كفيل بتهدئة خاطر الفيضان. ويقتضي هذا الطقس رش الدماء كذلك فتصبح الأرض قرمزية اللون، وكانت النساء يتجاذبن العضو المقطوع. ثمة «أوليسبوس» في أروع نساء دورادوس. إن الأوليسبوس هو عبارة عن عضو اصطناعي بمقاييس ضخمة كانت الشابات الصغيرات، وبأمر من الذكور في عائلات اليونان القديمة، تستخدمنه لتعلم أصول ممارسة الحب في مدينة تاسوس. وقد هرب سابو، معلم المدينة، من تاسوس نتيجة إرتكابه هذه الفظاعات. وتكلم أريستوفان أيضاً عن صورة رجولية زائفة مصنوعة من الجلد المغلي، كانت نساء ميليتوس المنحرفات يستخدمنه لغايات جنسية شاذة.

مقابل عبادة النساء للعضو يمكننا ملاحظة ظاهرة الـ «فاجينا دينتاتا» والعبارة تعني، في التحليل النفسي، هوس الرجال ورعبهم من أن تلتهم النساء أعضاءهم. هذا الهوس يمكن ربطه بصورة الأم المخيفة، وبكوكبة مرعبة من العناكب القارضة التي صورها جوناه وايل، والحيوانات المخيفة التي رسمها بوش وغراندفيل. الرعب من الخصي يتمظهر عند المصابين بالعصاب لدى مواجهة العضو الأنثوي: إن إيلاج العضو، موضع التبجيل، في جسد غامض لا يخلو من العدائية، ويثير فيهم الهلع الشديد وأيضاً الإشمئزاز. وفي كثير من الحالات تكون المثلية وسيلة لإيلاج العضو في جسد ذكوري غير غامض وغير غوار، وإنما مماثل للجسد الذي يلجه. أما الثقب الأنثوي فما هو إلا فجوة مميتة ومرعبة.

لطالما رثيت لحال نسوة الدورادوس اللواتي يبدين إصراراً على البقاء في مرحلة العبادة العضوية، وأراهن يتقدمن على طول منحدر

تل أجرد في فايستوس أوكنو سوس ويحتفلن بمفردهن بطقوس قضيبية في سحابة من الرماد.

*

في بعض الأوقات، كان منزلي يبدو لي كالصحراء. ذات يوم، صعدت الدرجات المئة والعشرين في بيت السلم المفضي إلى قبة كاتدرائية في بارما وكانت قيد الترميم. ووجدت نفسي أمام ملائكة تعزف الموسيقى تتبادل القبلات وتتعانق فيما هي تطير بسحر في أجسادها كما النساء اللواتي أفضل.

فقط بين خرائب كنوسوس وفايستوس، في النور الكريتي وجدت السلام الجسدي والروحي يتزاوجان بإدراك حسي لأسطورة الخلق. بواسطة الخيال نفسه، ذلك المليء بالدلافين اللازوردية، الذي أبدع الفن الأنثوي خاصته.

رأيت نفسي في الملائكة العازفين. أنا أيضاً، بالوراثة، كانت بداخلي ألوان الترميم الحادة: لون الصباح الوردي الباهت الظلال البنفسجية، بياض الغيوم اللامتناهي. نفس لاذع هبّ علي من اللوحات الجدارية، ولفعني بقوة فشعرت بدوار هذه الأشكال الصاعدة من الأرض إلى الجنة. لم يكن هذا نصراً أسطورياً. كان إنغماراً في لاتكون القبة المعكوسة. كانت الملائكة تصعد إلى الله وهي قد نسيته ونسيت سبب وجوده. كانت تصعد إليه لمجرد لذته النقية. مددت يدي. لمست أجسادها، ولكن في تلك اللحظة بالذات، وبعد أن قمت بحركة معينة، هبط الليل فجأة على الظهور، الأرجل، الأباط، والسيقان المنفرجة لتشتبك بسيقان أخرى. تحت رؤوس أصابعي كان الظلام. وفيما كنت ألمس هذه الجنة بأصابعي وبأظافري حتى، شعرت أني أسقط في الفراغ

والظلال... حصل مثل هذا مع نسائي المفضلات. كان الليل يهبط فجأة. ولم يكن بمقدوري أن أحافظ على نور لقاء يضيء الحياة للحظة قصيرة، أمور كهذه تحصل.

حتى في فراغ كهذا، كنت أشعر بحاجة ملحة لشخص يفتش عني، يحتاج إليّ. حتى عابدات القضيب اللواتي يتوافدن علي من وقت لآخر: نساء وفتيات يقضين معظم أوقاتهن في التردد على محلات بيع أشرطة الموسيقى والنوادي الليلية. «يفتشن عن أعضاء ضخمة» كما كن يرددن لي ضاحكات؛ أذكر واحدة منهن، دانييلا، التي روت لي: «أجد نفسي واقعة في حب الرجال ليس لشخوصهم، إنما في حب آلاتهم المنتصبة. أعني أولئك الذين يتمددون على السرير ويشعرون بمنتهى السعادة حين ينظرون إلى الهدية التي تلقوها من الله والتي يحملونها في سراويلهم. وهذا يثيرهم أكثر مما أثيرهم أنا. ومن ثم يلحظون وجودي فيسارعون إلى إيلاجي. حظيت بكل الأنواع في داخلي. هذا مخجل، أعرف فأنا لا أفكر أبداً تقريباً بالوجه ولا أفكر كيف أن أحدهم كان بمقدوره أن يتكلم إليّ، أن يفهمني ويؤاسيني... غير أن ديانتي هي ديانة مختلفة».

وفيما راحت تحدّق في اللاشيء قالت لي. «ثمة شاب يدعى موريزيو...»

لم أرها منذ شهور عدّة.

عادت إليّ ذات نهار أحد في فترة بعد الظهر. كانت عيناها حمراوين ومنتفختين، كمثل عيني أولئك الذين يعانون من أرق مزمن. ذلك اليوم، غالباً ما أذكره... لمست جبينها: كان متقداً. نظرت إليّ بذهول وهي تحاول أن تبقي جفنيها مفتوحين على فراغ

نظراتها. أحنت رأسها إلى الوراء وهي تقول لي إنها تود لو تنام شهراً بكامله أو سنة حتى. كانت تتحدث عن النوم كما لو كان تحريراً مستحيلاً من قيود ما؛ يتغلب عليه اليأس كنت أنا خمنته:

«كان من السهل علي أن أنام، الآن أشعر كما لو أنني لم أنم في حياتي».

خلعت ثيابها واندست تحت الغطاء؛ كل ما بان منها كانت عينيها الحمراوين تحدّقان فيّ. بدأت تقول لي إني إذا ما رغبت في مضاجعتها فلسوف تحاول جهدها كي تبقى يقظة. طمأنتها قائلاً: «لا تقلقي، نامي».

غفت على الفور. يطيب لي أن أبقى ساهراً إلى جانب امرأة نائمة. حتى أتعس النساء، ينمن عادة في أوضاع تعيدهن إلى الماضي البعيد: إلى سكينة الطفولة، إلى قصص حبهن الأولى. فتشبكن أيديهن بين أفخاذهن كما لو أنهن يحمين عضوهن الجنسي وكأنه كنز ثمين. لا شك أن المشاعر والأحاسيس تتفاعل حتى أثناء النوم.

ثم راح جرس الباب يرن بإصرار شديد.

دخل شاب في الثلاثين من عمره من غير أي عدائية تذكر وقال إنه موريزيو، ذلك الذي اعترفت لي دانييلا أنها تحبه بسبب آلته المتعجرفة.

دخل إلى غرفة الجلوس واستولى فوراً على المكان ومن دون أن يقدم أي توضيحات. نظرة واحدة منه وأدركت أنه ليس لدي الحق لأقول أي كلمة. وذلك لمجرد ما كان على وشك اكتشافه هنا في منزلي؛ امرأة كانت حبيبته يوماً. بالإختصار شعرت بأني أنا من

كان دخيلاً. وبغريزة اللص المحترف حزر موضع الغرفة، واتجه إليها مباشرة بعد أن دفعني بقوة من طريقه. تبعته وأنا أتوسل إليه:

«دعها تنام، إنها مريضة».

رأيته ينزع عنها الغطاء. كانت دانييلا تنام بسكينة في الوضع الجنيني الذي كنت تخيلت، وقبضتاها منغلقتان وكأنما غفلة عن كل شيء. شعرت بداخلي بحقد كبير وأيضاً بالتوتر والصقيع المشابهة لمشاعر ذلك المعتدي الذي راح يأمرها بأن ترتدي ثيابها وتنهض فوراً. حاول أن ينهضها بالقوة فأمسكها بعنقها، ومن تحت ذراعيها ولكن من دون جدوى تحت ثقل نومها وكأنما تحت تأثير المخدر، سقطت الفتاة على ركبتها. صفعها بقوة. لم تقم بأي ردة فعل وها هو الآن يضربها بلا وعي وبغضب جامح.

*

لم يبد أنها الفتاة كانت تشعر بأي ألم، حتى حين ضغط بشدة على مهبلها. فتحت جفنيها للحظة ولكنها ظلت غائبة.

عند هذه اللحظة تبدل المشهد فصار كريهاً بعد أن كان وحشياً.

نظرت الفتاة نظرة هيام إلى الرجل الذي كان يسيء معاملتها بعنف كبير، وصدرت عنها ردة فعل آلية تقودها غريزة الرغبة في الدفاع عن نفسها وكذلك الطاعة لإلحاحه الإستبدادي. فتحت فمها تحت ساقي الرجل المنفرجتين. ارتسمت شفتاها المكتنزتان، المكسوتان بالحمرة، على شكل دائرة فاحشة لا تتحرك ثم مدت لسانها وجعلته يخفق قليلاً قبل أن يسترخي على أسنانها.

تردد المعتدي وهو يحدّق في الفم المعروض أمامه. ثم أنزل سحابه ـ وهو أيضاً كان يقوم بردة فعل غريزية ليس بدافع اليأس إنما

الوحشية ـ أخرج عضوه وأقحمه في فمها. الشعور بالغثيان دفعني للإبتعاد فيما ملأت رأسي الأفكار المشوشة. وجدت نفسي في المطبخ أمام المجلى. من النافذة ورائي، انساب شعاع ليسقط على السكين التي انتزعتها من حاملة السكاكين. كان صوت القطرات المتساقطة من الحنفية يصدر إيقاعاً عجزت عن تحديده، أهو التكاسل أم نفاد الصبر.

كانت السكين هناك في متناول يدي. حملتها فيما كنت أسمع المعتدي وهو يدخل إلى الحمام. تهيأ لي أني كنت قادراً على رؤيته يتبول عارياً متجهم الوجه. عاد بسرعة إلى غرفة النوم وأغلق الباب بعنف. لم تعد فكرة القتل فكرة عبثية سخيفة.

عدت أنا أيضاً إلى غرفة النوم. وضعت السكين على عنق الشاب وقلت له بهدوء: «سوف أقتلك إن لم تغادر».

*

لم أدرك أني كنت أحرك النصل. سال خيط من الدماء، سال على كتف ذلك المخلوق الذي لم يكن بتقديري أكثر من دودة بمقدوري أن أدوس عليها.

كان من السهل عليه مصارعتي. فهو أخف وأقوى مني. لم أكترث للأمر بل وإن فكرة إنه قد يحاول مقاتلتي كانت تثيرني. ولكنني سرعان ما اكتشفت أن معبودي نساء دورادوس، مثال موريزيو، كانوا جبناء حتى أن الخوف كان يثيرهم ويساهم في انتصابهم البليد. ولّى المعتدي الأدبار. مسّدت الأغطية فوق جسد دانييلا. عادت إلى النوم وارتسمت على وجهها ابتسامة رضى وشكر وامتنان.

*

... ثمة نساء غيرهامن نوعها أيضاً. نساء دورادوس. كنت أعمد إلى توبيخهن وكن يضحكن ولا يفهمن. بؤس وحدتي جعلني حليفاً للسخرية والإستهزاء. كنت أتركهن يأتين إليّ، وكان هذا غالباً عند الفجر لدى عودتهن من النوادي الليلية، ليتسنى لي وضعهن في إطار معين فاحتقرهن لأرى ما ستكون ردّات فعلهن ومن ثم أشفق عليهن.

كن تائهات، بائسات يخبئن أثوابهن الداخلية هنا وهنالك ويفتشن في أغراضي ويعبثن بها. كن يتكلمن ويثرثرن عن تحقيقات يقمن بها وعن هزائمهن وهوسهن. كان أيروس بالنسبة إليهن ساحة قتال أو بحيرة مجمدة يتزلجن فوقها وينفذن رسومات وأشكالاً قسريةً.

دعهن يتابعن ما يفعلن. دعهن يقلبن منزلي رأساً على عقب. فهذه طريقة لطرد الفراغ والعادات الراسخة. على أية حال، بقليل من الصبر، بمقدوري إعادة ترتيب الأمور إلى ما كانت عليه. في العلاقات الجنسية كن يجهلن أنهن، في الواقع، كن ليتحدن مع هذه الجدران، هذه السقوف، وكل هذه الأشياء المغمورة بتوحّد الرجل الذي يرفعن إليه نظراتهن الحشراتية، ويرضيهن مجرد وجود أي هيكل أمامهن. وبغية إثارة فضولي واشمئزازي كن ينسبن إلى أنفسهن انحرافات جنسية عديدة، وهن يرسمن مسارات غريبة بدخان سجائرهن في العتمة. كن يخبرنني عن تفتيشهن عن اللذة وسط استسلامهن لأكثر التجارب إذلالاً، وكذلك عن الغضب الرحمي الذي قادهن إلى تعقيدات استحواذية، وابتكر حكايات ساخرة للغاية: وعن خوف بعض الرجال، والنرجسية الساخطة لدى البعض الآخر. كن يغادرن في وضح النهار. أنظر إليهن من

السرير فيما يرتدين ثيابهن. قبلة ووداع. وأعود إلى وحدتي مجدداً. كنت أفرغ المنافض. أبدّل الشراشف وأغطية الوسادات المبللة بالعرق وسوائلنا المتبادلة. كان البعض منهن ينسين ولاعتهن، سوارهن، أقراطهن ونظاراتهن الشمسية. كنت أعود وأتمدد على السرير لأستمتع بلذة إشعال سجائري بواسطة هذه الولاعات. أضع نظارات ليست ملكي وكأنني كنت أنظر من خلالها إلى الواقع بعيني التي كانت، منذ فترة وجيزة، تتفحص جسد رجل كما لو كان السبب الوحيد للحياة.

وداع أ.ب.

إنها أمسية مثل باقي الأمسيات؛ روما كما كانت وستظل. ولكن بالنسبة إلينا، كان شعاع الشمس أكثر إنسانية من الناس والأشياء الأخرى. شعاع سقط ليقسم النهار والليل ويملأ الفضاء من حولنا. وكأنها ساعة السحر تلك، مغمورة بهالة من الغموض لتوحي بأشياء غير منظورة. بمقدورنا سماع الصمت، الضروري لأي اتصال حقيقي. تلك الإستراحة ما بين الكلمات المنطوقة، وأصوات المدينة ومعها الإشراقة الطبيعية شبيهة بالأنفاس.

نحاول أن نتنشق نفساً عميقاً ونتنشق ذلك «الشيء» الذي كان بيننا ولا يزال لغاية اللحظة. أطلب منها: «أطفئي النور. دعي العتمة تسيطر بكليتها. لا أريد رؤيتك مغادرة. لا أريد حتى رؤية طيفك تحت النجمة المرتعشة فوق النافذة فضولية بشأننا خلال رحلتها السريعة في الليل الأكثر صبراً منها... تكلمنا طويلاً، اعترفت لك بكل ما في نفسي، كما لو كنتِ صورتي في المرآة، جزءاً مني... أرجوك تواري هكذا، والأضواء مطفأة كما كل الآمال التي تلاشت في داخلي».

«على الرغم من أنه الحظ قد عاكسك فإن القدر كان لطيفاً معك...»

«لكن الوقت يمر بسرعة يا حبيبتي...»

«الوقت، أجل...»

ما إن ترحلي عن هذا المكان، أرسلي لي من بعيد بعض التحيات. نادي أسمي بذلك الوضوح الذي رافقنا أثناء كلامنا حتى ليخفت بعدها، كما أصوات الأضواء في الصمت الذي كان يملأ بلدتي حين كنت صبياً صغيراً أسائل الغيوم التي تمددت فوق الطرقات، حيث راح العشاق يتوارون خلف المنعطفات حيث أشجار التوت الكثيفة...»

«أسكتي، سوف نكون على ما يرام».

«ثمة أوقات أشعر فيها بخوف شديد؛ وأعرف بماذا يشعر النمس حين يكون الصلّ...»

كان الضوء يطلع من خلف طيف أ.ب. الرائع.

كانت يوماً، كمثل الطيور المهاجرة التي تحط لتستريح على شرفة منزلي في روما، أثناء رحيلها إلى بلدان غريبة. كانت تترك لي إشارة من أسرارها تماماً كما تركت لي أ.ب. إشارة من أسرارها.

«شكراً لك»، أقول لها» للرهافة التي ساعدتني بها لكي أعيد الترتيب إلى ذكرياتي ورغباتي والأفعال التي لا تزال تورطني...»

في العتمة الخالصة، تمسني مداعبة رقيقة. ينغلق الباب بقرقعة ناعمة. كم هي قاسية تلك الهناءة وذلك الشعور بعرفان الجميل حين تدرك أن امرأة ما قد استحقت ذاكرتك إلى الأبد.

كسرة سعيدة

أيروس هو أيضاً ذلك التفصيل من الذاكرة الذي يستولي عليك ذات صباح فيما لا تتوقعه البتة. تسير وتحمل وحدتك إلى سر في شارع فرعي صغير. عبارة رددتها امرأة أحببتها يوماً، تعود إلى مسمعك وكأنما لتضفي معنى لكل الأيام الضائعة في حياتك:

«... أنت أول رجل شعرت معه أني امرأة. ممارسة الحب معك، العذاب بين الرغبة في الإنجذاب إليك والصعوبة في تسليم نفسي إليك. على الأقل كنت أشعر بالفعل الجنسي، وأسيطر عليه وأكتشف أننا فيما لو سيطرنا عليه يفتح لنا الطريق أمام العواطف الخالصة.

«طلبت مني أن أخلع ثيابي وكأنني كنت أتلقى رسالة أيروتيكية كان بمقدوري قراءتها في شراكتي الساكنة، وأفتح الأبواب أمام حميمية كانت تغلق الباب على نفسها مع رجال آخرين عرفتهم قبلك...»

العاهرات

يبدو كل شيء ساكناً تحت أشعة الشمس الرقيقة التي تداعب زوايا المنازل، وزقزقة عصافير الدوري في أعالي الأشجار. كل شيء بدا هادئاً حتى ذلك الصفير البارد الصادر من الباب إلى جانب مدخل السجن الرئيسي. أنا بانتظار أحدهم. بانت منه أولاً يداه، ثم نار ولاعته، ثم رأسه الذي توارى خلف دخان سيجارته، ثم أخيراً مشيته التي لايمكن إلا أن تكون مشية رجل واحد: السلطان.

أطلق ماريو أول نفث دخان، حيّا ماريو المعروف أيضاً بالسلطان

حراس السجن (إنه يقضي عقوبة ثلاث سنوات، وشارفت مدة عقوبته على النهاية فيسمح له بالتالي الخروج أثناء النهار ليعود ليلاً إلى السجن) اقترب من سيارتي وراح يطوف حولها. توقف إلى جانب الزجاج المفتوح. كنت التقيته قبل سنوات أثناء عملي في قسم التحقيقات بالجرائم في صحيفة «إيل ميساجيرو».

كان ماريو آخر القوادين الكبار في الدعارة الرومانية. كان يرغب في رؤيتي ومكالمتي. العاهرات ـ ويدعوهن «سيداتي المنتظِرات، محظياتي» ـ عدن إلى قصص الجرائد التي أضحت الآن بئراً من غير قصد: إنها تلتهم كل حجج الفضائح الزائفة أو المحزنة. حتى إنه كان ثمة فيلم حول هذا بعنوان «لوبوتان» وقد عرض في مهرجان «كان» السينمائي.

ثمة إشاعات عن إعادة فتح «بيوت الدعارة». حتى أن السلطان قرأ تصريحات قام بها كتاب مشهورون أمثال «نايبول»: «كان يلازمني عطش جنسي مروع لا يرتوي. أردت أن أتعلم فن الإغواء الجسدي. كنت زبوناً أنموذجياً للعاهرات». رُشّح فيديادور نابيول، وهو من أصل أنكليزي ـ هندي مرات عديدة لنيل جائزة نوبل، وكان معروفاً بمزاجه المتزمت المتكتم، وبرفضه رفضاً قاطعاً إشباع فضول الصحافيين الراغبين في الكتابة عن حياته الخاصة. غير أنه أدلى بتصريح جريء ومثير في مقابلة أجرتها معه مجلة «النيويورك» احتل الصفحات الأولى في عدد كبير من الجرائد والمجلات.

قذف السلطان سيجارته، وكان له وجه ابن عرس، وهزّ كتفيه قائلاً: «الكثير من الجلبة، الكثير من الكلام... علي أن أقول هذا وأنه ليحطّم قلبي: لقد انتهى عالمي تماماً كما الأوبريت. أعتقد أننا بتنا نفرح بالمؤثرات الخاصة». وليؤكد على قوله هذا راح يستشهد

بقول من عمله الأدبي المفضل «يا صديقي لقد انتهت هذه الساعة الزائلة، أحد لن يشرب كأس اللذة بعد اليوم».

أسند مرفقه إلى النافذة ونظر في عيني كما ليؤكد لي أن عاهرات الشوارع والمواخير، هن، على أية حال، أفضل بكثير من النساء اللواتي أسميتهن سابقاً «النساء الميكانويات»، اللواتي يمنحن أنفسهن لأي كان ويتنقلن من رجل لآخر، ويعمدن إلى خيانتهم جميعاًد سراً من داخل مخبأ حياتهن حتى يحافظن على المظاهر المتناسبة مع أدوارهن الإجتماعية.

«... إنهن يتكاثرن كما الجراد وينتشرن كما بقعة الزيت إنهن ينافسننا بحق يا صديقي. لا أعني المجانين والمخنثين فهؤلاء على الأقل يجازفون بحياتهم. ولكن بماذا تجازف تلك النساء؟ إنهن حتى لا يضعن ضمائرهن على المحك. وبالنسبة إليهن الضمير الحي ليس موجوداً على الإطلاق». أومأنا برأسينا موافقين على ما كان يقوله وهممنا بالرحيل. ابتعد السلطان وهو يصفر ثم توقف لبرهة واستدار نحوي قائلاً: «هاي يا صديقي، هل عدت يوماً لزيارة قصر السلطان؟»

*

«قصر السلطان» آخر المواخير التي أسسها، وكان أكثرها فخامة على الإطلاق. «المنزل الذهبي» كان ماريو يعتبره مملكته الخاصة التي تعكس حياته المليئة بالخيالات المذهلة: الملهمة والفاسدة في آن، على طريقته الخاصة.

قصر السلطان أصبح اليوم خرائب مقفرة هو الذي كانت له الشهرة الواسعة، كواحد من أفضل أمكنة البهجة واللذة.

اصطحبت م. إلى هناك، امرأة شابة متقدة ذكاء، ومفعمة

بالفضول وتفتنها القصص الجسدية الخرافية. أصرّت على مرافقتي. كان بوسعي أن أرى ذهولها ما إن دخلنا الفناء الخارجي الذي يوحي بمكان يشبه شيئاً ما بين الحرم وثكنة الجيش. كنا في ساعة مبكرة من المساء، وكان آخر شعاع للشمس ينساب بين القناطر.

على طول المدخل، إلى الجهة اليسرى اصطفت أزهار زرقاء شبيهة بأزهار المرغريتا، وذلك لم يفاجئني إذ أن تلك البقعة اعتادت أن تجلس فيها إيناس بارتولي وتنتظر في كرسي من الروطان. كانت إيناس معروفة بلقب «سيدة زنابق الماء الحزينة»، ليس بسبب ملامحها الإسبانية فقط، إنما أيضاً لأنها حاولت، ولثلاث مرات متتالية، إغراق نفسها في النهر إثر إصابتها بانهيار عصبي شديد كان بلغ ذروته في فصل الربيع. وفي المرات الثلاث لم تغرق، وبطريقة أعجوبية، ذلك أن الأغصان علقت بثيابها ومنعت غرقها فيما تجمعت حولها زنابق الماء الضخمة وأحاطتها لتفهمها، في الوقت المناسب، أن الحياة ليست بهذه البشاعة وفيها مثل هذا الأريج.

صعدنا درج الماخور. كانت الدرجات في حالة قريبة من الإنهيار. ومن الجدران الرطبة تفوح رائحة التفاح المتعفن. غير أنه كان بالوسع رؤية ملاحظات تركها بعض الزبائن المداومين الذين كانوا من فئات مختلفة كما شرحت ل.م.: بذات رسمية، ثرثارون، جواميس كئيبة، عاطفيون، شغفون ومنحرفون. وفوجئت بقراءة عبارات تركها رجال من المشاهير: «أجمل لحظة حب هي أثناء صعودنا الدرج» أو «أدخل يا صديق قلبي» وعبارات أخرى من بينها لكليمنصو وستندال.

صعدنا إلى الطابق العلوي حيث الغرف. غطّى الغبار كل شيء

وأسس مملكته الخاصة، وهو كأنما يبدي الكثير من التأني والإحترام حين يتساقط ليغطي الأشكال والألوان. غبار وكأنما يحمل نكهة زمنه، ومن أشعة النور المنسابة من المصاريع المغلقة، كانت ألوانه تتدرج في برك من الألوان هنا وهنالك، كما الأوراق والزهور السرية في غابة لم تدنس بعد.

بدا طيف م. الفتي محزناً في الضوء.

قبل أن ندخل الغرف ونفتح النوافذ بادرتها: «بإمكاننا أن نلعب لعبة».

«أية لعبة هذه؟»

«بإمكانك أن تصبحي واحدة من النساء اللواتي سأخبرك عنهن. أن تتقمصي إذلالاتهن وخيالاتهن. ويمكنني أنا أن أصير زبوناً مختلفاً لكل منهن».

قلت لها هذا على شكل مزحة تحمل في طياتها إشارة وداع لم تتمكن م. من التقاطها: وهذا مستحيل لشابة في سنها غير أن اللعبة أشعرتها بالإرتباك والمتعة في آن.

في الغرفة الأولى كانت تقيم مادالينا التي كان يدعوها الجميع «الليلة المرصعة بالنجوم». إكتسبت شهرتها بفضل ثدييها المرضعين. بركانان من الحليب، وكانت في صغرها تطوف في أنحاء بلدتها الريفية، وتتنقل من مزرعة لأخرى كي ترضع المواليد الجدد.

فيما بعد انتقلت لترضع البالغين وهي على قناعة بأن قلوب الرجال لا تتجاوز أبداً مرحلة الولادة.

وكان بمقدورها تغذية فرقة كاملة من الجنود الذين كانوا يخلعون قبعاتهم المكسوة بالريش ويتهالكون في حضنها، كما

الطفل الصغير في «عاصفة» جيورجيوني، وفيما يرضعون يرددون باستمرار: لا أريد أن أذهب إلى الحرب... كان الزوار يعجزون عن إخفاء ذهولهم عندما يدخلون الغرفة ويشاهدون الوميض الأبيض وهو يشع من الثديين المنتفخين بدروب اللبانة التي لا تنتهي.

*

أدّت لي م. الشابة دور مادالينا.

كانت الغرفة الثانية معروفة بـ «هل فهمت؟» وقد أطلقت عليها هذه التسمية على شرف فرجينيا مور، التي كانت عند انتهاء كل فعل جنسي، تسأل مَن أمامها «هل فهمت؟» «ماذا هنالك كي أفهمه، بحق الجحيم؟» كان جميعهم يردد فيما يرفعون بناطيلهم. غير أنها كانت تعيد طرح السؤال بغضب نمرة شرسة حتى لأنهم يشكّون فجأة بالأمر، وهم يقفون قبالتها ممسكين ببناطيلهم ويحدقون بـ «هل فهمت؟»

وسرعان ما كان جسدها الملوكي يهرع ليجثم على حوض الإستبراد فيما هم يتساءلون: «ما الذي كان يجدر بي أن أفهمه، ألم أكن أمضي وقتاً فاحشاً فحسب؟»

وكان السلطان يتدخل: «عليكِ أن تكفي عن هذا يا فرجيينا لأن الرجال يأتون إلى هنا لسبب مناقض تماماً، يأتون كي لا يفهموا، هلاّ فهمتِ؟»

«ذات يوم، سوف نفهم أمراً ما من أجلك يا فرجينيا. سوف نفهم ونسعدك». بنظرتها الطفولية رددت م: «أفهم ما تحاول قوله لي».

رحت أداعب رأسها وعلى شفتي ارتسمت ابتسامة مريرة لم

تستطع فهمها، أو «ربما» لم تفقهها ثم جاء دور الغرف المسماة بـ «الفتيات الرومانيات»، لأن في كل واحدة منها كانت تقيم امرأة رومانية لها حياتها الخاصة، إذا جاز التعبير، وهذا يعني أنها كانت تعيش أكثر من ممارسة الحب لقاء المال، وما هو أبعد من الحالة السوية.

دخلنا إلى غرفة لورا الملقبة بـ «موضع الألم»، وذلك بسبب الألم الذي قاسته في حياتها، وأيضاً إسوة بإختصاصها المميز. اللسان بين شفتيها كان تدرّب على يد الجوع. والدتها ووالدة والدتها وكل والدات والداتهن، كان لهن ردات الفعل نفسها أمام الطعام. ردّات فعل ممزوجة بسحر بدائي وشره نهم استخدمتها لورانس في علاقاتها الجنسية مع الرجال والنساء على حد سواء. هذه المرأة الرومانية عرفت جميع مرارات الحياة وعذاباتها، ولهذا فإن لسانها كان يعرف كيف يهدىء موضع الألم، ضرس الإحساس الذي كان يؤلم عشاقها ثم ترسلهم جميعاً بعد أن تؤاسيهم بأفضل الطرق. وبقيت على هذه الحال إلى أن قررت الإنسحاب والإستسلام لألمها الخاص الذي لم تتمكن من بلسمته.

... ولعبت م. دور لورا.

هذه الغرفة كانت غرفة ليديا الملقبة بـ «المنارة في البحر الهائل». كانت فتاة رومانية هزيلة الجسد تفتقد لأي مفاتن ظاهرة في حين أن عينيها كانتا غير جديرتين حتى بالذكرى.

كان للناظر إليها وهي تجلس هناك في ثوب حمامها الليلكي أن يتساءل عما يمكن أن تفعله امرأة مثلها في قصر السلطان. ولكن عند أسفل حوضها النائي العظام، كان عضوها كما المنارة التي تنفجر بأنوارها الرائعة، كما شعاع من الضوء يعيد الحياة إلى بحار

يائس على سفينة غارقة في أقفار البحر. كان عضوها يشع على باقي جسدها ويلفه بهالة من السحر كأنما ليؤكد على أن للجسد لغته الخاصة التي يجب أن نتعلمها ونمارسها أيضاً.

... م. كان عضوها هي أيضاً رائعاً:

وهناك غرفة بوبا، «الأخت الصغيرة» بشعرها الأشقر الشاحب وانجذاب صوفي في تعابير وجهها. كانت تنتظر جالسة على كرسي بلا ظهر ولا ذراعين، بين النور والظلال. الناظر إليها كان يرى صورة كاملة لأحد أحلام الأطفال. على شفتيها ترتسم ابتسامة غامضة وفي عينيها نظرة من يشاهد رؤيا: كانت عيناها كمثل تلك التي نراها في صور الأطفال الذين ماتوا بعد فترة وجيزة من إلتقاط صور لهم.

عندما كانت طفلة، ماتت بوبا في قلبها بعد أن اغتصبت بطريقة فريدة مروّعة.

وهكذا لم تتردد لحظة في إشباع رغبات الرجال، حتى أكثرها انحطاطاً في حين كانت تحتفظ لنفسها بحلم النضارة.

في بعض الأحيان، كان يحدث أن يهرع إليها الخدام وحتى السلطان نفسه، حين يسمعون صراخها الذي يلوي جسدها المخلوق للألعاب الطفولية.

وعند الفجر كانوا يجدون سريرها ممزقاً، الشراشف والوسادات مرمية على الأرض، الألعاب محطمة، الكراسي مقلوبة وآثار الدماء على آلات حادة.

فهمت م. كل هذا: هذه هي الطفولة التي نحملها في داخلنا، نصف أخت صغيرة، والنصف الآخر يصبح شيطاناً حين توقظه أفعى العنف السامّة. وأخيراً كان هناك كليزيا، «طائر الليل». بعض

الزبائن كانوا يهتاجون بصورة مجنونة عند سماعهم أصوات الحيوانات والطيور التي كانت تصدرها. وهذا ما كان يوحي إليهم أنها كانت تقيم علاقات مع الحيوانات أيضاً. وهذا صحيح بالفعل ولكن ليس كما كانوا يتصورون. كان لكليزيا إيمان راسخ بأن الرجال حيوانات، إنما تم تجريدهم من بهاء الحيوانات الحقيقية، تلك المختارة من بين مخلوقات الله، وبما أنها كانت تؤمن بوجود الله، كرّست نفسها، أو ذلك الجزء الصغير المتبقي من روحها، لمساعدة الحيوانات.

حبها الأكبر والمستحيل كان لأحد طيور القرزبيل الحمراء، أمير طيور الليل. لكنه في يوم ما، رحل إلى الأبد. كان يحلّق فوق السطوح القرميدية عند غروب الشمس وذات يوم التقى أنثى من جنسه؛ تسارعت دقات قلبه وكذلك دقات قلب العصفورة. وكأنما بنزوة إلهية، التقى طائرا القرزبيل الحمراوان على سطوح المدينة، بعيداً عن موطنهما في الغابة. غير أن السطوح، رغم كل شيء، كانت تدفئها أشعة شمس كسولة شبيهة بشمس موطنهما البعيد. تحابّا حتى الجنون وحلّقا بعيداً باتجاه أرضهما الضائعة.

... كنا ننظر من النافذة: قمر ضخم سطع نوره على السطوح الرومانية.

قالت لي م. «فلتنقذنا أحلامنا ولتكن مرشدة لنا».

بعض المحطات الضرورية قبل النهاية...

رجعت إلى النزل في فيا فالاديه.

أمضيت هناك سنتين من أقسى سنوات حياتي، حين قدمت إلى روما لأعمل في «إيل ميساجيرو». طلبت غرفة. مديرة النزل، إيما

أليغري، من مواليد سرميد في منطقة بادانا، لم تتبدل قط لم تغيّرها السنوات. تعرّفت إلي على الفور ورحّبت بي قائلة إنها تشاهدني على التلفزيون وتقرأ كتبي (ومن الواضح أن هذا غير صحيح إذ أن قراءتها تقتصر على تقارير الشرطة، واستشهادات زبائنها الغامضين الذين تأويهم في غرفها). إنها سعيدة لأني رجعت لرؤيتها «والإقامة» عندها، وقد كان يحلو لها استخدام كلمة «إقامة» حتى ولو كان الحجز لليلة واحدة فقط.

«الإقامة» لم يتغير شيء.

النزل قد تم إنشاؤه بإقامة جدران في الغرف الواسعة، وهذا مألوف في عدد كبير من المباني القديمة في «براتي». سويت غرف صغيرة كان ولا يزال، يتوافد إليها العشاق السرّيون وغير الشرعيين وأيضاً المتزوجون حديثاً في شهر العسل، الذين لا يملكون المال الكافي للنزول في مكان أفضل. كان النزل يستخدم أيضاً كنزل للقاءات «جميلات النهار»: زوجات الرجال المهمين «العفيفات»، الطالبات ومعظمهن جد فتيّات، السكرتيرات الشرعيات. ولا يمكن تصور ما بإمكان هؤلاء النساء أن تقمن به سراً، وهن في الظاهر لا غبار عليهن.

مع هذا فإن إيما أليغري كانت، ولا تزال تواجه مشاكل عدة مع القانون.

كنت المقيم الوحيد الذي لم يكن لديه سوى خياله كرفيق سري أو غير شرعي. كنت أعرف كل شيء عن الأزواج المتوافدين إلى هنا. عن هذا النموذج من الإنسانية قد سجّلت عادات حميمة وأذواقاً لا تشعر بأي قلق، ولا أخفي أنها فاجأتني في البداية. كنت أعود من عملي في الجزيرة في ساعة متأخرة من الليل، حاملاً معي

كل روائح الجرائم التي كنت أحقق بشأنها في الأماكن الأكثر قذارة وفساداً: جرائم قتل، إنتحار، عراكات دموية، رائحة الدم والفساد كانت تصل إلى ذروتها. وكان يهيأ لي أن بإمكاني تطهير نفسي وإعادة إحياء توقي للحياة بالخروج من غرفتي والتجوّل في أنحاء الرواق الظليل.

كنت أعبر إزاء الغرف حيث تدور قصص الحب الشاق، المفرط والمسعور. رواق فارغ بين نساء هربن من بيوتهن أو طردن منها ليقعن في الشرك أو ليبحثن عن منفذ للهروب، ورجال يستولون عليهن بعنف سوقي ويقدمون لهن الخيبة ويسيئون معاملتهن بصورة عامة.

لماذا لم أقطع إقامتي في «فالادييه؟»

لقد تمسكت بحجة أن إيما كانت تتقاضى مني بدل إيجار زهيد، وأني كنت أهوى غرابة أطوارها أيضاً (قريتها سرميد مشهورة بصناعة ساعات الحائط وقد علّقت إيما واحدة في غرفة الطعام وقد توقفت عقاربها مشيرة إلى السقف، ربما لتؤكد أن العشاق السريين لا يعرفون الوقت). في الحقيقة، كنت أجده مثيراً قدوم أولئك الزوار ورحيلهم، وأشعر وكأني متورط معهم وفي الوقت نفسه أبقى خارج قصصهم. أكرر: لا يزال الأمر على حاله، هذه الليلة أيضاً. حين ينزل أحد العشاق إلى الردهة قاصداً الحمام، وقد ترك باب غرفته مشقوقاً، كنت ألقي نظرة خاطفة على أجساد النساء المنتظرة، أو على الرجال الذين يدخنون وهم ينظرون في الفضاء.

أعرف كل الطقوس التي تتم لكني لا أزال أجفل عند سماع صراخ النساء، والصفعات على الأرداف والتجديف المخنوق.

أراقب واستمع كما حين كنت أتخيل متاهات أيروس للمرة

الأولى، وأنا لا أعرف أنها غير موجودة وأن كل من يتجول فيها يغرق في القلق والكرب. في بعض الحالات، من غير المجدي استخدام خيالنا. كيف بإمكاني مقايضة خيالاتي الشهوانية مع واقع تلك الغرف المرقمة ٥ أو ٧ أو ٩؟

في آخر مشهد، كان رجلاً خمسينياً أصلع، مشبوهاً حتى حين يأكل أو يشاهد التلفزيون، يثور داخل امرأة راحت تبكي بدون توقف. أمسكها بشعرها وراح يضربها إلى الحائط. كان يجبرها على القيام بأفعال معينة واتخاذ أوضاع لبعض الصور الإباحية التي كان يراجعها. سمعته من وراء الباب يقول تكراراً: «بالوعة، مجرور».

وصلت إلى آخر الرواق. كان لايزال هناك سوى حمام واحد. من اللمبة سقط نور أبيض جليدي على الأرض الملطخة. أطفأت النور تاركاً الباب مشقوقاً وجلست على حافة المغطس. انساب نور خارجي من النافذة المطلة على الفناء الداخلي. بدأ قلبي يخفق خوفاً وحدساً بأمر ما. من غرفتي كنت أسمع النساء يأتين إلى هنا للإغتسال. لربما أنا في انتظارهن أو لربما لست كذلك. أنا في الإنتظار وهذا كل ما في الأمر.

كان الرجال لا يدخلون الحمام إلا وقد ستروا عوراتهم ومن لم يكن يرتدي بيجاما، أو سراويل تحتية، كان يلف وسطه بمنشفة. كانوا يشعلون النور وما إن يرونني حتى يبدون إعتذارهم ويرحلون. أما بالنسبة لعشيقاتهم فكان الأمر مختلفاً ونادراً ما كانت إحداهن تكترث لأن تستر عريها. كان همّهن الوصول إلى الحمام بأكبر سرعة ممكنة دون أن ننسى لذّتهن في التواطؤ الجسدي مع النزلاء الآخرين المتلبسين في الأوضاع نفسها. كنّ يهرعن عاريات وما إن

يرونني حتى ترتد رؤوسهن إلى الوراء ولا يدوم هذا الأمر سوى لحظاتٍ وجيزة يولد بعدها نوع من التواطؤ بينهن وبيني. وعلى عكس الرجال فإنهن لا يغادرن فوراً. فأقرأ في نظراتهن المكر المحترف الذي يخلق في بعض النساء حججاً واهية وذرائع زائفة،وسوء تفاهم يتأصل فيهن فتثبت قناعتهن بأن كل الرجال فاسدون وأن البراءة طريق غير نافذ. أنظر إلى الأثداء المتعرّقة؛ إلى الثقوب التي تم اختراقها للتو؛ الأقدام الحافية أو الأخفاف، أو الكعوب العالية. بعضهن شاحبات والبعض الآخر متوردات. وعلى أخريات كان بإمكاني رؤية الرضوض والخدوش. يتراوحن بين الوقاحة والحيوية العنيفة إلى الكبت وهذا التناقض غالباً ما نلاحظه في العشيقات السريات. وتدرك هذا من نظراتهن المشرقة بلذة الإنحراف أو المغشاة بما يشبه الدموع، أو من شفاههن البيضاء الجافة أو تلك المكسوة بحمرة الشفاه الكثيفة. عدت إلى نزل فالاديه لأن فضولي في هذا المكان معرّض لمختلف تقلباته، وبالتالي فإن قدراته على التفوق معرّض لأصعب الإختبارات.

*

إن الحياة جديرة باهتمامنا، بحسب ما يريه لنا ظهر الميدالية.

لم يكن بإمكاني عدم الذهاب، قبل النهاية: لكي أرى أمي في قريتي. سبق أن أخبرتكم أني كنت محظوظاً لأن القدر أهداني أمّاً في غاية الظرف والذكاء. نجلس قبالة بعضنا وتقول: «أويلاً أنظري مَن هنا؟»

بإمكاني أن أعود بعد يومين أو بعد عشر سنوات، الأمر سيّان. هذا رائع. تهتف قائلة: «أنظري من جاء إلينا؟» تعدّ الطاولة وتستأنف الحديث من حيث كنا قطعناه:

«عما كنا نتكلم في المرة الماضية؟»

أتذكر أنا أين كنا وصلنا، وكذلك أمي. فنشرع في الكلام مجدداً حول الموضوع نفسه. لكن الوقت يمر بسرعة هائلة ويحدث أن نتكلم عن شخص ما كان على قيد الحياة أثناء حديثنا عنه في المرة الماضية وهو اليوم قد مات. غير أننا ما كنا لنكترث لذلك فالمهم أن خيط حديثنا لم ينقطع.

في المرة الماضية تكلمنا على النساء «الفاحشات»، وكان يحلو أن تستخدم هذه الصفة للإشارة إلى النساء العارضات في السيرك، تلك المساحة الفنية التي نراها هنا، كما في أي مكان آخر من العالم، تتضاءل شيئاً فشيئاً وتكاد تزول في حين يتضاعف عدد البهلوانيين، ومبتكري الخدع وتكتظ بهم شوارع الحضارة. وهذا أمر مؤسف لأن السيرك، في هذه النقطة من العالم كان، في يوم من الأيام، في أبهى روعته وسحره. كان ألف ليلة وليلة. حتى أن السيرك الذي قدم إلى ماكوندو في «مئة عام من العزلة» كان مستوحياً من ذلك الذي وصل إلى أميركا الجنوبية قادماً من بو. وإذا لم تصدقوا هذا بإمكانكم أن تسألوا الكاتب عن الأمر.

راحت أمي تخبرني من جديد عن الآنسة «بيزي» ، نجمة سيرك «البيراندي» التي كانت تقدم استعراضها وهي واقفة على ظهر حصان أبيض ثم تبدأ بخلع ثيابها وتقذفها هنا وهنالك، قطعة بعد الآخرى، من دون أن تقع مرة. تحمل ثيابها وتلوح بها كما الأجنحة.

فتبدو أشبه بملاك جميل على ظهر حصان. ولا يزال الوضع على حاله، لغاية اليوم، في مستشفى المجانين في كولورنو حيث الآنسة ديزي بمثابة متعة كاملة للنزلاء؛ يبدأون نهارهم معها حين

تقف أمامهم بملابس الفروسية وتروح تضرب بسوطها ومن ثم تتطاير ملابس الفارس ويصفق الجميع مسرورين بأنهم، اليوم أيضاً، قد شاهدوا عرضاً من عروض الآنسة ديزي.

ثمة أوقات كان يطيب لأمي أن تأتمنني على أسرارها:

«أو تعرف أنهم لم ينسوني قط؟»

أعرف من تعنين «بهم». ولكنها تشرح لي:

«العشاق الذين كان بإمكاني أن أحظى بهم. لا يزال أحدهم يجلب لي باقات الزهور ويردد على مسمعي أن العيش والإنتظار كانا السبيل الأوحد للتمسك بالشباب ولذا فإنه سوف يظل منتظراً حتى النهاية. وتقول لي أمي أيضاً إنها لا تزال تحتفظ «بدفتر الألوان»، دفتر يومياتها الذي لا يحتوي على أي كلمة مكتوبة ولكنه يحتوي على إشارات ملونة تضع أمي كل يوم علامة إلى جانبها لتروي إذا ما كانت سعيدة أم لا.

«الوداع» قلت لها «الوداع يا أمي».

قصص الحب الأولى

من يدري لماذا، حين نرغب في إيجاز حياتنا، تعود إلينا قصص الحب الأولى التي كانت ذاكرتنا محتها كلياً.

على طول ضفاف النهر حيث ولدت، تكون فصول الشتاء في العادة طويلة جداً. شعرت بغبطة تفوق كل تصور حين طال أحد الشتاءات أكثر من غيره، وكنت في الرابعة عشر من عمري، فتسنّى لي أن أغامر أكثر في الضباب والجليد لأراقب «زيليا» من وراء نوافذ منزلها. كان الزجاج مغطّى بالكتل الجليدية التي تتدلى عليه ولا تترك سوى فسحات صغيرة بينها لتتيح لي رؤية ما في

الداخل. كان الجليد يمتزج بخيالاتي الشهوانية ولكن كانت له القدرة على إيقاظها.

كانت «زيليا» تروح وتجيء داخل المطبخ فتعبر أحياناً أمام الضوء لأرى تقاسيم وجهها الجميل وتفاصيل جسدها الأخرى: يداها، فمها، عيناها، شعرها وكان ينبعث منه شعاع ذهبي. أغرمت بهذه التفاصيل في حين كان ما تبقى من جسدها غائباً عن عيني فغرق في مخيلتي وراح يكبر في داخلي من غير حدود كما وسع الشتاء.

أتذكر صوت الثلج المتساقط من على الأغصان خلفي. وكنت أثب خائفاً كما لو أن والد «زيليا»، وهو رجل شرطة سابق، وجدني رابضاً هناك بالقرب من النافذة. لم يكن وجه الفتاة وجسدها وحدهما يغذيان مخيلتي، وإنما أيضاً توهّج المصباح الكهربائي في الداخل، ونار المدفأة ووميض الكؤوس على الطاولة... كل ذلك كان يحرّك في داخلي شعوراً أعجز عن تحديده.

ثم انتهى الشتاء وسطعت الشمس من جديد لتلقي أشعتها على الأغصان وتذيب الثلج. الفسحات الصغيرة على النوافذ صارت تتسع شيئاً فشيئاً أمام عيني، يوماً بعد يوم وكنت لا أتوقف عن الصلاة راجياً عدم مجيء الربيع بسرعة.

غير أن الشمس لم تكن صبورة والمطبخ الذي يستحيل جلياً، أكثر فأكثر، بدا مختلفاً كما بعض المحلات التجارية القذرة حيث تعجز عن تحديد نوعية البضاعة التي تباع فيها بسبب العتمة والغبار. ومضات النور في الداخل تجرّدت من هالاتها السحرية وصارت تذكرني بالضوء على الرسومات الجدارية المقدسة المكشوطة بفعل الزمن، حتى ليبدو أن السيدة العذراء والسيد

المسيح، بوجوههما العديدة المختلفة، قد تركا خارج المكان والزمان، غارقين في حزنهما العميق. وجدت نفسي أتعقب «زيليا» من غير أن يراني أحد، على طول الطريق المحاذي للنهر. رأيتها من بعيد وقد بانت إلى جانب الإشراقة البهية الطالعة من المياه الموشحة بطيور الماء والسنونو التي تنذر بقدوم فصل جميل.

بدأنا نسير على جسر «باسو» حيث كان يتوجب الحذر الشديد من الشرائح الحديدية المعلقة فوق منحدر حاد بسبب الدوار.

رأيت أن «زيليا» كانت مصابة بشلل جزئي.

كانت تجر خطواتها جرّاً ومع كل خطوة كان كعب حذائها يصدر رنيناً ويرجع صدى الشرائح الحديدية، وحين اقتربت المسافة بيننا صار يرجع صدى دقات قلبي والأفكار التي راحت تتكدس في رأسي، وتخزه كما أداة حادة فيما الأحلام منه تزول.

كانت «زيليا» تتقدم بخطوات مترددة وتحاول عدم النظر إلى أسفل.

عند منتصف الجسر، ترنّحت بفعل دوار أصابها، وكان عليّ أن أهرع لأتلقاها بين ذراعي. في تلك اللحظة، وفيما أنا أمسك ذراعها وأرى وجهها ينعكس في وجهي للمرة الأولى، اكتشفت أن ثمة أيروس للشفقة.

وهكذا، في ضوء الأشياء المحتّم إقترابها من النهاية

كان هنالك شاب يدعى «أويبي» لأنه، بحسب ما يروى عنه، ولد في أثيوبيا من والدين إيطاليين. كان يمضي أيامه جالساً أمام الكوخ الذي يقطن فيه وحيداً، قرب البحر، ويستمع إلى صوت الأمواج ويتنشق رائحة البحر ويتخيله متسائلاً كيف يمكن أن يكون

شكله. «أوييي» ولد أعمى وكان يتمتع بجمال أخاذ يفوق كل تصور.

عدد كبير من الفتيات كن يتسلقن المنحدر الصخري قرب البحر حيث كان الكوخ، وقد تملكتهن رغبة جامحة للإستسلام إلى «أوييي». ولكن ما إن يصبحن في مواجهة ذلك الوجه الأعمى المهيب الذي يروح يحدّق في واقع متخيّل تذوب فيه المخلوقات الأرضية وتنحلّ في الفراغ، كن يشعرن بأن جسدهن المحسوس في فساتين مثيرة إرتدينها خصيصاً «لأوييي» كما لو كان بمقدوره رؤيتها والإفتتان بها، كن يشعرن بأن كل هذا بإمكانه أن ينحل في الفراغ والعدم، فيولين الإدبار.

كن يقمن بمراهنات وتحديات سخيفة: «من منهن تمتلك الشجاعة الكافية لعبور سياج الفناء وتسليم نفسها إلى «أوييي» الذي يبدو، حين تمعن النظر فيه، غير قادر إلا على منح الحنان والرقة. حتى «كارمن دي غورو» المتوحشة والرائعة الجمال لم تتمكن من كسب الرهان. شاهدوها عائدة نزولاً على المنحدرالصخري وهي تبكي ويداها تسيل منهما الدماء وقد جرحتهما الأدغال الشائكة. كانت تروى دعابات كثيرة حول هذه الأمور. ولكي تثأر الفتيات لأنفسهن، ليس الثأر من «أوييي» بقدر ما كان الثأر من أحاسيسهن المتناقضة بين الرغبة في الإنجذاب نحو الأعمى الجميل والخوف منه في آن، كن يصطحبن عشاقهن إلى مكان قريب جداً من مملكة «أوييي». كن يعرفن أنه عاجز عن الرؤية ولكن سمعه كان خارقاً ويرددن بإصرار: «هنا سوف نمارس الحب، هنا بالذات». وكان عشاقهن يوافقون بلا اعتراض لأن تلك كانت الطريقة الوحيدة للحصول عليهن، إضافة إلى أنهم كانوا يشعرون

بأنهم أقوى من أي وقت مضى في حضور الرجل الذي لا يرى ويعجز عن القيام بخطوة واحدة غير مترددة.

كانت الفتيات يلهثن ويصرخن فيما يحدّقن إلى حدود الفراغ. وفي تلك الزاوية من الفناء كن يحتفلن بمضاجعاتهن الكرنفالية.

أشعر باحترام كبير للفتاة التي روت لي كل هذا فأسألها:

«ماذا عنك أنت؟»

«أنا رأيت «أوبيي» وتقدمت نحوه في الفناء بكل بساطة».

«وماذا حصل؟»

«راح «أوبيي» يداعب جبيني، تماماً كما فعلت أنت منذ لحظات؛ تركته يخلع عني ثيابي ويلامسني وأدركت أن خياله كان يمتلكني تماماً كما قد امتلكته أنا وأعطيته شكلاً ورغبة. وفيما راحت يدا «أوبيي» تتنقل على أنحاء جسدي وحين تركته يلجني، وصلت هذه المخيلة إلى ذروتها. وللمرة الأولى عرفت أني امرأة استثنائية وأني أحمل في داخلي شيئاً من العظمة».

لازمنا الصمت لفترة.

سألتها: «لماذا أخبرتني عن أوبيي؟»

قرأت الإجابة في عينيها حيث ومض انفعال مفاجيء. لربما يجدر بي أن أعتبر حياتي العاطفية مليئة بالرموز كما كانت حياة «أوبيي» وكما كانت معاملة الآخرين له وخصوصاً النساء منهم.

والآن جاء دورها لتسألني:

«ماذا ستفعل؟»

حين أفكر بمستقبلي، أود لو أجيبها بالقول: «إن قلبي محطم». ولكن عوض ذلك قلت لها:

«عليك في أوقات ما أن تحترسي من كلمة الوداع، من سماعها، من لفظها».

خصوصاً حين تدركين أن العالم، هنالك، كثير النسيان وذاهل في براءته المفاجئة، لمن يقدّر روعة النعمة التي لا نتوقعها ثم نلقاها بعد تجوال طويل؛ وعند هذه النقطة، تحاولين القيام بأشياء بسيطة كما يجدر بها أن تكون وتمدين طرف لسانك مثل «مارونتي» العجوز، الذي كان يلوّن المزهريات في البو، ممسكاً بفرشاته بكل ثبات وتأن حتى لتبلغ كل نقطة زرقاء يسكبها على مزهريته حد الكمال.

في وقت كهذا، حين يكون كل شيء على ما يرام، حين يسود التناغم كل الأشياء وما من ستارة تسدل بطريقة منحرفة، حتى صراخ عصافير النهر تجيبها أصداء ضفافه المفروشة بالحصى، حينها نعرّض نفسنا لخطر كبير إذا ما قررنا أن نستفيق من إغماءة العالم لمجرد أننا نرغب في الوداع.

إن العالم، مثل «مارونتي» العجوز، معرّض لأن يجفل في كل لحظة إذا ما فاجأه أحدهم، وحينها ترسم الفرشاة لطخات بشعة عوض النقاط الزرقاء الكاملة.

وهكذا قررت أن أحجم عن الوداع إضافة إلى أنه يستحيل في مثل هذه الأمور التكهن بما سوف يحصل. وقد يحدث أن لا تكون كلمة الوداع هي الكلمة المناسبة.

أعود إلى سيارتي في العتمة، وأثبت مبدّل السرعة في وضعية اللاتعشيق. أسير بها هابطاً على طول المنحدر الجبلي. أترك السيارة تسير بصمت لا يشوبه سوى قعقعة الحصى في ذلك الليل الساكن.

إن العالم لا يلاحظ شيئاً باستثناء واحد.

حين استدرت، لمحت إيماءة الفتاة أو بالأحرى إيماءة طيفها في ضوء الغرفة في الطابق العلوي. من تلك الإيماءة الصغيرة أدركت أنها وحدها سمعتني أرحل، وقفزت بسرعة إلى النافذة لتراني للمرة الأخيرة.

(انتهت)

ايروس

الأشياء التي كنت أتخيلها كانت قوية للغاية ، كثيفة للغاية ، حتى لتكاد تبدو حقيقية . شعرت أني كنت في الواقع أعيش كل شيء في خيالاتي الشهوانية : صور نساء كانت لتأتي إلي ، تتسلل بنفسها إلى الأفعال التي تبثّ فيها الحياة ، هناك في غرفتي الظليلة الساكنة الصغيرة ، أول غرائزي الشهوانية ، فتصبح الغرفة الصغيرة منصة ، مسرحاً إيروتيكياً متوهجاً . كنت صبياً صغيراً ، ولكني كنت مندفعاً بقوة ، بشجاعة ، ووحشية ، إلى رؤى واضحة من الأوضاع والإيماءات التي لم أكن لأعرفها في تلك السن . كنت كمن استحوذ عليه رجل بالغ ليتسنى له استعادة تجارب عاشها . كان عمري آنذاك معلقاً بين الطفولة الأولى وبدايات المراهقة ، شبيهاً بالأجنحة الشفافة والأعين المعصوبة في رسومات إيروس ، إبن مارس و فينوس : العصابة لا تمنعه من الرؤية بل على العكس تمكنه من رؤية التفاصيل الصغيرة ، لأنها في الواقع حجاب الشهوة الجنسية ، جوهر اللذة الحق .